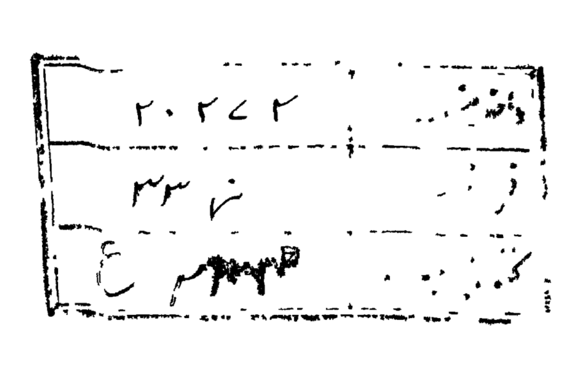




۲۰۲۷۴
۳۳ ن

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه فصول كتبتها فى موضوعات مختلفة من التاريخ الاسلامى ، لم أتقيد فيها بعصر معين أو دولة معينة ، بل تناولت فيها مواقف وحوادث شتى فى مختلف العصور والدول الاسلامية

وقد يبدو لأول وهلة انها فصول مفردة مستقلة لاتجمعها رابطة عامة ، بيد ان هذه الرابطة موجودة ، وهى رابطة فكرية كانت لى مرشداً فى اختيار ماعرضت إليه من مختلف الحوادث والمواقف . والواقع انى عنيت بناحية معينة من التاريخ الاسلامى هى اتصال الشرق بالعرب ، والاسلام بالنصرانية.وربما كانت هذه الناحية من بين نواحي التاريخ الاسلامى أزهرها وأغناها بشائق الحوادث والسير ، وربما كانت فوق ذلك أعمقها أثراً فى مصاير الاسلام ودوله . فلقاء الاسلام والنصرانية سواء فى ميادين الحرب أو السلام هو الذى اخترته مادة لهذه الفصول . وقدآثرت فوق ذلك أن أختار من هذا الميدان مواقفه الحاسمة ذات الآثار الخطيرة فى مصير الاسلام أو النصرانية . وكانت هذه الرابطة المشتركة أو الفكرة المعنويه هى التى تحدد فى ذهني موضوع كل فصل من هذه الفصول ، وهى التى تغذى معظم الفكر والتأملات فى كل موقف تناولته ، فجاءت الفصول كلها تقريبا ، (ماعدا ثلاثه أو أربعة منها) تدور حول هذه الفكرة الواحدة ، وتنتظم فى سلك هذه الرابطة المشتركة ، ومن ثم فى وسعى أن أقول انى لاأقدم إلى القارىء فصولا متناثرة ، وانما أقدم إليه مجموعة متماسكة متصلة في موضوع بعينه هو المواقف الهامة أو الحاسمة فى ملتقى الاسلام والنصرانية ، ومن ثم كان الاسم الذى اخترته لهذا الكتاب وهو « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام »

ولا ريب انى لم أحط بهـذه المواقف كلها ، فالميدان شاسع وعر ، ولـكنى أعتقد انى وفقت الى اختيار طائفة من هذه المواقف، تشوق بحوادثها وعبرها، وتفصح عن لمحات مما كان يضطرم وراء هذه المصادمات بين الاسلام والنصرانية من الغايات والآثار البعيدة ، فما كانت هزيمة العرب تحت أسوار القسطنطينية مثلا هزيمة للدولة الأموية ، وانما كانت رداً لسيل الاسلام الفتى عن شرق اوربا ، وكانت لذلك حادثا بعيد الأثر فى مصاير الاسلام والنصرانية معا . وما كان ظفر المسلمين فى سهول الزلاقة ظفرا للمرابطين والطوائف ، وانما كان هزيمة الاسلام كله للنصرانية كلها ، وكان فاتحة الحروب الصليبية ، وكان حياة جديدة لاسبانيا المسلمة . وما كان مصرع الحضارة الأندلسية ضربة للاسلام وحده ، وانما كان ضربة لعظمة اسبانيا ذاتها . وتصور مثلا أن المسلمين ظفروا بفتح رومة ولم يخفقوا تحت اسوارها ، فأى مصير كان يقدر للفاتيكان والنصرانية يومئذ ؟ أو ان لويس التاسع وجنوده الصليبيين ظفروا بفتح مصر فأى مصير كان يقدر لمصر وللاسلام يومئذ ؟ هذه الحوادث وأمثالها مما اخترته مادة لهذه الفصول انما هى مواقف عصيبة حاسمة حقاً فى تاريخ الاسلام والنصرانية ، والشرق والغرب . ولـكن المراجع العربية لم تعن كثيراً بهذه المواقف وآثارها العميقة ، وانما عنيت بها المراجع الأفرنجية عناية كبيرة ، وتناولها جماعة من أعلام المستشرقين بالتحليل القوى الممتع ، فكانت بحوثهم إلى جانب الموسوعات العربية مرجعاً لى فى كثير من التفاصيل والآراء النفيسة

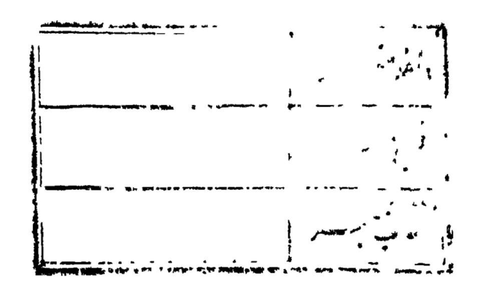
ولما كانت مباحث التاريخ الاسلامى التى تستند إلى التحليل والنقد مازالت لدينا فى مهد الطفولة ، وما زالت تتأثر بطائفة من المؤثرات التى تحول دون اخضاعها لمناهج البحث الحديث وبروزها فى مثل هـذه الصور النقدية القوية التى نراها ماثلة فى الآداب التاريخية العربية . فانى أؤمل أن أكون بهذا المجهود الضعيف ، قد نلت لمحة من التوفيق فى سلوك هذا المنهج معتقداً على أنى حال ان الوقت قد حان لان نسبغ على مباحث التاريخ الاسلامى صورة جديدة غير تلك الصور العتيقة التى مازالت تحجب كثيراً من محاسنه وبهائه

وقد ذيلت هذه الفصول بتراجم بعض كبراء المؤرخين الغربيين والمستشرقين الذين راجعت مؤلفاتهم أو اقتبست من أقوالهم ، وكذلك بفهرس أبجدى عام لجميع ماورد ذكره من الأسماء والاعلام ليكون مرشداً عاما لكل ما تناوله الكلام والبحث

ولست أختتم هذه الكلمة دون أن أتقدم بجم الثناء والعرفان إلى «لجنة التأليف والترجمة والنشر» التى أتشرف بعضويتها ، فاليها يرجع الفضل فى نشر هذا الكتاب وضمه إلى مجموعة كتبها القيمة التى تنطق بما تبذل من جهود صادقة فى خدمة التفكير المحدث ، والتى أحرزت باخراجها مكانة رفيعة فى مصر والبلاد العربية ؟

القاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٢٨

محمد عبد الله عنان
المحامى



ثبت بالمراجع

Dozy — Histoire des Musulmans de l' Espagne juqu' à la conquéte des Almoravides

— Recherches sur l'Histoire Politique et Littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age

— Le Cid

Essai sur l'Histoire de l'Islamisme

Guizot — Histoire de la Civilisation en Europe

Sismondi -- Histoire des Républiques italiennes au moyen âge

De Joinville - Histoire et Chronique du roi Saint - Louis

Conde — Historia de la dominacion de los Arabos en Espana (الترجمة الفرنسية)

Gibbon — Decline and Fall of the Roman Empire

Ameer Ali — A short history of the Saracens

Finlay — History of the Byzantine Empire

— " " of Greece under the Romans

Lane Poole — The Moors in Spain

Prescott — History of Ferdinand and Isabella

Irving — Conquest of Granada

Marco-Polo's — Travels

Aschbach — Geschichte der Omajaden in Spanien

— " Spaniens und Portugals zu Zeit der Herrschaft des Almoraviden und Almohader

— وطائفة كبيرة من المراجع العربية أهمها تواريخ ابن خلدون ، وابن الأثير وأبو الفداء ، والمسعودى ، والسلاوى ، والمراكشى ، والمقريزى ، والمقرى ، ورحلة ابن بطوطة وغيرها

الفصل الاول

وثبة العرب

وكيف خرجوا من الصحراء إلى الظفر

ان وثبة العرب من قفار مكة إلى الغزو ، واقدامهم فى قلة من العدد، ونقص فى الأهبة على اقتحام دولتين من أعظم دول التاريخ مما يثير الدهشة ويدعو إلى التأمل ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن سحق العرب بعد فترة يسيرة من ظهور الاسلام للدولة الفارسية ذات المدنية العريقة ، والجيوش الجرارة ، والأهبة العسكرية الوافرة ، واجتياحهم لمعظم أقطار الدولة الرومانية على ما كانت عليه من منعة فى القوى ، وضخامة فى الموارد ، وانشاءهم فى مدى نصف قرن فقط على أنقاض ما هدموا من صروح الدولتين الفارسية والرومانية ، دولة شامخة تناهض أعظم دول التاريخ -- لانبالغ إذا قلنا ان ذلك من المعضلات التاريخية التى لا يكاد يكفى لشرحها ما نعرف من قوانين التاريخ وعلل العمران

بيد أن فى ظروف العصر الذى حدثت فيه وثبة العرب الأولى ، واضطرام الصراع بين دولة الخلفاء الناشئة الفتية ، وبين فارس والقسطنطينية ، مايقرب فهم هذه المعضلة . وفى وسعنا أن نرجع وثبة العرب هذه وما اقترن بها من فتوح عظيمة وانتصارات باهرة إلى عاملين أساسيين أحدهما يتعلق بتأثير الاسلام فى نفوس القبائل العربية التى خرجت من الصحراء إلى الغزو باحثة عن السلطان والثروة والملك ، ويتعلق الثانى بظروف الأمم التى قضت الحوادث أن تكون مهاداً لفتوحات العرب

فأما الأول فآثاره فى وثبة العرب قوية بارزة، طلع الدين الجديد على قبائل مشردة مشتتة تعيش بعقليتها التقاليد الوثنية ، وتمزقها الحروب الأهلية . فألف بينها، وأمدها بنظم روحية واجتماعية وأخلاقية متينة . وكانت خواص العصر الذى ظهر فيه النبى العربى

مما يمهد للدعوة الجديدة ، ويدعم ذيوعها وتقدمها . كان عصراً يعصف الانحطاط العقلي فيه بالطبقات الحاكمة والارستقراطية في العالم المتمدين عصفاً ذريعا . وكان معظم المجتمعات يموج سأما وسخطاً على الأحوال والنظم التي كانت تسود وقتئذ ، وكان السواد من البشر يطمح إلى إقامة نظم اجتماعية أرقى وأمثل ، فكانت بوادر من هذه الريح العامة تهب في بلاد العرب ، وكان العرب يشعرون بالحاجة إلى دين أمتن في نظمه وأنقى في تعاليمه وتقاليده من الوثنية المضطربة المنحلة ، بل كانت شعوب فارس والشام ومصر تشعر بمثل هذه الحاجة إلى تعاليم جديدة ترضى مشاعرها الدينية بأكثر مما كانت ترضيها التعاليم النصرانية أو اليهودية أو المانوية التي كانت تضطرم بالخلاف جنباً إلى جنب، ويحيط بها الجدل المستفيض ، فلما ظهر النبي العربي ألفى أمة بأسرها يحفزها تيار التقدم ، ويزكى عزائمها ظمأ العرفان والملك

ولعل الاسلام كان في ناحيته التشريعية أشد آثراً منه في نواحيه الأخرى ، فقد خلقت الشريعة الجديدة من القبائل العربية مجتمعاً منتظما متماسكا ، واستبدلت بالعرف وحكم الاهواء قوانين حكيمة تستند في روحها إلى أقوى مبادىء الطبيعة البشرية ومشاعرها . ولاريب أن الشرائع التي تحكم الجانب المعنوي أشد ما تكون أثراً وأعظم ماتكون فوزا ، اذا ألمت في أحكامها بنواحي التفكير ووجهات العواطف في المجتمع الذي تسن له . وهنا ما روعى في أحكام الشريعة الاسلامية مراعاة شديدة . وما جعلها مدى القرون قانوناً سياسيا واجتماعياً لكثير من الدول والمجتمعات الاسلامية . بل هذا هو السر في أن كثيراً من المجتمعات الاسلامية المتمدينة ما زالت في عصرنا تحتكم إلى الاحكام والنصوص التي وضعت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً . وهذا ما يشير اليه المؤرخ فنلي في قوله : « قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة حرقة على عقول اتباعه وأعمالهم ، ووضعت عبقريته أسس نظام ديني سياسي ما زال يحكم الملايين من البشر ، من أجناس مختلفة وصفات متباينة . إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الآسيوية ، وثبات

نظمه مدى أجيال طويلة فى كل نواحى الهيكل الاجتماعى ، دليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغ والاسكندر »

ثم ان مبدأ الوحدة كان له أثر عظيم فى ربط القبائل . فوحدة لاله ، ووحدة العرب القومية، ووحدة الادارة الدينية والمدنية والقضائية والعسكرية واندماجها جميعاً فى نظام رئيسى واحد ، كانت عاملا قوياً فى التفاف القبائل حول الدين الجديد واجماعها على بث دعوته ودفع سلطانه بحماسة وعزم كان لهما أثر عظيم فى سير الفتوحات الاسلامية الاولى

وهذا عنصر ايجابى فى أثر الاسلام فى وثبة العرب . ولكن يوجد ثمة عنصر سلبى يرجع إلى مشاعر الشعوب التى كانت مهاداً أولى لانتشار الاسلام . ففى فارس كان الاكاسرة يضطهدون النصارى واليهود ويسومونهم أمر ضروب الخسف والارهاق ، وكان امبراطرة الدولة الرومانية الشرقية يضطهدون اليهود وأحرار المفكرين فى جميع أقطار الدولة ، وذلك فى الوقت الذى أعلن المسلمون فيه حرية الاعتقاد والضمائر أينما ذهبوا وحرص ساستهم حينا على تطبيق هذا المبدأ إلى حدود لا بأس بها فى عصر كان الاسلام فيه فتيا ، وكانت جذوة الحماسة الدينية تستعر فى نفوس الخاصة والعامة معاً . فكانت هذه السياسة عاملا قوياً فى اكتساب تأييد فريق كبير من رعايا الدولتين الفارسية والرومانية الذين كانوا يناصبون العداء دين الدولة ويعانون من أجل ذلك ألواناً شتى من الجور والعسف

وأما العامل الثانى فيرجع إلى اضمحلال الدولتين الرومانية الشرقية والفارسية فى الوقت الذى برز فيه العرب من الصحراء . وإلى الفوضى السياسية والاجتماعية التى كانت تعصف بينائهما وتقوض من صروح منعتهما . كانت القوانين الرومانية شر ممزق لوحدة الدولة الشرقية ، وكانت باعث الانحلال والتفرق بين أقطارها ورعاياها ، ذلك أنها كانت تمعن فى التفريق بين طبقات المجتمع وبين رعايا الدولة أنفسهم ، فتؤثر

الرومانيين بالمناصب والامتيازات ، والتمتع بحقوق سياسية واجتماعية تأباها على غير الرومانيين من رعايا الدولة . هذا إلى أن الجيوش الرومانية فى العصر الذى نتحدث عنه كانت قد فقدت صبغتها القومية واندس اليها المرتزقة وأبناء المقاطعات المفتوحة الذين اضطرت الدولة أن تلجأ إليهم فى حمايتها وصد غارات المعتدين عليها ، وتأييد سلطتها فى شاسع أقطارها . وكان لهذا المزج بين العناصر الرومانية والعناصر الأجنبية أثره فى انحلال عصبية الدولة المستمدة من جيشها الثابت حيث غاضت منه الروح القومية التى دفعته فيما سلف إلى آكام ايقوسيا وسواحل البلطيق، ولم تعد تكفى دقة النظام لاتحاد المصالح والمطامع الفردية

على أن ظفر العرب الحربى يرجع من بعض الوجوه الى أسباب عرضية لم يكن للعرب عليها من سلطان ، ولم يحسبوا هم لها حساباً ، ذلك أن جيوش الصحراء الناشئة لم تكن لتضارع الجيوش الرومانية والفارسية المنظمة فى الكفاية أو تناهضها فى الأهبة، على أن قسما كبيراً من الجيوش العربية تلقى تجاربه الحربية فى الحروب الفارسية ، وكانت الحماسة الدينية تقوم لدى الفتية الاحداث مكان النظام والكفاية ، بل كانت هذه الحماسة تبذ شجاعة الجنود الرومانية ، وتطغى عليها ، ثم إن الطاعة العمياء لأوامر الرؤساء والقادة كانت خاصة واضحة فى الصفوف العربية وكانت تعوضها عما يعتورها من نقص فى الاهبة والخبرة

ونلاحظ أن المفاجأة والسرعة كانتا من خواص الفتوحات العربية الأولى ومن عوامل نجاحها ، ذلك لأن الحماسة مهما بلغت من الاضطرام لاتثبت فى حرب طويلة الامد . ولأن النظام والكفاية ينتهيان غالباً بالفوز متى زال أثر المفاجأة والصدمة الأولى . على أن العرب استطاعوا فى معظم فتوحاتهم أن يفوزوا سريعاً بجتناء ثمرة وتثبيت قدمهم فى الأرض المفتوحة بين شعوب تمزقها الخلافات الدينية ، ويضنيها الارهاق والعسف ، وتحفزها البغضاء والسخط ، ولأن الجيوش الرومانية كانت تخسر فى معظم هذه المعارك ما كانت تتفوق به على العرب من مزايا

النظام والدربة . وما كانت تستطيع أن تستمده من عطف الشعوب المحكومة التى ضنت منذ بعيد بعطفها ومؤازرتها لحكومة تسومها الخسف والذلة

أضف إلى ذلك أن الدولة الرومانية اضطرت إلى أن تتلقى وثبات العرب فى عهد أنضبت فيه الحروب الفارسية مواردها ، وأضنت قواها . وعاثت بمنعة جيوشها ، وحطمت نفوذ الحكومة المركزية ، وعاونت نفراً من الزعماء وحكام المقاطعات على الفوز بنصيب وافر من الاستقلال فى الحكم . وكانت العاطفة الوطنية قلما تلقى ملاذاً فى صدور أولئك الزعماء ، بل كانت تكاد يجهلها جميع الطبقات والافراد فى الدولة الشرقية . فكانت الاطماع والمصالح المادية وحدها تحرك الزعماء والسادة وتوجه جهودهم ، وكانت الغاية القصوى لكل منهم أن يدعم استقلاله فى البلد الذى يحكمه . ولنا مثال من ذلك فى تصرف المقوقس فى مصر . وفى تصرف بعض حكام المقاطعات الاخرى . وكان هذا التصرف من جانب الحكام المحليين يدعمه تصرف سكان المقاطعات أنفسهم . فأن فريقاً كبيراً منهم كان يزاول التجارة وينعم بالثروة . ويسعى إلى نيل السلام والحرية الدينية بأى الأثمان

وفى مصر وفلسطين كانت سياسة بطارقة الاسكندرية وبيت المقدس تجنح إلى مؤازرة العرب ، لما كان بينهم وبين الامبراطرة من خلاف ووحشة . ولما آنسوا من وقوف العرب عند حد الفتح والاحجام عن محاربة الضمائر والشعائر . وكان فريق كبير من نصارى مصر وفلسطين يحبذ سياسة البطارقة لاسيما فى عهد هرقل ، لاعتبارهم أن هرقل كان كافراً خارجاً على الدين . ولما شاهدوا من عدالة العرب واعتدالهم فى الحروب الاولى ، وما رأوا من قناعتهم فى فرض الضرائب التى كانت حكومة الدولة تثقل بها كاهلهم

والحقيقة أن العرب قدموا لأول عهدهم بالفتح أمثلة سامية من الاعتدال وضبط النفس واجتناب الكبائر والاساليب الوحشية التى كانت تسود تحف الحرب فى تلك العصور . فقارن مثلا وصية أبى بكر أول الخلفاء إلى الجيش الذاهب لقتال المرتدين :

« لاتخونوا ولا تغلوا ، ولاتغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة ولا تعرقوا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلاللا كل ..... الخ » — قارن ذلك بما كانت الجيوش الرومانية والفارسية تمعن فيه من صنوف السفك والتخريب فى غمار الحروب التى كانت تضطرم بينهما قبيل وثبة العرب ، وقارن تصرف عمر فى سفره من مكة إلى بيت المقدس يحمل زاده على راحلته، وقدومه إلى المدينة ليتسلمها من بطريقها فريدا فى غير ما جلبة ولا موكب، بما كان يحف مقدم الامبراطرة وعمالهم إلى المقاطعات من ضروب الفخامة والبذخ ، والتسامى عن الاختلاط بالشعب ، ثم قارن صرامة القوادالعرب فى توقيع الاحكام ورفع الظلامات وحمايه أهل البلاد المفتوحةمن عسف الجند الظافرين بما كان ينزله عمال الامبراطور وضباطه بهم من صنوف المظالم والمغارم دون وازع ولا عقوبة . هذه الفروق بين العدالة والجور ، والاعتدال والتطرف، والعفة والشراهة ، والتسامح والارهاق ، كانت من أقوى العوامل التى ذللت سبل الظفر والفتح أمام جيوش الصحراء ومهدت لمسالمة الشعوب المفتوحة وتأييدها ، و بعثت إلى هذه الشعوب نوعاً من الطمأنينة على مصايرها فى ظل سادتها الجدد، وخففت لديها من وقع هذا التحول فى السيادة ، فلم يحط مقدم العرب بما يحيط مقدم العدو المغير عادة من ضروب الارتياع والجزع

•

هذه السياسة الحكيمة التى رسمها العرب لم تكن عامة شاملة ، بيد أنها لبثت حيناً فى عصر انحلال وتطور ، تستثمر عوامل السخط واليأس التى كانت تجيش بها صدور مجتمعات مظلومة مضطهدة ، وكان القليل من بوادرها المادية يشيد للعرب من التأييد قوى لا تغنمها الجيوش الجرارة، ويمهد لهم سبلا من الوئام وحسن التفاهم لا يحققها عنف ولا جبروت . ولنا من ذلك أمثلة بارزة فى تصرف الخلافة فى البلاد المفتوحة . ففى الشام ومصر واسبانيا كانت تقام الكنائس إلى جانب المساجد ،

وكان للنصرانى أو اليهودى ما للمسلم تقريباً من حرية الاعتقاد والتمتع باقامة شعائر دينه، وكانت الضرائب تفرض فى معظم الأحوال بصفة عامة لا يكون الدين فيها سبباً للايثار والتفرقة ، وأكثر من ذلك أن العرب لأول عهدهم بالفتح كانوا يتركون معظم المجتمعات غير المسلمة تحتكم إلى شرائعها وتقاليدها الخاصة ، فكانت تطبق الشريعة اليهودية والشريعة النصرانية إلى جانب الشريعة الاسلامية

وأثر هذه السياسة واضح فى الظروف التى أحاطت بقيام الدولة العربية فى البلاد المفتوحة فقد كانت تقوم فى الغالب عقب الفتح على أسس متينة لا تزعزعها عوامل السخط التى تضطرم بها صدور المغلوبين عادة على الفاتح المغير ، وتجعل سلطانه محفوفا بالمخاطر يقوم على بركان مستتر من البغضاء وظمأ الانتقام ورغبة التحرر وينفجر لأقل بادرة ولأول فرصة . لذلك استطاع العرب أثناء اشتغالهم بالفتح أن يعنوا فى نفس الوقت بمختلف الشؤون الادارية ، وأن يوثقوا عرى الوئام والتفاهم مع الشعوب المغلوبة ، وأن يخضعوها تدريجياً لنظم الاسلام وروحه ، متجنبين ما يحيط بالطفرة من الآثار والعوامل الرجعية التى ترتد إلى صدور المتعجلين عادة ، فتعجل بفناء دولة قامت على أسس من العنف والارهاق المستمر ، وتجاهلت كل العواطف والمشاعر ولم تراع إلا ما قصدت من غايات

فليس غريباً أن يسجل التاريخ أن توغل العرب فى الأمم النصرانية كان فى الغالب محاطاً بعطف الشعوب التى سعوا إلى إخضاعها ، وأن الحكومات النصرانية كانت فى هاتيك العصور أشد جوراً وعسفاً ، وان شعوب الشام ومصر رحبت بالفاتحين ، وأن تعاون قبط مصر معهم على إخضاع الروم وقاتل البربر لافتتاح إفريقية بعضا منهم لحكومة القسطنطينية واغتباطا بالحكم الجديد . يقول فنلى : « ولا بد أن تقتسم الكنيسة والدولة عبء هذه الوصمة إذ يصعب أن نحدد من العوامل والاسباب ما يمكن أن ينسب إلى جور الرومان فى فرض الضرائب واستلاب الارزاق أو إلى إمعان الكنيسة فى المطاردة الدينية وإرهاق الضمائر والعبث بحرية الاعتقاد »

وهكذا اكتسح العرب سواد العالم الرومانى القديم وجازوا البحر إلى أوروبا حتى أشرفوا على ضفاف اللوار فى أقل من قرن . على أن فورة حماستهم الاولى ما لبثت أن خبت لما نعموا به فى ظل الدولة المنظمة من الدعة والرخاء والسلام والثراء العاجل ، فآنسوا عندئذ منعة الدولة الرومانية ولاقوا هزيمتهم الحاسمة على يدها فى المشرق تحت أسوار القسطنطينية ، وهبت جموع الفرنجة فوقفت فى وجههم سداً منيعاً فى سهول تور (بلاط الشهداء) ، واستحال صراع الدولة الاسلامية والدولة الرومانية بعد ذلك فى المشرق إلى حملات ناهبة وفتوحات محلية كانت سجالا بين الفريقين .

الفصل الثاني

سياسة العرب الدينية

وكيف انتشر الاسلام بين الشعوب المغلوبة

إذا كان خروج العرب من الصحراء ومن غمر البداوة إلى حياة ظفر باهرة ، وإقدامهم فى قليل عـديدهم ، وضئيل مواردهم ، وناقص أهبتهم على غزو دولتين. من أعظم دول العالم القديم ، وأشـدها منعة ، وأوفرها أهبة وموارد ، هما الدولتان الفارسـية والرومانية ، وإقامتهم فى نحو قرن فقط دولا شامخة فوق أنقاض ما هدموا من صروح العـالم القديم وغنموا من أقطاره : إذا كان ذلك ظاهرة مدهشة من ظواهر التاريخ ، فان ظفر الاسلام بالاديان القديمة ، واجتياحه للشعوب المفتوحة بسرعة خارقة ، ظاهرة من أغرب طواهر التاريخ أيضاً . وكما أن العرب استطاعوا فى حروبهم أن يستثمروا ظروفا وعوامل كانت خارجة عن ارادتهم وتدبيرهم فـكذلك قدر للاسلام أن يظفر بمثل هذه الظروف والعوامل فى افتتاحـه للشعوب الجديدة . وهو ماسنعنى بشرحه فى هذا الفصل

***

يقول المؤرخ فون جوت شميت : « إن الاقبال العام على اعتناق دين جديد على أثر فتح أجنبى أمر لايكاد يعرفه العصر القديم ، ولـكن الاسلام يقف وحيداً فى هذا الفوز » . ويقول المؤرخ دوزى . « إن هذه الظاهرة تبدو لأول وهلة لغزاً غريباً لاسيما متى علمنا أن الدين الجـديد لم يفرض فرضاً على أحد » . والواقع أن دعاة الدين الجـديد اختاروا منذ البداية سـياسة التسامح الدينى ، واحترام العقائد والضمائر خصوصاً إزاء اليهود والنصارى أعنى أهل الـكتب التى يقر الاسلام قدسيتها.

وكانت النصرانية واليهودية فى الوقت الذى ظهر فيه النبى العربى ووثب الاسلام من الصحراء هما دين السواد فى كثير من البلاد التى فتحها العرب، فكانت الجزية فرضاً أوحد للدين الجديد على غير المسلمين ليحتفظوا بحرية عقائدهم وشعائرهم. وكان هذا الامتياز مقصوراً على اليهود والنصارى بادىء بدء، ولكنه لم يلبث أن امتد فى زمن النبى ذاته إلى أبناء أديان أخرى مثل قبائل البحرين وسوادهم من الزردشتية، وفى عهد عثمان ثالث الخلفاء امتد هذا الامتياز إلى بربر إفريقية التى افتتحها المسلمون لعهده، وشبه البربر باليهود والنصارى والزردشتية فى التمتع بحرية الشعائر نظير الجزية التى يفرضها الفاتح. ولسنا نعرف ماذا كان دين البربر وقت الفتح الاسلامى. والظاهر أن شعائرهم كانت أثراً من آثار الوثنية، بيد أن المحقق أنهم لم يكونوا من أهل الكتب المقدسة. وكان ظفر النصرانية واليهودية فى تلك الأنحاء ضئيلا لا يتجاوز ثغور الشاطىء. فالتسامح الدينى كما ترى أصل من أصول السياسة الاسلامية يرجع إلى عصر النبى ذاته. وقد دفع بعد ذلك إلى حدود لعلها جاوزت ما كان يراه النبى وخلفاؤه الأوائل

هذا التسامح وان كان نسبياً معلقاً على افتداء الحرية الدينية بالجزية، الا أنه كان ظاهرة جديدة فى عصور سودت صحفها سير المطاردات الدينية، وكانت الخلافات والمعارك الدينية فيها يستعر لظاها فلا تخمد إلا فى سيول من الدماء، وكانت الدولة تملى دينها على الشعوب، سيدة كانت أو مسودة، فلا تقنع بالايمان اللفظى أو الخارجى بل تدفع العسف إلى أعمق طروف الحياة الخاصة فصلا عن الحياة العامة. ومن الواضح أن هذه السياسة قد عصفت أيما عصف بمنعة الدولة الرومانية الشرقية وقوضت أيما تقويض من هيكلها الاجتماعى، كذلك كان لها أثرها فى الدولة الفارسية. أما الدولة الاسلامية فقد عرفت منذ نشأتها قيمة التسامح، واستطاعت أن تعم بعطف الشعوب والطوائف التى أضناها عسف المطاردة الدينية فى ظل الدول الخصيمة. هذا فضلا عن جور هذه الدول فى فرض الضرائب وامتداد أيديها إلى أموال الشعوب

والطوائف المحكومة بالمغارم والمصادرة استنادا إلى حجج دينية فى غالب الاحيان .

أما الدولة الاسلامية فقد تقدمت إلى الشعوب المفتوحة بميزتين أو نعمتين لم تعرفهما فى عهد حكوماتها السابقة ، الأولى نعمة الحرية الدينية، والثانية نعمة الاعتدال فى فرض الضرائب وحصرها فى حدود معينة . وهما من أهم العوامل التى مهدت الى العرب سبيلهم الى تأييد الشعوب المفتوحة ، بل الى معاونتها الفعلية فى محاربة الدولة الرومانية

أليس لنا أن نتساءل بعد ذلك: كيف ذاع الاسلام بسرعة خارقة بين هذه الشعوب المفتوحة ، ولماذا آثرت هذه الشعوب أن تنزل عن أديانها ومعتقداتها لتعتنق دين الحكومة الجديدة ؟ وكيف استطاعت السياسة الاسلامية فى اين ورفق أن تخلق فى أقل من قرن أمماً اسلامية كبيرة فى فارس والشام ومصر وافريقية واسبانيا؟

كانت هذه الظاهرة العجيبة نتيجة لعدة عوامل سياسية وإقتصادية املت على حكومة الخلفاء سياستها نحو رعاياها الجدد ، وكان للاطماع الشخصية والحرص على الكرامة الاجتماعية فى خلقها نصيب أيضاً . بل سنرى أن حدوثها بتلك السرعة لم نكن دائما متفقاً مع مصالح الخلافة المادية . ذلك أن تسامح الحكومة الاسلامية كان نسبيا كما قدمنا أعنى كان مقصوراً على حرية الضمائر والشعائر ، ولم يكن يتناول كل مظاهر حياة الفرد الاجتماعية والمدنية . كانت الطوائف غير الاسلامية تعتبر دائما فى نظر المسلمين جنساً أدنى . وكانت من أجل ذلك لاتعامل مع المسلمين على قدم المساواة فى ميادين الحياة العامة . وكان عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء أول من أصدر من حكام المسلمين تشريعاً واضحاً فيما يختص بمعاملة غير المسلمين من رعايا الخلافة ، فأمر ألا يسمح ببناء كنائس أو بيع جديدة، أو إعادة بناء ماتهدم ، وألا ترفع الصلبان فوق الكنائس ، وألا يظهر غير المسلمين كتبهم المقدسة فى الطرق أو الاماكن العامة . وألا يرفعوا أصواتهم بالترتيل فى الكنائس إذا كانت واقعة فى حى اسلامى وألا يوقدوا الشموع ، وأن يلزموا السكينة فى الجنائز إذا مرت باحياء إسلامية ، وألا

يحاولوا تنصير مسلم أو يحولوا دون اسلام نصرانى ، هذا فضلا عن وجوب محافظتهم على مراسيم الخضوع والاحترام للمسلمين فى المواكب والمحافل العامة كألا يجلسوا فى حضرة مسلم الا إذا أذنوا ، وألا يلبسوا أزياء المسلمين ، بل يرغمون على ارتداء أزياء خاصة ، كذلك كان محظوراً عليهم أن يتسموا بالأسماء العربية أو ينقشوا الأحرف العربية على أختامهم ، أو يستعملوا السروج أو يحملوا السلاح أو يسترقوا مسلما . ومما كتبه عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص فاتح مصر وأول حكامها من المسلمين بشأن الذميين (غير المسلمين) : « أن تختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف عرضاً ولا تضربوا الجزية لا على من جرت عليه الموسى ولا تضربوها على النساء ولا على الولدان ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم » (١)

هذا التشريع وأمثاله كان يخلق من الطوائف غير المسلمة مجتمعاً آخر ذا حياة ونظم اجتماعية حصة . تنظر اليه الحكومة الاسلامية وينظر اليه المسلمون بعين غير التى ينظرون بها إلى أبناء دينهم . ولم تكن هذه الأحكام تطبق فى المبدأ بدقة وصرامة بل كان حكام النواحى ومن اليهم من منفذى القانون أكثر تسامحاً ورفقاً فى تنفيذه من الخلفاء أنفسهم ، وكثيراً ما كان الذميون يعقدون مع حكام النواحى معاهدات محلية يتخلصون بها من بعض القيود المفروضة عليهم . ومع ذلك فقد كان مركز النصارى فى الدول الاسلامية دائماً منحطا من الوجهة الاجتماعية ، ولعله يشبه من وجوه كثيرة مركز اليهود فى الأمم الأوربية فى القرون الوسطى ، بل فى عصرنا هذا فى نظر العامة والدهماء . وكانت هذه الحال تشتد بالنصارى واليهود فى كثير من المآزق والأزمات السياسية . وكانوا فوق ذلك موضع ريب السلطات الحاكمة ، فقلما كانت الحكومات الاسلامية الأولى تجيزهم إلى وظائف الدولة الاهم الا وظائف الجباية والحسابات لما كان لهم فيها من براعة وتفوق ، أو تعهد اليهم بمهام كبرى أو تأتمنهم .

(١) المقريزى فى الجزء الاول من الخطط

على مصلحة من المصالح الرئيسية . فليس من الغريب اذن أن يجنح النصارى فى هاتيك العصور إلى رفع هذه الاعباء عن أنفسهم وأن يؤثر الاذكياء والطامعون منهم اغتنام كل ما ينعم به المسلمون من المزايا الاجتماعية والاقتصادية باعتناق الاسلام وأن يشقوا لأنفسهم سبلا باهرة إلى الحياة بالاندماج فى المجتمع الاسلامى . أضف إلى كل هذه المزايا نعمة الحرية الفكرية التى هى من أسمى ظواهر الحياة الاسلامية . على أن الخطوات الاولى فى هذا السبيل لم تكن تفضى دائماً إلى حصول غير المسلم على كل ما يتمتع به المسلم من كرامة ومزايا . بيد أن اعتناق الاسلام كان فى الواقع أول خطوة لغير المسلم فى سبيل التقدم والتحرر من الاعباء المرهقة والتقاليد المؤلمة والعرف الضار . لأنه إذا كان الجيل الاول من الداخلين فى الاسلام لم يندمج تماما فى المجتمع الاسلامى الخالص ولم يفز بكل ما ينعم به المسلم من الايثار والاحترام أو يغنم عطف السلطات الحاكمة وثقتها فان الزمن وحده كان كفيلا بهدم هذه التقاليد وازالة آثار هذه التفرقة ، وادماج أبناء الوطن الواحد فى مجتمع واحد . كان تعاقب الاجيال والذرية وحده سبيلا إلى النسيان ورفع أبناء النصارى الذين أسلموا أو أحفادهم إلى صف المسلمين الخلص ، هذا إلى أن عقبهم كانوا ينتحلون النسب العربية فيرجعون نسبهم بواسطة النسبة فى هذه العصور إلى بطن من بطون العرب المعروفة لكى يقضوا بذلك على آخر الآثار والذكريات التى قد تشوب مركزهم الاجتماعى كمسلمين خلص أتقياء

وقد كان فوز الاسلام فى الشام ومصر أسرع وأيسر منه فى أى بلد آخر . ذلك لان النصرانية وإن كانت قد سادت مصر والشأم لعهد الفتح الاسلامى ، إلا أنها فرضت على شعبيهما بالنار والسيف ، ولم تاق إليهما فى أثواب واضحة . ولم تكن فيهما راسخة الجذور ، أو بارزة العقائد والتعاليم سيما وقد كان يسودهما الجهل . وكان العسف والارهاق والمطاردة الدينية ، وتعدد الاديان والمذاهب ، وتضارب العقائد والنحل ، قد أدت بهما إلى اسوإ أطوار الانحلال السياسى والفوضى الاجتماعية ، هذا إلى أنه كان ثمة شبه كبير بين كثير من عقائد الاسلام والنصرانية ، وكان

الظفر الذى اقترن بفورة الاسلام مرجحا قويا له ، ودعوة عميقة الأثر فى سبيل اكباره ، كما أن ضروب العدالة والرفق و التعفف التى اقترنت بسياسة الغزاة المسلمين الاوائل كانت حجة ناهضة على جور الحكومات فى هاتيك العصور وعلى أن الكنيسة لم تكن ممثلا حقيقياً لمثل العدالة والاخاء . أفلم تكن هذه كلها شواهد قاطعة عميقة الأثر على أن الدين الجديد جدير بالاتباع، وانه وهو الظافر الدين الحق ؟ هكذا كانت روح التفكير فى هذا العصر ، وكان الاعتقاد فى حدوث المعجزات سلاحاً مسموماً ارتد إلى صدر الكنيسة فانه لم تحدث معجزة ترد عادية الاسلام عن النصرانية ، ولم تنقض الصواعق على أولئك الغزاة الاشداء الذين اجتاحوا سواد العالم القديم فى زهاء جيل فقط

***

على أنه قد يكون لنا بعد ذلك أن نتساءل : هل كان انتشار الاسلام بتلك السرعة الخارقة بين أبناء الشعوب المفتوحة متفقاً دائماً مع مثل الخلافة وسياستها خصوصاً بعد ان استحالت إلى ملك سياسى ؟ يلوح لنا أنه لم يكن كذلك فى وقت من الاوقات وانه كان بالعكس ضار بمصالحها المادية حتى إن بعض الخلفاء قلما كانوا يشجعون هذه السياسة . ولذلك تعليل ظاهر ، منطقى فى نفس الوقت ، فقد كانت موارد الحكومة الاسلامية من الجزيه والمغارم التى تفرض على الذميين (غير المسلمين) فادحة هائلة ، وكانت هذه الموارد تتأثر كلما حدثت وثبة عامة من شعب مفتوح إلى اعتناق الاسلام ، ولم يكن هذا الأثر ظاهراً بادىء بدء لأن سواد الشعوب المفتوحة لبثوا حينا يؤثرون الاستفادة من منحة الجزيه ، أجل منحة الجزية أو نعمتها بالقياس إلى الويل الذى كانوا يلقونه من الحكومات الذاهبة — ليحتفظوا بدين آبائهم وأجدادهم، وينعموا بقدمة شعائرهم . هذا إلى أن الثروات الطائلة التى كانت تفيض على خزائن الحكومة الاسلامية من تركات الحكومات المغلوبة وأسلابها وأموال الامراء والحكام والقواد والنبلاء المهزومين وفديات الاسرى كانت أكثر من أن تعوض على الخلافة فى

عوامها الأولى ما كانت تخسره بين وقت وآخر باقبال الذميين على اعتناق الاسلام ليتحرروا بذلك من الجزية وملحقاتها

ولكى يستطيع القارىء أن يكون فكرة عن موارد الخلافة الاسلامية من جزية الذميين نذكر مارواه مؤرخو العرب من أن عمرو بن العاص لما فتح مصر صولح على جميع من فيهسا من الرجال من القبط ممن راهق الحلم إلى مافوقه ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ على دينارين لكل رأس منهم فبلغ مجموع ما حصله ثمانية آلاف ألف دينار . وقد كانت الجزيه نوعين جزية على رؤوس الرجال وجزية تفرض جملة على أهل القرية يأخذونها جملة . والنوع الآخر يشبه الغرامة الحربية التى تفرض على مدينة ثائرة أو مفتوحة ، بيد أنه لم يكن عاماً فى تطبيقه فلا يطبق إلا إذا دعت الظروف إلى ذلك . أما النوع الأول فقد كان ضريبة دائمة على أنها لم تكن مضبوطة بنسب وقيود معينة بل كانت تجبى طبقاً للظروف من رخاء ويسر ، فقد روى مثلا أن صاحب أخنا قدم على عمرو بن العاص فقال له أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصبر لها فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة ، لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك ، إنما أنتم خزائن لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم . ولم تكن الجزية تقف عندحد القدر المفروض من المال ، بل كانت تتعدى ذلك إلى جباية مقادير أخرى من الحنطة والزيت والعسل والثياب . ويلحق بذلك إضافة الذميين للمسلمين أياما معينة . على أن توزيع هذه المغارم وطرق جبايتها ، كانت تقرن فى معظم الأحوال بالاعتدال والرفق . فقد رأيت أنها لم تكن تفرض على الصبية والنساء والشيوخ . وكان يراعى فى التقدير والتحصيل أن يخرج الذميون قبل كل شىء من غلة أرضهم ما يكفى لتعهد كنائسهم وحماياتهم ومؤنهم ، وكان الرفق يتعدى إلى الامهال فى اداء الخراج . فقد حدث مثلا أن عمراً تأخر فى تقديم خراج مصر فى الميعاد المحدد فكتب له عمر يعزره ويؤنبه على ذلك ويستحثه على الاسراع فى ارسال الخراج قائلا له : « انى لست أرضى منك إلا بالحق

المبين ، ولم أقدمك إلى مصر أجعلها طعمة لك ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ... » فكتب اليه عمرو « أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكث عن الطريق ، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ، ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من أن نخرق بهم فيصيروا إلى بيع مالاغنى بهم عنه » (١)

فلما اتسعت الفتوحات الاسلامية وعظمت نفقات الجيش والدولة اشتدت حاجة الخلافة إلى المال ، فلم يكن مايتفق ومصالحها المادية أن تشجع سياسة تؤدى إلى نضوب خزائنها وارتباك شؤونها المالية حتى ولو أدت هذه السياسة إلى ذيوع دين الدولة وزادت فى عدد المسلمين . وفى الوقت الذى أخذت فيه الفروض الاجتماعية والتقاليد الشائعة تنتج آثارها فى الطوائف غير الاسلامية ، وفى الوقت الذى أخذت تجنح فيه هذه الطوائف إلى التحرر من هذا الايثار والحيف باعتناق دين الدولة أخذت الخلافة تنظر إلى مواردها بعين الجزع ، ومالبثت أن اعتزمت أن تبقى الجزية حتى على من اعتنقوا الاسلام . وكان أول من فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف عامل العراق . ثم أمر عبدالملك بن مروان أخاه عبدالعزيز ابن مروان حاكم مصر بجبايتها ممن أسلم من المصريين ، فاعترض على ذلك رجال ديوانه وخاطبه أحدهم بقوله : « أعيذك الله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر فوالله إن أهل الذمة ليحتملون جزيته من ترهب منهم ، فكيف نضعها على من أسلم منهم » فتركهم عندذاك . وكان عمر بن عبد العزيز أول من تحمس من خلفاء بنى أمية لفكرة ذيوع الاسلام ، وأول من عضد هذه السياسة بطريقة عملية ، فرفع الجزية عمن أسلموا وسوى بينهم وبين المسلمين الخلص ، ومما يؤثر عنه أنه كتب إلى حيان بن شريح عامل مصر « أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل

---

(١) هذه الوثائق أوردها المقريزى أيضاً فى الجزء الاول من الخطط

الذمة فان الله تعالى قال « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » فكتب اليه شريح يراجعه فى ذلك ويقول « ان الاسلام قد أضر بالجزية وان خزائن الحكومة قد نضبت مواردها » فكتب اليه عمر بن عبدالعزيز يؤنبه ويعزره ويقول له : « ضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً ،ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه» . وهكذا لبثت الخلافة حيناً تتردد بين السياستين حتى تم الاندماج بفعل الزمن ، وتحولت معظم الشعوب المحكومة الى كتل اسلامية ليس فيها من غير المسلمين سوى أقليات ضئيلة ، فزالت فوارق الدين بحكم الظروف ، وأضحى التمييز عسيراً بل مستحيلا بين المسلم العريق والمسلم الحادث ،وتضاءلت أهمية الجزية كسبيل للايراد واستعاضت الخلافة بما كسبته من عصبية وقوة معنوية عما خسرته من المصالح المادية

أرأيت كيف أسفرت هذه السياسة البسيطة السلمية التى سنتها حكومة الخلفاء نحو رعاياها الجدد عن اكتساب تأييدهم أولا عن طريق التسامح الدينى،ثم مؤزراتهم المادية عن طريق الجزية ، ثم ضمهم أخيراً إلى حظيرة الاسلام واغتنام مؤازرتهم الروحية والمادية معاً ؟ ثم أرأيت كيف أن ذيوع الاسلام على نحو سريع شامل لم يكن دائماً متفقاً مع سياسة الخلافة ، وانه كان فى وقت ما ، ضاراً بمصالحها المادية ؟ ان فى ذلك ما يفسر حقيقة تاريخية كثيراً ما شوهها مؤرخون تأثروا بنعرة الدين والجنس،وفيه مايوضح لك كيف استطاعت حكومة الخلفاء أن تكون فى نفس الوقت حكومة اوتوقراطية تمعن فى الاستئثار بالسلطة ، وأداة لينة رفيقة تغلب النزعات الديموقراطية الحرة

الفصل الثالث

الدبلوماسية فى الاسلام

١ — نبذة عامة

الدبلوماسية هى مجموعة العلائق الخارجية لدولة من الدول ، والاساليب التى يجرى عليها هذه الدولة فى تسوية شؤونها ومشاكلها الخارجية، وفى معاملة صديقاتها او خصيماتها من الدول الأخرى . هذا على الأقل معنى الدبلوماسية الحديث،وهذا هو المعنى الذى نقصده فى هذا الفصل بالنسبة للأساليب السياسية التى كانت تتبعها الدول الاسلامية المختلفة فى علائقها مع الدول النصرانية أو فى علائقها بعضها مع بعض

ولا ريب أن الدبلوماسية الاسلامية لم تتخذ صبغتها التى نريد أن نعنى بها هنا فى الحكومات الاسلامية الاولى أعنى فى عهد النبى والخلفاء الراشدين والدولة الأموية ، فقد كان هذا عهد الفتح والانشاء ، ولم تكن ثمة سبيل لأن تنشأ بين الاسلام والنصرانية علائق سياسية اللهم إلا ما كان يعقب فتح قطر من عقد الصلح والتعاهد كما حدث فى الشام ومصر أيام عمر ، بيد أن هذه لم تكن علائق خارجية إلا فى معنى من المعانى . ولعل أظهر وأهم الحوادث الدبلوماسية فى هذا العهد رسالة النبى إلى هرقل امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يدعوه فيها إلى الاسلام ، وذلك فى أواخر السنة السادسة من الهجرة على يد سفيره دحية الكلبى ونفر من الصحابة ونص هذه الرسالة الشهيرة على ما رواه البخارى فى صحيحه هو :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم ،يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك إثم الاريسيين . ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة

سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . وأرسل النبي مثل هذه الرسالة إلى كسرى ملك فارس ، وإلى ملك غسان النصرانى عامل قيصر على الشام . ويروى أن هرقل استقبل رسل النبي بحفاوة ، وصرفهم بأدب . أما كسرى فأهان الرسل وطردهم . ونحن نعرف ما تلا ذلك من فتح الشام وفارس ومصر فى خلافة عمر . وهذا نوع غريب من الدبلوماسية ، بيد أنه يتفق مع روح العصر الذى اتبع فيه ومع الظروف التى اقترنت به ، فالاسلام المضطرم الناهض كان يرى من حقه أن يفرض تعاليمه على البشر كافة بعد أن اجتاحت هذه التعاليم جزيرة العرب مهبط وحيه ومبعث رسالته ، ولم يكن أمامه ثمة سبيل لاحداث هذه الثورة سوى التحدى والمغامرة ، ومن كان يتحدى سوى الدولة الفارسية التى ترد سيله من الشرق ، والدولة الرومانية التى ترد سيله من الشمال والغرب ؟

ولم يكن للدولة الاموية نصيب فى عقد العلائق الدبلوماسية لانها أنفقت أعوامها التسعين فى غزوات وحروب مستمرة . ولا نسمع عن هذه العلائق فى أيام الدولة العباسية إلى عصر هارون الرشيد إذ يروى فى التواريخ العربية أن الرشيد كان يكاتب شارلمان ملك الفرنج وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وانه أوفد اليه سفراءه بهدية فخمة منها خيمة عربية ، وساعة مائية ، وفيل ، ومفاتيح قبر المسيح ، وان شارلمان كان يكاتبه ويهاديه أيضاً (١) ولعل فى حوادث الاندلس وقتئذ مايفسر مصانعة الخليفة العباسى وهو فى أقصى المشرق لملك الفرنج فى أقصى المغرب . فان عبدالرحمن الداخل الاموى كان قد غلب على الاندلس ، وانتزعها من الخلافة وأقام بها دولة قوية وطيدة الدعائم ، وكان بنو العباس يشهدون قيام هذه الدولة الاموية الجديدة بعين الحذر والخوف . وكان شارلمان من جهة أخرى يخشى عاقبة انتشار

(١) يظهر أن مؤرخى العرب لا يعرفون شيئا عن هذه المكاتبة والعلائق بين الرشيد وشارلمان بدليل أنهم لا يذكرون شيئا عنها ، وعبثاً حاولنا أن نظفر فى المراجع العربية بما يؤيد معرفتهم لها . وعلى أى حال فان المراجع اللاتينية والفرنجية كلها تشير إلى هذه العلائق وسنفصل ذلك بعد

الدعوة الاسلامية واشتداد ساعدها فى جنوب البرنيه ، فكان عليه أن يخمد دعوة الاسلام تأييدا لهيبة الكنيسة ، وان يسحق الاندلس الناهضة احتفاظاً بكبرياء الظفر ، واتقاء لخطر اقتحامها البرنيه وانسياب جيوشها إلى ولايات فرنسا الجنوبية كما حدث مراراً من قبل . ولسنا ندرى ، ان صحت علاقة الرشيد هذه بشارلمان ، هل كان لبنى العباس دخل فى صوغ سياسة شارلمان نحو الاندلس . ولكن الذى نعرف هو أن شارلمان كان قد عبر البرنيه بجيش ضخم وحاصر مدينة سرقسطة وأن عبد الرحمن الاموى أشرف عليه هناك بجموعه ورده بخسارة فادحة ، وان المسلمين والبشكنس طاردوا جيش شارلمان فى مفاوز البرنيه ومزقوا زهرة جيشه فى رونشفال (١) وهى الواقعة التى نظم عنها رولان وصيف شارلمان أنشودته الخالدة ، وأن عقد الصلح بعد ذلك بين عبد الرحمن وشارلمان لم يمنع ملك الفرنج من المضى فى سياسة العدوان والكيد لاسبانيا المسلمة

هذا الدور الذى يظهر أن الرشيد حاول أن يقوم به لسحق الدولة الأموية فى الاندلس لدى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، قد قام بمثله الامبراطور تيوفيلوس امبراطور الدولة البيزنطية لدى عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس ، فقد كان من عيث المأمون والمعتصم وقتئذ فى الأقطار البيزنطية ان أوفد الامبراطور سفراءه فى سنة ٨٣٦م (٢٢٥ هـ) إلى عبدالرحمن بن الحكم بهدية نفيسة ، ورسالة يدعوه فيها إلى التحالف ويرغبه فى ملك آجداده بالمشرق حقداً منه على المأمون والمعتصم اللذين يعبر عنهما فى كتابه بجو بتر ومارز ، فرد عليه عبدالرحمن بهدية فخمة، و بعث اليه سفيره يحيى بن الغزال وهو من كبار الدولة وفحول الشعراء فأحكم بينهما الصلة والتحالف . ولم يغفل الامبراطور قبل ذلك أن يحاول مهادنة الخليفة العباسى بالمفاوضة فقد أرسل عقب وفاة المأمون إلى أخيه وخلفه المعتصم سفيره يوحنا النحوى ليحاول عقد السلام بينهما فلم يفلح . على أن علاقة الامبراطور مع صاحب الاندلس لم تتعد

---

(١) ويسمى العرب هذا المكان (باب الشزرى)

المراسلة والمجاملة أيضا لأن خلفاء عبد الرحمن الداخل حافظوا على سياسته التى رسمها من الامتناع بالجزيرة والاقتصار على توطيد ملك بنى أمية داخلها حتى اضطر الناصر إلى تغييرها والتدخل فى شؤون المغرب لظروف جديدة عرضت إذ ذاك

***

وقد كان أهم عصور الدبلوماسية الاسلامية فى اسبانيا المسلمة وذلك لموقعها سواء من البر أو البحر على أبواب أوربا النصرانية ولانتظام علائقها التجارية والسياسية مع معظم الدول النصرانية . وفى عهد عبد الرحمن الناصر بلغت العلائق الدبلوماسية ذروة ازدهارها بين الاسلام والدول النصرانية الكبرى وتوالت وفودها وسفاراتها على الاندلس ، ففى صفر سنة ٣٣٦هـ (٩٤٨ م) وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع امبراطور القسطنطينية المعروف ببورفير وجنتوس بهدية ثمينة ، واحتفل الناصر بقدومهم فى يوم مشهود ، وقدموا اليه كتاب الامبراطور مكتوبا باللغة اليونانية وعلى الكتاب طابع ذهبي على أحد وجهيه صورة للمسيح وعلى الآخر صورة الامبراطور مصنوعة من الزجاج الملون البديع ، وفى ترجمة عنوانه ما يأتى : «من قسطنطين ورومانين (رومانوس الثانى بن قسطنطين) المؤمنين بالمسيح، الملكين العظيمين ، ملكى الروم ، إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه». وقد هال رسل الامبراطور يومئذ ما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان . وخطب اعلام الاسلام فى هذا الاجتماع المشهود ومنهم القاضى الاديب منذر بن سعيد البلوطى الذى ارتجل خطاباً نفيساً أثنى فيه على أعمال الناصر ، ثم ارتجل من بعده شعراً قال فيه :

ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه	وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه	مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالماً أقصى حياة مؤملا	فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب	إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

ولما انصرف رسل الامبراطور بعث الناصر معهم سفيره هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف فرجع بعد سنتين وقد أحكم الصلة بين الأميرين . ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على عبد الرحمن الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بطرس بن سيميون (ملك بلغاريا) ورسل امبراطور الالمان أوتو الاول (الكبير) ورسل ملك فرنسا ، فاحتفل لقدومهم كذلك ، و بعث مع وفد الصقالبة ربيعا (ريفا) الاسقف إلى ملكهم . ثم وفدت عليه رسل البابا يوحنا الثانى عشر فى طلب المودة والتحالف فأجابه إلى ذلك

***

على أن الدبلوماسية الاسلامية لم تغفل العنصر السرى الذى هو أخص ظواهر الدبلوماسية الحديثة، فقد كانت للخليفة الاسلامى ، فضلا عن أعوانه ورسله السريين الذين ينفذهم إلى الولايات والمدن الواقعة تحت حكمه لبمدوه باخبار الولاة والقضاة والشعب ، طائفة كبيرة من الرسل السريين ينفذهم الى القصور والحكومات الاجنبية ليحيطوه علماً بما يقع فيها ، وما تدبره نحو بلاده من خير أو شر ؛ والظاهر أن بنى العباس كانوا أول من نظم هذه الطائفة الدبلوماسية السرية ،فقد كان للمهدى والرشيد والمأمون والمعتصم أعوان سريون فى القسطنطينية وفى غيرها من العواصم الكبرى ليقفوا الخليفة على كل حركة يأتيها الامبراطور البيزنطى وولاته . وكان هؤلاء الرسل والجواسيس يختارون من جميع الطبقات وخصوصاً من بين التجار ، وأحياناً من النساء البارعات فى الجمال والدهاء. وكانوا يؤدون مهمتهم بمهارة فائقة . وقد بلغت هذه الوسيلة الدبلوماسية ذروة الانتظام والاهمية فى عهد الاوائل من خلفاء بنى العباس حينما كانت الخلافة قوية حرة مستأثرة بكل مهام السلطان والملك ، ثم اضمحلت باضمحلال شأن الخلفاء أيام غلبة الحرس التركى وآل بويه حينما كان الخليفة سجينا فى قصره أو مجرداً من كل سلطة حقيقية . ولما اضمحل شأن الخلافة العباسية واستقل حكام النواحى بحكم الولايات تحت سلطان الخليفة الاسمى ، استبدل الخليفة برسله

السريين ، رسلا رسميين وأعوانا ظاهرين يمثلونه فى قصور القاهرة ، ودمشق ، والموصل ، ونيسابور ، ومرو وغيرها. وكان هؤلاء السفراء يصحبون الامير الذى يمثلون فى حكومته فى حروبه وغزواته كما كان رسل البابا يصحبون ملوك النصرانية فى حروبهم وغزواتهم فى أواخر العصور الوسطى ، فنراهم فى بطانة ألب ارسلان وملك شاه ، ونراهم أحيانا يتدخلون فى شؤون هؤلاء الملوك ، وأحيانا يصلحون بينهم ، ويفصلون فى خصوماتهم

***

وقد كانت سياسة الاسلام الدينية تختلف باختلاف العصور والدول ، وليس من موضوعنا أن نبحث هذه السياسة ، غير أننا نستطيع أن نقول إن التسامح كان على الاجمال سياسة مقررة للحكومات الاسلامية المختلفة نحو رعاياها . وقد اطلعنا مؤخراً على صورة وثيقة رسمية تاريخية تلقى ضياء على هذه السياسة أصدرها الخليفة المكتفى العباسى سنة ١١٣٨ م إلى البطريق ابديشو النسطورى . وفى هذه الوثيقة تمنح الخليفة رعاياه النصارى كل ضروب الحرية الدينية . ويقول الدكتور منجانا أمين مكتبة « رينالدز » مكتشف هذه الوثيقة فى تعليقه على هذا الاكتشاف : « كنا نشعر دائما بالحاجة إلى وثيقة تلقى الضياء على العلائق التى كانت سائدة بين الاسلام الرسمى والنصرانية الرسمية فى عصر كان للاسلام فيه حق الحياة والموت على ملايين من الرعايا النصارى . وقد يكون آفراد من النصارى عانوا من عسف أفراد من المسلمين ، أو قد يكون مجتمع نصرانى عانى الارهاق من تعصب حاكم محلى أو فقيه ، كذلك اتخذ بعض الخلفاء مثل الخليفة المتوكل اجراءات شنيعة لارهاق النصارى ، ولكن مثل هذه الحوادث يجب أن تعتبر خرقاً للقانون ، وان يعتبر مرتكبوها خوارج على القانون . أما تصرف الاسلام الرسمى فى هذا الشأن فواضح فى الوثيقة الحاضرة التى تؤكد دون لمحة من الريب أن الارهاق المنظم لم يكن من سياسة الاسلام الرسمية» . ثم يقول الدكتور منجانا : « إن هذه الوثيقة صادرة من

ديوان خليفة عباسى ، ولكن هل يمكن أن يكون ملك انجلترا أو ملكة هولاندة أو رئيس الجمهورية الفرنسية أكثر تسامحا فى حق رعاياهم المسلمين ؟ ان القرآن لم يكن سبباً فيما ارتكب من حوادث ارهاق النصارى ، كما أن الانجيل لم يكن هو العامل الموحى لما ارتكبته مجالس التحقيق من ضروب الوحشية»

وظاهر مما تقدم أن الدبلوماسية فى الدول الاسلامية لم تكن تختلف كثيراً عن تقاليدها فى الدول النصرانية فى العصور الوسطى ، ويرجع ذلك إلى ان نظم الدولة وما تستند اليه من التقاليد السياسية فى هاتيك العصور كانت تتشابه من عدة وجوه فى الشرق والغرب

٢ ــ شارلمان والرشيد

صفحة من تاريخ الدبلوماسية فى الاسلام

وعلاقات الاسلام والنصرانية

فى أواسط القرن الثامن الميلادى كان الشرق والغرب يجوزان معا حركة استقرار سياسى ، فنرى فى المشرق اضطراب الدولة الاموية وفورات الشيعة تسفر عن قيام دولة عباسية تسير مسرعة فى سبيل التوطد والثبات ، وفى المغرب نرى الحروب الأهلية فى الأندلس تسفر عن قيام دولة اسلامية جديدة قدر لها أن تحيى مجد بنى أمية الذاهب قروناً أخرى ، ونرى فى نفس الوقت معارك القبائل والدول البربرية التى استطالت منذ القرن السادس فى أواسط أوربا وغربها تسفر عن قيام مملكة الفرنج القوية ثم نرى هذه الدولة الجديدة توطد دعائم ملكها فى فترات قصيرة وتفوز

باستقرار سياسى واجتماعى ، يعين بلا ريب طوراً سياسيا واجتماعيا جديداً فى سير العصور الوسطى .

فنى ذلك الحين الذى نهضت فيه بغداد وقرطبة تمثلان صولة الاسلام فى المشرق والمغرب ، وتتنازعان مع ذلك شرعية السلطان والنفوذ فى تراث الدولة الاسلامية الأولى ، كانت مملكة الفرنج تبرز سراعا من غمار البداوة والوثنية والفوضى حتى وصلت ذروة هذا التطور على يد شارلمان أو شارل الاكبر. وكان شارلمان كالاوائل من خلفاء بنى العباس ، وعبدالرحمن الداخل الأموى ، قد أنفق أعوام حكمه الأول فى محاربة المنافسين والخارجين عليه . فلما توطدت دعائم ملكه أخذ يعنى بالدبلوماسية والتوسع . وكان من أهم عناصرها سياسة شارلمان نحو الاسلام . وكانت هذه السياسة متناقضة فى الظاهر ، فبينما يعمل شارلمان على سحق الدولة الاسلامية فى الاندلس ، إذا به يكاتب الخليفة العباسى ويوفد اليه رسله لعقد أواصر الصداقة والتحالف بينهما . ولكن الحقيقة أن عاهل الفرنج كان بطل النصرانية فى نفس الوقت . وكانت حروبه لرد القبائل السكسونية الوثنية عن ضفاف الرين ، ورد الاسلام إلى ما وراء البرنيه تنم عن الروح الدينى قبل كل شىء . ولم يكن اتصاله بالخليفة العباسى فى نظره الا وسيلة قد تسهل مهمته فى مغالبة الاسلام فى اسبانيا .

ولهذا الاتصال بين شارلمان والخليفة العباسى قصة دونتها الروايات اللاتينية ولم تشر اليها الروايات العربية . فتقول الروايات اللاتينية : ان شارلمان والرشيد كانا يتكاتبان ، وان شارلمان سعيا إلى توثيق الصداقة بينهما ، أوفد إلى الرشيد سفارة على رأسها يهودى يدعى اسحاق ومعه سيدان نصرانيان توفيا أثناء الطريق ، ووصل اسحاق وحده إلى بلاط بغداد وقدم إلى الرشيد كتب ملك الفرنج وهديته. فاكرم الرشيد وفادته ورحب بصداقة ملك الفرنج ، وأوفد اليه سفراءه بهدية فخمة منها خيمة عربية ، وساعة مائية ، وأثواب حريرية ، وتحف من الذهب ، وقردة ، وفيل ، ومفاتيح قبر المسيح . ويذهب بعض هذه الروايات إلى أن الرشيد أرسل يهب ملك

الفرنج سيادة فلسطين بأسرها ، و بعضها إلى أنه وهبه ملك بيت المقدس فقط . ولكن معظمها يجمع على أن الرشيد اكتفى بأن أرسل إلى شارلمان مفاتيح القبر المقدس و بعث اليه يقول: انه لما كانت فلسطين بعيدة عن أرض ملك الفرنج وكان يخشى اذا أرسل شطراً من جنوده اليها ، أن تقوم ثورات محلية فى مملكة الفرنج يصعب اخمادها ، فان الخليفة يتولى بنفسه حماية البقاع المقدسة بالنيابة عن ملك الفرنج و يرسل اليه خراجها. وتؤكد الروايات الكنسية وقوع هذه الهبة وتشير اليها بعض القصائد السكسونية ، ولكن لاريب أن هذه مبالغة أملتها كبرياء الكنيسة على الرواة من أحبارها فلم تدون إلا فى عصر لاحق ولم ترد فى الروايات المعاصرة ، بل ولم يشر اليها اجنهارت مؤرخ شارلمان ومعاصره مع أنه يعنى بذكر الفيل الذى أهداه الخليفة إلى مليكه ، ويذكر أنه مات سنة ٨١٠ م[١] . وصمت الرواية العربية دليل آخر على أن العلاقات بين بلاط بغداد و بلاط إكس لاشابيل لم تكن خطيرة إلى الحد الذى تذهب اليه الرواية الكنسية ، ولم تخرج عن المجاملات الملوكية بين سيدى الشرق والغرب ، وأنها اذا صحت خطورتها السياسية كانت سرا من أسرار الدولة . كذلك يظهر أن غايات شارلمان الحقيقية من مصادقة الخليفة العباسى كانت محاطة بالكتمان ولم تخرج عن مجالسه السرية بدليل أن الرواية تقتصر على سرد حوادث هذه العلاقات دون التعرض لغاياتها السياسية .

ثم تقول الرواية اللاتينية ان شارلمان سر بنتيجة سفارته الاولى إلى الرشيد حتى انه أوفد اليه سفارة أخرى على رأسها مبعوثه اسحاق أيضا . ولسنا نعرف تفاصيل هذه السفارة الثانية كما أنا لا نعرف تاريخ هذه المراسلات السياسية بالضبط ، ولكن المرجح أنها وقعت فى أوائل عهد الرشيد ، فى أواخر القرن الثامن ، بين سنتى ٧٨٦ و ٧٩٠ م (١٧١ — ٧٥ هـ) . ولنا فى حوادث الأندلس فى هذا العهد مايلقى ضياء على طبيعة هذا التحالف ومداه ، فان الدولة العباسية الفتية ما كادت تستقر على أنقاض الدولة

(١) يعنى اجنهارت أيضا بتدوين اسم هذا الفيل فيقول انه « بوبالاس »

الأموية الذاهبة، حتى ظهر عبد الرحمن الأموى فى أسبانيا وخاض غمار الحرب الأهلية التى كانت تمزق الجزيرة يومئذ، واستطاع بعزمه ودهائه أن يؤسس فى قرطبة دولة أموية جديدة . وكان بنو العباس ينظرون إلى قيام هذه الدولة الأموية الناهضة بعين الريب والجزع ويخشون بحق أن تكون خطرا فى المستقبل على سيادتهم فى الأقطار الغربية ، ولم تكن فكرة سحقها فى المهد بعيدة عن الأوائل من خلفائهم ، فقد بذل المنصور على الأقل جهداً لسحقها ، فبعث ابن مغيث اليحصبى عامل إفريقية لغزو الأندلس ، ولكن عبد الرحمن مزق جيش الخليفة العباسى وقتل عامله ، و بعث على ما يروى برأسه ورأس جماعة من أصحابه إلى مكة ومعها كتاب المنصور لابن مغيث فارتاع المنصور لذلك وقال : ماهذا إلا شيطان والحمد لله الذى جعل بيننا و بينه البحر .

والظاهر أن السياسة العباسية لبثت من بعد المنصور حينا تشغل بأمر هذه الدولة الاسلامية الخصيمة . على أن قيام هذه الحكومة إذا كان يزعج بنى العباس لاحتمالات بعيدة تتعلق بالهيبة والسيادة المعنوية ، فانه كان خطرا داهما على مملكة الفرنج . وكانت ذكريات الغزوات الاسلامية لفرنسا ، وذكريات المعارك الكبرى التى نشبت بين الاسلام والنصرانية على ضفاف اللوار ، وما كانت تنذر به من اكتساح الأمم الشمالية ، ما تزال عميقة الأثر فى نفوس القبائل الفرنجية ، ولم يكن بعيدا أن يتجدد الخطر إذا ماركدت الحرب الأهلية فى الأندلس . وغدت الدولة الاسلامية كما كانت كتلة متماسكة قوية

أليس طبيعيا أن تغذى هذه العوامل سياسة النضال والخصومة بين مملكة الفرنج الناهضة ودولة قرطبة الفتية ؟ و بين النصرانية التى رفع شارلمان لواء ظفرها إلى ما وراء الرين وحماها من عدوان الوثنية السكسونية ، و بين الاسلام الذى تدفق سيله إلى فرنسا قبل ذلك بنصف قرن فقط ولم يقفه سوى الحرب الأهلية فى أسبانيا؟ كانت مناهضة الدولة الاسلامية فى أسبانيا شطرا من سياسة شارلمان العامة . وكان شارلمان يترقب كل فرصة لتحقيق هذه السياسة التى بدأها جده شارل مارتل

وقد سنحت هذه الفرصة فى ظروف الحرب الأهلية فى أسبانيا . وكان عبد الرحمن الداخل قد حطم خصومه فى الجنوب ، ولكن الشمال كان مايزال يضطرم بفورات الخارجين عليه من فل المتغلبين وحكام المدن . وكان أقوى أولئك الخوارج وأشدهم مراسا ، سليمان بن يقظان الكلبى حاكم برشلونة قد فكر مع نفر من زملائه الخوارج كبنى يوسف الفهرى آخر المتغلبين على الأندلس قبل عبد الرحمن ، فى الاستنصار بشارلمان ، فقابلوه فى إحدى رحلاته فى جنوب فرنسا ، وأغروه بفتح الولايات الشمالية وتعهدوا أن يسلموه مدنا معينة . ويقول بعض رواة الأسبان : ان الذى استنصر بشارلمان هو الفونسو أمير أوستورياس الذى خلف بلايو فى امارة ليون . ولكن المرجح أن الدعوة كانت من الخوارج المسلمين الذين قضى عبد الرحمن على سلطانهم. وكانت الدعوة فى وقت ملائم ، لأن شارلمان كان قد انتهى من اخضاع القبائل السكسونية ، فحشد جيشاً ضخما ، وعبر البرنيه (الممرات) ، بعد ان استولى على المعاقل الاسلامية الشمالية . ولكن الزعماء الثائرين اشتغلوا عن معاونة الفرنج بقتال بعضهم بعضاً . فزحف شارلمان على سرقسطة ، وكان حاكمها حسين بن يحيى الانصارى قد انضم إلى الخوارج . وهنا أشرف عبد الرحمن الأموى بجموعه على الجيش المغير ، ونشبت بين الفريقين معركة عامة رد فيها ملك الفرنج بخسائر فادحة وارتاب فى أمر الثائر فقبض عليه ، وارتد بجيشه شمالا . ولكن هذه لم تكن خاتمة المأساة فان الجيش الفرنجى حينما اخترق البرنيه ، انقض عليه مطروح وعيشون ولدا سليمان بن يقظان فى جموع كبيرة من المسلمين والبشكنس ، وذلك فى مفاوز رونشسفال (باب الشزرى) . وكانت المفاجأة رائعة ، وكان الخلل قد دب إلى صفوف الجيش المرتد ، وغلب عليه الاعياء والوهن ، فمزقت زهرة الجيش الفرنجى وهلكت صفوة من النبلاء الفرنج . وألفت هذه النكبة الشهيرة صداها الخالد فى « أنشودة رولان » Chanson de Roland وصيف شارلمان التى لبثت قرونا مثلا أعلى لقريض الفروسية

وكان ذلك فى سنة ٧٨٨ م(١٦٤ هـ) أعنى لأقل من نصف قرن من بلاط الشهداء (موقعة تور أو بواتييه) فهل كان ثمة فى ذلك الحين علاقات سياسية بين بلاط بغداد و بين ملك الفرنج؟ هذا ما تقوله بعض الروايات الفرنجية . ولكن المرجح أن هذه العلائق لم تبدأ إلا فى عصر الرشيد ، فلم يك ثمة علاقة بين هذه الغزوة الاولى لاسبانيا المسلمة الأموية و بين مصادقة شارلمان للخليفة العباسى. ولكنا قد نجد أثر هذا التحالف ماثلا بعد فى ماتلا من غزوات الفرنج لمملكة قرطبة .فان شارلمان لم ينبذ سياسة الكيد لاسبانيا المسلمة والتربص بها ولم ينبذ بنو أمية من جانبهم سياسة التوطيد ومطاردة الخوارج ، بل سياسة التوسع واسترداد كل ما فقده الاسلام من الاراضى الشمالية . ففى سنة ٧٩٢م (١٧٨هـ) زحف هشام بن عبد الرحمن الذى خلف أباه على عرش قرطبة نحو الشمال بجيش ضخم وغزا سبتمانيا ، وهزم جموع الكونت دى تولوز الذى أوفده شارلمان لحمايتها على نهر أور بينا بمكان يعرف بفيلدن . ولكن سرعان ما سنحت فرصة الانتقام لشارلمان ، فان الحكم المنتصر ،ما كاد يجلس على عرش أبيه هشام حتى خرج عليه عماه عبدالله وسليمان ولدا عبد الرحمن ، وسار عبد الله لمقابلة شارلمان فى ايكسلاشابيل قاعدة ملكه ، فأكرم مثواه ، وأوفد معه جيشاً زحف به على طليطلة واستولى عليها . و بعث شارلمان فى نفس الوقت بقيادة ولديه شارل ولويس جيشاً عاث فى الولايات الاسلامية الشمالية ورفع بها أعلام الخراب والموت ، ولكن الثوار والمغيرين أخطأوا تقدير عزم الحكم فانه أسرع لملاقاة أعدائه فى كل ساحة ، ورد الفرنج إلى الشمال وأخمد الثورة بسرعة . وعاد شارلمان إلى غزو اسبانيا مرة أخرى ، فاستولى على برشلونة بدعوة من حاكمها المسلم ثم استردها الحكم . وكانت هذه المرحلة خاتمة النضال الذى أشهره شارلمان على مملكة قرطبة الفتية زهاء عشرين سنة ، ولكن خلفاءه استمروا بعد ذلك فى اعتناق سياسته .

∴

كان التربص باسبانيا المسلمة كما قلنا شطراً من سياسة شارلمان وكان قاعدة من

قواعد السياسة الفرنجية العامة . ولكن مصادقة شارلمان للرشيد لم تكن بعيدة عن تنفيذها . كذلك نلمس أثر الكنيسة واضحاً فى هذه السياسة ، فان سيل الاسلام الذى جرف اسبانيا فى أعوام قلائل ، ثم انساب إلى فرنسا بعنف حتى كاد يحمل ولاياتها الجنوبية ، كان فى نظر الكنيسة خطراً داهما على النصرانية . ونحن نعرف تحالف شارلمان مع الكنيسة ، واستغلاله لنفوذها فى تمهيد فتوحاته وظفره بتاج الدولة الرومانية المقدسة ، واستغلالها هى إياه فى محاربة أعدائها : وقد كانت الخلافة فى المشرق تسيطر على أرواح ملايين كثيرة من النصارى . أفلم يكن ظفرا للكنيسة أن تحمل شارلمان على مصادقة الخليفة العباسي ، فتؤكد بذلك تسامحه نحو الملايين من أبنائها ، ورعايته للقبر المقدس ، والحاج اليه ؟ هذا ما يلوح لنا أنه الثمن الذى بذلته الخلافة العباسية من جانبها فى محالفة عقدتها مع ملك الفرنج وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

الفصل الرابع

حصار العرب للقسطنطينية

وثب الاسلام وثبته الأولى بالدولة الرومانية المحتضرة فانتزع منها الشام ومصر وإفريقية ، فلما أفاق من غمار الحرب الأهلية التى عاقته أعواما عن المضى فى حياة الفتح والظفر عاد إلى استئناف الكرة فى ظل الدولة الأموية الفتية . فتوغل فى أقطار الدولة الرومانية حتى مياه البوسفور ، وتوغل فى افريقية غربا حتى شاطىء الاطلانطيق ، ثم جاز إلى اسبانيا فاقتحمها شمالا حتى ضفاف اللوار

غير أن الاسلام وصل فى ظل الدولة االأموية أيضاً الى ذروة مجده الحربى . بل لاقى على يدهـا هزيمتيه الفادحتين ، الحاسمتين فى مصايره ، فارتد أمام أسوار القسطنطينية التى رأى أن يجوزها إلى أوربا بادىء بدء . ثم ارتد بعدئذ فى سهول تور وبواتييه فحول نشاطه فى الشرق إلى أواسط آسيا ، وقنع من غرب أوربا باسبانيا ولبث فيها قروناً يغالب النصرانية وتغالبه

***

لما استقر ملك بنى أمية بالمشرق وتولى معاوية بن أبى سفيان عرش دمشق رأى أن يخمد ما بقى من عناصر الاضطراب والتفرق باستئناف الفتح . وأن يحول غيرة القادة والزعماء وأهل الرأى من سلطانه واستئثاره بالامر ، واهتمامهم بمنافسته ومناوأته إلى العناية بمجد الحرب وفخار الظفر فبعث جيوشه من مصر إلى أفريقية لتتم افتتاحها . ونشط فى نفس الوقت إلى تجهيز أول حملة لغزو القسطنطينية قاعدة الدولة الرومانية الشرقية

ولم يكن ثمة مايدعو معاوية إلى توقع الفشل فى تنفيذ مشروعه العظيم بعد أن اختبر المسلمون قوة الدولة الرومانية فى معارك عدة وهزموا جيوشها مراراً فى سهول

الشام ومصر وافريقية ، وأدركوا ما أصابها من الانحلال والتفكك . فحشد الخليفة الاموى جيشاً جراراً وأسطولا ضخماً سارا من ثغور مصر وسوريا إلى مياه القسطنطينية وسار الجيش مخترقاً هضاب الاناضول بقيادة سفيان بن عوف الازدى وصحبه يزيد بن معاوية ونفر من الصحابة والانصار منهم عبدالله بن عباس ، وابن عمر ، وأبو أيوب الانصارى . واخترق الأسطول الاسلامى مضيق هيليس (الدردنيل) دون مقاومة ، ونقل الجند إلى الشاطىء الاوربى بالقرب من قصر هبدومون على قيد سبعة أميال من القسطنطينية .

وهكذا بدأ العرب أول معاركهم البحرية بمحاصرة القسطنطينية ، فطوقوها من البر والبحر بصفوف كثيفة من السفن والجند ، ولبثوا عدة أيام من الفجر إلى المساء يهاجمون واجهتها الشرقية حتى القرن الذهبى دون أن يظفروا بالدنو من أسوارها وأبراجها المنيعة . والواقع أن المسلمين قد أخطأوا تقدير منعة القسطنطينية ، ومنعة وسائل الدفاع الرومانية ، وما أثاره الخطر الداهم فى أنفس الرومانيين من الشجاعة والاستبسال فى الدفاع عن حاضرتهم وآخر معاقلهم ، وفى الذود عن دينهم ومدنيتهم ، وهالهم جلد العدو وصلابته ، وراعتهم بالأخص النار اليونانية (١) التى أخذت تمزق صفوفهم وتحرق سفنهم ومتاعهم ، فتحولوا عندئذ إلى نهب ضفاف البروبونتس (المرمرة) الاسيوية والأوربية ، و بعد أن استمروا فى حصار المدينة من البحر من ابريل إلى سبتمبر سنة ٦٦٨ م (٤٨ هـ) ارتدوا عند اقتراب الشتاء إلى جزيرة سيزكوس الواقعة على قيد ثمانين ميلا من القسطنطينية حيث أنشأوا مراكزهم العامة .

غير أنهم عاودوا الحصار فى صيف العام التالى . وعاودوا الارتداد فى الشتاء ، واستمروا كذلك يعاودون الحصار والارتداد ستة أعوام متوالية قبل أن يؤمنوا بفشل مجهودهم ، وقبل أن يفكروا فى العدول عن تنفيذ مشروعهم الضخم . ولكن الجهود المتوالية أضنت قواهم واستنفدت جلدهم ، وفقدوا كثيراً من رجالهم وسفنهم

(١) هى أنفذ وسائل الفتك الرومانية والبيزنطية . وهى سائل ملتهب يقذف من فوهات نحاسية فينقلب ناراً حامية تعلق بالسفن أو الخيام وتحرقها بسرعة عجيبة ولا يخمدها الماء بل يزيدها لهيباً وإذكاء . ولم يعرف العرب سر استعمالها إلا فيما بعد وسنعود إلى تاريخها فى فصل خاص

ودوابهم ، وعصف الفشل المستمر بحماسهم ، وسرى المرض والاختلال إلى صفوفهم فقرروا الانسحاب العام فى النهاية ، وارتدوا إلى أوطانهم بعد ان فقدوا فى تلك المعارك زهاء ثلاثين ألف مقاتل كان منهم أبو أيوب الانصارى الذى دفن فى أسفل سور القسطنطينية ولم يكتشف قبره الا عند افتتاحها على يد الاتراك فى سنة ١٤٥٣ م

وكانت حوادث هذا الحصار المشهود وما لاقاه العرب فيه من الفشل عاملا أحيا شهرة الحرب الرومانية فى الشرق والغرب ، وأسبل سحابة مؤقتة على مجد العرب ، فعاد الخليفة الأموى الى التفاهم مع الامبراطور الرومانى ، وعقد الفريقان الصلح لمدة ثلاثين سنة

⁂

ومن المحقق أن سياسة الخلافة كانت ترمى من غزو القسطنطينية إلى أبعد من الاستيلاء على عاصمة الدولة الرومانية فقد كانت تعتزم أن تحمل دعوة الاسلام إلى أمم المغرب والشمال ، وأن تتخذ القسطنطينية قاعدة لتنفيذ هـذه السياسة . فلما ارتدت جيوشها أمام اسوار القسطنطينية شقت لنفسها إلى الغرب طريقاً آخر ، فجاز طارق إلى الأندلس وافتتح مملـكة القوط . وسار موسى بن نصير فى تنفيذ هذه السياسة فتوغل فى أسبانيا وعبر البرنيه والاوستر ياس وغزا ولاية لانجدوك أوسبتمانيا فى جنوب غاليس (جول) واستولى على كاركاسون (قرقشونة) ونربون (اربونة)

وأشرف القائد الجرئ من معسكره فى لانجدوك على مملـكتى الفرنج واللومبارد فجال بخاطره أن يتم غزو أوروبا وأن يصل إلى الشام من طريق القسطنطينية بعد أن يفتتح ما بقى من بلاد النصرانية . وكان يقدر تنفيذ خطته بجيش ضخم يقتحم البرنيه يؤيده أسطول من البحر فيقضى أولا على مملـكتى الفرنج واللومبارد الضعيفتين ثم على رومه قاعدة الفاتيكان ومهد النصرانية ، ومن ثم يشتت شمل القبائل الجرمانية ، ثم يتبع مجرى الدانوب إلى مصبه فى البحر الأسود ، فيقضى على الدولة البيزنطية فى القسطنطينية ، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى فيصل ثغر انطاكية بولايات الشام . ولم

يكن يبدو يومئذ أن صعاباً خارقة تحيط بتنفيذ مثل هذا المشروع الضخم ، فقد كان التفرق سائداً إذ ذاك على الأمم التى تحول بين الجيش الاسلامى و بين الوصول إلى الخلافة ، ولم يقم إزاء الخطر الاسلامى زعيم يجمع كلمة النصرانية ، بل إن اختراق أوروبا على ذلك النحو فى مثل هـذه الظروف لم يكن أخطر فى نظر القائد العربى من اختراق مصر واقتحام قفار أفريقية إلى اسبانيا وغاليس ، ولكن سياسة التردد التى اتبعها بلاط دمشق قضت على ذلك الحلم البديع إذ أمر الوليد عامله أن يقف الفتح وألا يغامر بجيوش الاسلام فى مسالك لم يسبر غورها .

* * *

غير أن فكرة غزو القسطنطينية واقتحام أوروبا من طريق الدولة الرومانية الشرقية لبثت غاية السياسة الأموية ، فلم تمض بضعة أعوام أخرى حتى رأى سليمان بن عبد الملك أن الفرصة قد سنحت لاستئناف الكرة على عاصمة الروم . والواقع أن الاضطراب كان يسود الدولة البيزنطية عندئذ ، وشبح الدمار والانحلال يحلق فى أفقها ، فقد عزل من أمبراطرتها ستة فى نحو عشرين عاماً فقط ، واقتحم البلغار والصقالبة أقاليمها الشمالية حتى أسوار القسطنطينية ذاتها ، واقتحم العرب آسيا الصغرى وامتدت غزواتهم الى ضفاف البوسفور

بعث سليمان أخاه مسلمة فى جيش ضخم ليتم فتح الدولة الرومانية . فسار مسلمة الى عمورية (أموريوم) قاعدة الاناضول فحاصرها ثم رفع الحصار عنها بعد مفاوضات جرت بينه و بين ليو الاسورى قائد البيزنطيين . غير أن القائد البيزنطى لم يعد ادراجه نحو الشمال الا ليقاتل ابن ملكه تيودسيوس الثالث ، فقاتله وهزمه وتنازل الامبراطور عن عرشه وارتد الى أحد الاديار ، ودخل ليو (اليون) القسطنطينية بجيشه الظافر وتوج امبراطوراً للدولة الرومانية فى مارس سنة ٧١٧ م

و بدأ ليو حكمه فى غمار من الصعاب الفادحة وكان الخليفة يرقب سير الحوادث فى عاصمة الروم فرأى فى هذا الانقلاب ما يؤذن باضمحلال عدوه ونجاح مشروعه

فأمد أخاه بجيش آخر وأمره بمحاصرة القسطنطينية وأعلن عزمه على أن يسير فى أثره بجيش ثالث ليشرف على المعركة بنفسه اذا أمعن النصارى فى المقاومة. وسار مسلمة الى حصار القسطنطينية على رأس قوة من أكبر وأمنع القوى التى جردها الاسلام على النصرانية ، تبلغ زهاء ثمانين الف مقاتل ، ويقال ان الحملة كلها بلغت مائة وثمانين الفاً بما فى ذلك بحارة الاسطول والامدادات التى أرسلت الى مسلمة فيما بعد

وبعد ان استولى مسلمة على برجاموس سار الى ابيدوس حيث التقى بالاسطول العربى . ثم نقل جيشه الى الضفة الاوربية من الهيليس (الدردنيل) وزحف على ضفاف المرمرة ، وطوق ليو فى عاصمته من البر والبحر . وحاول المسلمون بادىء بدء أن يقتحموا المدينة بالهجوم والمباغتة ، ولكنهم أخفقوا بعد أن بذلوا فى ذلك جهوداً عدة ، وذلك لمناعة الأسوار ومهارة المهندسين البيزنطيين ووفرة آلات الدفاع من قاذفات النار والاحجار وغيرها ، فعولوا عندئذ على أخذها بالحصار الصارم المستمر . وحفر مسلمة حول معسكره خندقا عميقاً وأقام حوله سداً منيعاً ، وبعث من جنده سريات الى الأنحاء المجاورة لتنهب وتتلف الأقوات والمؤن التى قد تتسرب الى المدينة المحصورة

وكان هذا الاسطول العربى أكبر أسطول حشده العرب ، ولعله من أضخم القوات البحرية التى استطاعت دولة اسلامية أن تحشدها فى غزوة بحرية ، وكان يتألف من الف وثمانمائة سفينة كبيرة للحرب والنقل قسمت الى قسمين ليحكم حصار المدينة من البحر ، رابط الأول على الشاطىء الاسيوى فى ثغرى يوتروبوس وانتيموس ليحول دون وصول الأقوات الواردة من بحر الأرخبيل ، واحتل الآخر ساحل البوسفور الاوروبى حتى رأس غلطة ليقطع كل مواصلة للمدينة بثغور البحر الاسود ولا سيما شيرسون وطرابزون

ووقعت أول معركة بحرية حينما سار الأسطول الذى خصص بالشاطىء الأوربى لدخل مرافئه ، فقد ثارت الرياح واشتدت الأمواج اشتداداً هائلا فاصطدمت السفن

الكبيرة بعضها ببعض وانتهز البيزنطيون هذه الفرصة فوجهوا اليها النار اليونانية فأحرقوا بعضها ودفعوا بالبعض الآخر الى أسفل السور . فاعتزم سليمان أمير البحر أن ينتقم لتلك الهزيمة الجزئية بنصر كامل . فحشد أمنع سفنه وهيأ كلا منها بمائة من خيرة جنده شجاعة وأهبة ، وزحف على أسوار المدينة وبذل جهداً عنيفا لاقتحامها، ولكن ليو كان على قدم الحذر والأهبة فرد الهاجمين بسيل من النار الحامية ، وسحب سليمان أسطوله المرابط فى الشاطىء الاوربى الى خليج سوستينان

بدأ المسلمون حصارهم الثانى للقسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧م(٩٨هـ) أى قبيل دخول الشتاء ولم تمض بضعة أسابيع حتى توفى الخليفة سليمان قبل أن يستطيع امداد مسلمة ، ثم دخل الشتاء بقره ، وكان أشد وأقسى من عادته فى ذلك الاقليم فلبثت الانحاء المجاورة للمدينة عدة أسابيع مغطاة بالثلج والجليد ، وذهب كثير من خيرة جند مسلمة ضحية البرد وأهواله ، وهلك معظم خيله وإبله، وعصفت ندرة الاقوات والسعى الى تحصيلها بنظام الصفوف ، ودب الخلل الى الاسطول بموت أميره سليمان . أما البيزنطيون فقضوا الشتاء داخل الاسوار فى أمن وسلام . وفى ربيع سنة ٧١٨ قدم الى مسلمة أسطول يحمل الأقوات من ثغر الاسكندرية يتألف من أربعمائة سفينة تحرسها سفن حربية ، فدخل البوسفور وعسكر فى كالوس أرجوس، ثم جاء على أثره أسطول آخر من أفريقية يصارعه فى الضخامة وعسكر فى شاطىء بتنيا . وكان معظم بحارة هذه السفن القادمة من الاسكندرية وإفريقية من النصارى المرتزقة ، فراعتهم حال المعسكر الاسلامى وخشوا عاقبة انحلاله وضعفه فتآمر كثير منهم على الفرار ، واستقلوا القوارب تحت جنح الظلام ، ودخلوا المدينة ، وقصوا على الامبراطور حقيقة الحال فى معسكر المسلمين ، وما نزل بهم من المصائب والمصاعب . فعجل ليو لاستفادة من تلك الحال ودفع الى خارج الميناء بقسم من سفنه مزود بقاذفات النار فانقض على سفن المسلمين وأوقع فيها الاضطراب والخلل وأحرق بعضها وأسر البعض الآخر ، وجنح كثير منها الى الشاطىء

وتبدلت الحال عندئذ إذ حل الضيق والقحط بمعسكر المسلمين ، بينما تنفس المحصورون الصعداء ، ولكن مسلمة استمر فى حصار المدينة بجنده من البر ولم يعتزم الانسحاب حتى بدأت تتمزق سراياه التى يجردها فى طلب الأقوات وحتى استنفد كل ما لديه من المؤن والدواب. عندئذ قرر الانسحاب ونقل ما بقى من جنده على ما بقى من سفنه ، ورفع العرب حصارهم الثانى عن القسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م بعد أن تحطمت امام أسوارها قوة من أضخم وأمنع القوات التى استطاع الاسلام أن يحشدها فى غزواته . وأنزل الجيش فى بروكونياس حيث ارتدجنوباً الى دمشق، وأما الاسطول فدهمته العواصف الثائرة فى بحر الأرخبيل وفرقته، وانقض اليونانيون فى الجزائر على وحداته المتفرقة فمزقوها وأغرقوا وأسروا كثيراً منها حتى قيل بأنه لم يعد من أسطول مسلمة الى ثغور الشام الا خمس سفن

∴

وهكذا أخفق الاسلام أمام أسوار القسطنطينية فى حملتيه الكبيرتين، وتبددت آمال الخلافة فى اقتحام أمم العرب من تلك الناحية

ويرجع هذا الاخفاق الى أسباب عدة : منها حداثة عهد العرب بالمعارك البحرية وقسوة الأقليم الى درجة لم يعتدها جند الجنوب الذين نشأوا فى أقاليم الشام ومصر وإفريقية، ويرجع بالأخص الى براعة البيزنطيين فى أساليب الدفاع عن الحصون والمدن المحصورة والى حذقهم فى استعمال النار اليونانية . وكان فن الحرب لا يزال فى الدولة الشرقية محتفظا بتفوقه رغم الاضمحلال العام الذى سرى الى جميع نواحى حياتها الاجتماعية والاقتصادية ، هذا الى منعة أسوار القسطنطينية ووفرة وسائل الدفاع والآلات التى نصبت فوق أبراجها

كان هذا الاخفاق حاسماً فى تاريخ الاسلام ، عميق الأثر فى مصايره ، وكانت حملة القسطنطينية آخر مجهود فادح بذله الاسلام ليحمل لواءه الى أمم الغرب فى وقت كان يسودها فيه التفرق والضعف ، وتتنازع سيادتها الروحية الوثنية والنصرانية جنباً

الى جنب . ولم يكن توغل العرب بعد ذلك فى سهول فرنسا حتى مدينة تور فى سنة ٧٣٢ م مقروناً بنفس الأهبة والخطورة ولا بنفس العزم والاصرار التى اقترنت بها حملتا القسطنطينية وان كان هذا التوغل مع ذلك قد تم تنفيذاً لنفس السياسة التى ارتسمتها خلافة دمشق

ولو نجح العرب فى الاستيلاء على القسطنطينية لتغيرت مصاير أوربا بلا ريب . يقول المؤرخ جيبون عن حوادث موقعة تور التى ارتد فيها العرب أمام جيوش الفرنج : « إن حوادث هذه الموقعة قد أنقذت أسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نير القرآن المدنى والدينى ، واستبقت بهاء رومة وجلالها، وأخرت استعباد القسطنطينية وشدت أزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها الفشل والتفرق» . وحرى أن يقرن هذا القول باخفاق العرب فى فتح القسطنطينية التى كانت ترى الخلافة فى اقتحامها طريق الشمال والغرب ، وفى الاستيلاء عليها تجريداً للنصرانية من ملاذها ومعقلها . وهذا ما يشير اليه فنلى مؤرخ الدولة البيزنطية فى قوله « ان كبرياء مؤرخى غاليا قد عظمت من شأن تغلب شارل مارتل على سرايا ناهبة من عرب اسبانيا وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج فى حين ان حجابا ألقى على عزيمة ليو الثالث الذى نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ولم يكد يجلس على عرش القسطنطينية حتى أحبط خطط الوليد وسليمان »

ومهما كان من خلاف فى النظر بالنسبة لنتائج غزوة العرب للقسطنطينية وغزوهم لفرنسا فلا ريب ان الاسلام قد لاقى هزيمتيه الحاسمتين أمام أسوار القسطنطينية وعلى ضفاف اللوار وأنهما كانتا فصل ختام فى مصيره ومصاير النصرانية .

الفصل الخامس

فكرة الحروب الصليبية

لم تبدأ الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر، ولم تقع أول معركة صليبية فى سهول الشام بين المسلمين والفرنج، فالحروب الصليبية ترجع فى الحقيقة إلى القرن الثامن، وقد بدأت معاركها الأولى فى سهول اللوار والرين، ووجهت نحو الوثنية بادىء بدء، ثم إلى الاسلام والوثنية معاً، ثم إلى الاسلام وحده بعد انحلال الوثنية، ولم تكن المعارك المتوالية التى وقعت فى الشام ومصر بين المسلمين والفرنج منذ جودفروا دى بويون إلى لويس التاسع إلا طوراً من أطوار ذلك الصراع العام.

فى الوقت الذى انهارت فيه صروح العالم الرومانى الشامخة، انقض الاسلام على أنقاضها فى آسيا وافريقية وشاد منها دولا جديدة. ثم حاول أن ينفذ إلى سويداء النصرانية من المشرق والمغرب معاً، فلاقى خيبته الحاسمة فى المشرق أمام أسوار القسطنطينية، ولاقى هزيمته الحاسمة فى المغرب فوق ضفاف اللوار، وارتدت الوثنية فى نفس الوقت على ضفاف الرين أمام نفس أولئك الفرنج الذين وقفوا للاسلام سدا. فوق هذه البسائط وفى مهاد هذه المعارك الحاسمة معارك الحياة والموت، قدرت النصرانية فداحة الخطر الذى يهددها من تدفق سيل الاسلام والوثنية، ونشأت فى المجتمع النصرانى لأول مرة فكرة صراع غامضة هى التى استحالت بعد إلى فكرة الحروب الصليبية

كانت مملكة الفرنج حصن أوربا من الغرب، كما كانت الدولة البيزنطية حصنها من الشرق، يحميانها من وثبات الاسلام، وكانت تعاليم الاسلام تنذر فى فاتحة

القرن الثامن بامتلاك ايطاليا وغاليا ، والوثنية تنذر بالامتداد إلى ما وراء الرين ، وأخذت الجيوش الاسلامية تندفع ظافرة إلى الأمام تكتسح كل قوة تغالبها مؤملة على قول الشاعر الانجليزى سوذى أن تخضع أوربا النصرانية إلى صولة الاسلام حتى « يصبح الغرب المقهور كالشرق يطأطىء الرأس اجلالا لمحمد ... »

ولكن سيل الاسلام ارتد أمام جيوش الفرنج فى سهول تور واعتبرت أوربا النصرانية شارل مارتل حاميها ومنقذها من قبضة الاسلام ومن نير القرآن المدنى والدينى ، وأسبغ شارلمان من بعده على تلك الفكرة لوناً واضحاً ، فطارد القبائل الوثنية نحو الشرق وفرض النصرانية على سكسونيا وبوهيميا ولومبارديا ، ورد المسلمين إلى ما وراء البرنيه.

كانت النصرانية تقنع بالدفاع عن نفسها بادىء بدء،فلما تفككت عرى الدولة الاسلامية واستحالت فى القرن العاشر إلى ممالك وإمارات متنافسة ، واضمحل شأن القبائل الوثنية فى شرق أوربا ، استطاعت النصرانية أن تتحدى الدول الاسلامية وبدأت بين النصارى والمسلمين سلسلة من الحروب والمعارك ، وكان يقوم بمحاربة المسلمين الأمم أو الدول التى كانت تجاورهم أو تخشى نهوضهم كامارات اسبانيا النصرانية ، ودويلات ايطاليا ، والدولة البيزنطية . ولم تكن الفكرة الدينية هى التى تجثم فى ثنية هذه المعارك بل كانت شهوة التغلب والسلطان السياسى والحريات القومية ، هى النزعات الغالبة فيها ، وهى التى تسيرها . بيد أن تعاليم الكنيسة قد أسبغت على كثير من هذه الحروب المحلية لون الحرب الصليبية التى تشهر إما لبث دعوة الدين ، أو لاستئصال أعدائه ، أو حماية البقاع المقدسة . وكان الباعث الدينى ينتحل فى الغالب ليحيط المعارك بجو من المهابة يصعب أن يخلقه باعث آخر ، بل كان من الجند الذين يحتشدون حول العلم الكنسى من يعتقد أنه يضحى بمصالحه المادية ومطامعه الدنيوية لخير روحه وخير النصرانية .

على ان الحماسة الدينية أو نزعة الجهاد لم تبلغ فى النصرانية ما بلغته فى العالم

الاسلامى ، ففى الاسلام يرجع كثير من الفضل إلى هذه العاطفة فى فوز المسلمين باجتياح ما اجتاحوه من أقطار الدولة الشرقية وأوربا ، ولكنها لم تسفر فى أوربا النصرانية إلا عن حركات صغيرة متقطعة ، ولم تسفر فى أية حالة عن حركات عظيمة كالتى وثبت من بلاد العرب وآسيا وافريقية ، ولم تؤد إلى فتوحات باذخة كالفتوحات التى قامت بها دول بغداد وقرطبة والقاهرة

ومع ذلك فقد تتفوق الفكرة الصليبية على نزعة الجهاد الاسلامية فى معنى من المعانى : ذلك ان أوربا الغربية كانت قد جازت منذ عصور طويلة غمار البداوة والانحلال القومى ، وكانت الطبقات الحاكمة برغم ما كان يبدو عليها من هوى التقلب وشغف التنقل قد استقرت وارتبطت بأوطانها القومية بروابط عدة . فاذا كان الاضطرام فى الغرب أضعف منه فى الشرق فان المادة التى كان له أن يعتمد على اضرامها كانت أشد مراساً وأعرق أصولا . وكان ثمة من الميادين والفرص القريبة ما تستطيع الكنيسة أن تحشد له جموع المتطوعين بلا صعوبة ، بيد أنها كانت تميل إلى تحقيق غايات بعيدة خطرة شاقة ، ولم يكن لمعظم الأمراء والفرسان الذين لبوا دعوتها فى الحروب الصليبية الكبرى كبير أمل فى الفوز بثمار دنيوية خلابة ولهذا كانت المشاريع الضخمة التى خصتها الكنيسة بالعناية والرعاية أوفر المشاريع كلفة وأقلها ثمرة ، وكانت النصرانية الغربية تسير إلى الغنم والظفر لا فى سهول الشام ولكن فى اسبانيا وجنوب ايطاليا حيثما كانت تغالب الدول الاسلامية، وفى أواسط أوربا حيثما كانت تشتبك مع الوثنية

بدأت هذه النزعة الصليبية فى اسبانيا قبل مجلس كليرمون ودعوة أوربان الثانى إلى الحرب الصليبية الكبرى بنحو نصف قرن . والواقع ان الحماسة الدينية كانت تسبغ منذ البداية على حروب الأندلس لوناً عميقاً من التعصب ، وكانت النصرانية الاسبانية مذ ردت إلى الشمال ، وألجئت إلى هضاب البرنيه والاوستورياس، تستعر حماسة إلى استرداد أوطانها الجنوبية من قبضة الاسلام ، وكانت

الامارات الشمالية تنسى فى الحال خلافاتها السياسية والقومية وتحتشد حول كلمة الدين كلما هددها المسلمون من الجنوب . ولنا ما يوضح ذلك فى عهد الناصر لدين الله سنة ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ (٩١٢ — ٩٦١ م) وكذلك فى عهد الحاجب المنصور سنة ٣٦٦ هـ — ٣٩٣ هـ (٩٧٦ — ١٠٠١ م) حينما نشط الاسلام إلى مطاردة اسبانيا النصرانية وغزا أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ، وكذلك حينما جازت جموع البربر إلى الأندلس تحت لواء المرابطين ، ثم الموحدين من بعدهم، لتنقذ الأندلس من خطر الفناء ، ولتجدد عهد الجهاد، ولترث فى نفس الوقت ملك الدولة الأموية . فقد أثار هذا الانفجار الجديد من جانب الاسلام ارتياع الامارات النصرانية ، وبعث اليها نزعة قوية من التعصب الدينى ، فاستصرخت جيرانها باسم الدين، واقتحم البرنيه سيل من المتطوعة من نورماندى ، واكتين ، وبورجونيا وغيرها من الولايات الفرنجية ، هرعوا متحمسين لينصروا الصليب ، وليأخذوا قسطهم من اسلاب المسلمين . وشملت رومة هذه الحركة برعايتها ، وأذن البابا جريجورى السابع المتطوعين فى الحرب باسم الدين على أن يحكموا الأرض المفتوحة باسم البابوية . ومن ثم كانت البابوية تسبغ الصفة الدينية على كل حرب تشهرها النصرانية على الاسلام.

على ان الاطماع الدنيوية والثمار المادية كانت تجثم فى ثنية هذه النزعة الدينية التى عمل الزعماء على اضرامها فى صدور الجند والعامة ، فنرى مثلا بعض كبار المغامرين من فرسان النصرانية مثل السيد الكمبيادور (١) يحاربون إلى جانب النصارى والمسلمين طوراً بعد طور ، ثم نرى الظافرين يقنعون من الأرض المفتوحة بالاسلاب ومن المسلمين بالاتاوة ، بل نراهم يعتنقون عادات الشعب المغلوب وتقاليده الاجتماعية . وكانت كل الطبقات فى اسبانيا النصرانية تستفيد من كل أرض تنتزع من اسبانيا المسلمة ، فيغنم النبلاء اقطاعات جديدة ، وتهرع الطبقات الوسطى إلى المدن الجديدة لتستبدل غناها ونعماءها بفقر الوطن القديم وبأسائه ، ويهرع العامة والفلاحون إلى

---

(١) Cid il Campeador وهو الدون رودريجو دى بيفار علم الفروسية الاسبانية وقد توفى فى سنة ١٠٩٩ م وسنعنى بسيرته فى فصل قادم

وديان الأندلس الجميلة ومروجها الخصيبة الزاهرة فراراً من جدب الشمال وقفره .

***

هذه العوامل التى أذكت نار الصراع المستمر بين اسبانيا النصرانية وبين المسلمين هى نفسها التى حولت فكرة الحروب الصليبية نحو المشرق ، فكما أن الانفجار الاسلامى فى عهد المرابطين والموحدين كان ينذر باجتياح اسبانيا النصرانية ويستثير حماسة الأمم الشمالية ، كذلك كان الانفجار الاسلامى فى المشرق يستثير جزع النصرانية ، ويستثير بالأخص خوف الدولة البيزنطية التى هى معقل النصرانية من المشرق . كانت وثبات الدولة السلجوقية وغزواتها الكبيرة فى عهد الب ارسلان وملك شاه سنة ٤٦٣ — ٤٨٥ هـ (١٠٧١ — ١٠٩٢م) نذير الحرب الصليبية الاولى . وكان أولئك الغزاة الأشداء قد اغتصبوا سلطة الخلافة العباسية، واجتاحوا آسيا الصغرى والشام فى نحو عشرين عاماً فقط وسحقوا جيوش الدولة البيزنطية فى واقعة ملاذكرت سنة ٤٦٣ هـ (سنة ١٠٧١ م) وأسسوا سلطنة الروم فى آسيا الصغرى فاستصرخ حكام القسطنطينية أمم العرب ، ورفع الحجاج الذين زاروا البقاع المقدسة أصواتهم بالشكوى المرة مما لقوا من عسف الفاتحين واضطهادهم للنصرانية وشعائرها . وكان على رأس الكنيسة فى ذلك الحين رجل وافر العزم والدهاء هو هلدبراند الذى ارتقى كرسى البابوية باسم جريجورى السابع ، فراعه ذلك الخطر الجديد ، ورأى أن يبادر باعداد حملة لحماية الدولة الشرقية التى كان يعتبرها بحق سداً منيعاً لحماية أوربا من وثبات الاسلام من جهة المشرق . فوجه دعوة عامة إلى أمراء أوربا يطلب اليهم المعونة . ولكن جريجورى لم يستطع رغم ذكائه وحزمه أن ينفث فى الجموع تلك الحماسة المستعرة التى هى روح الحملات الصليبية . وكان الشك يحيط بنيته فى توجيه الحملة إلى محاربة النورمان فى جنوب ايطاليا ، ولذلك لم تثمر دعوته ولم يلبها إلا نفر ضئيل من المغامرين

فكان على خلفه أوربان الثانى أن يحيى مشروعه وأن يحسن اعداده وتنفيذه

وكان أوربان حبراً شديد الحماسة ثاقب البصيرة، فلم يقصر دعوته على الأمراء والسادة بل وجهها إلى الدهماء والكافة . وكان ترجمانه إلى العامة راهب يذكرنا بالأقدمين من الدعاة والرسل اسمه بطرس الزاهد ، وكان قد زار البقاع المقدسة وعاد إلى أوربا يروى أشنع القصص عن عسف السلاجقة وانتهاكهم لقبر المسيح . وسواء أصدق هذا الراهب فيما روى عن السلاجقة أم كان مدعياً مبالغاً فقد كان لدعوته شأن عظيم فى إثارة تعصب العامة ، وكان يطوف أرجاء أوربا فوق حمار، وهو حافى القدمين يرتدى ثياباً خشنة ويحمل صليباً كبيراً ويخطب فى الدهماء والعامة ، فيبكيهم ويثير حماستهم ويذكى ظمأهم إلى الانتقام واسترداد القبر المقدس . وكانت فورة السلاجقة قد هدأت فى ذلك الحين وتفككت عرى دولتهم على أثر موت ملكشاه . ولكن أحبار الكنيسة وأمراء الغرب لم يطمئنوا إلى ذلك السكون المؤقت سيما وقد عرفوا من تاريخ الماضى ان الاسلام لا يكاد يخبو له انفجار حتى يتمخض عن انفجار أشد . وكان أوربان يرى مثل سلفه جريجورى وجوب تقوية الدولة الشرقية غير أنه كان يرى أن يكون ذلك بانشاء دولة لاتينية فى فلسطين تسهر على بيت المقدس وترقب وثبات الاسلام من الجنوب والشرق ، فكان ما أرادت الكنيسة، وتدفق سيل النصرانية على المشرق ، واستولى جردفروا دى بويون وزملاؤه من الأمراء الصليبيين على امارات الشام ، وبدأت فى المشرق سلسلة الحروب الكبرى التى يطلق عليها معظم المؤرخين اسم الحروب الصليبية سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م)

وكما كانت الحرب الصليبية الأولى رداً على انفجار الاسلام فى عهد السلاجقة، وتقدم الغزاة نحو القسطنطينية ، كذلك كانت الحرب الصليبية الثانية سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) رداً على فورة جديدة للسلاجقة ، واستيلاء عماد الدين زنكى على حمص معقل المملكة اللاتينية فى الشمال . وكانت الحرب الصليبية الثالثة سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) رداً على نهضة مصر فى عهد صلاح الدين واستيلائه على بيت المقدس وسحقه للمملكة اللاتينية التى عاشت فى فلسطين زهاء ثمانين سنة . وكانت فورة

الاسلام فى هذه المرة رائعة تنذر باجتياح الأناضول والدولة الشرقية ،ولذا هرع أعظم ملوك النصرانية فى هـذا العصر لاتقاء الخطر الداهم . واشتبكت مصر فى حروب طاحنة مع جيوش فرنسا وانجلترا وألمانيا وغيرها من الدول الاوربية ، والتى جندها على المغير دروساً قاسية ، وأثخن صلاح الدين فى جيوش الفرنج ، وغدت قوة مصر فى ذلك الحين مثاراً للاجـلال والروع ، وتحطمت آمال النصرانية فى المشرق . واستحالت الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) إلى عصابات ناهبة استقر زعماؤها فى القسطنطينية ، واقتسموا أشلاء الدولة البيزنطية ، ونبذوا مغامرة الحرب المقدسة . واستنفدت الجيوش الصليبية فى حملاتها الخامسة سنة ٦١٤هـ (١٢١٧ م) والسابعة سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٨ م) قواها ومواردها فى محاولات عقيمة فى مياه مصر وأراضى دمياط انتهت بنكبتها وتمزيقها .

هذه هى الفكرة التى قامت حولها الحروب الصليبية : فكرة الخطر الاسلامى منذ البداية ومعركة الحياة والموت بين الاسلام والنصرانية. وقد استطاعت الكنيسة أن تحفز أمراء النصرانية لمحاربة الاسلام باسم الدين حرصاً على سلطانها واستطاعت أن تبث هذه العقلية الفياضة بالتعصب والحماسة الدينية فى المجتمعات النصرانية عصوراً طويلة ، وان تحشد من فروسية القرون الوسطى حمـلات كبيرة تسير نحو غايات خيالية لاتغرى ثمارها الدنيوية . بيد ان هـذه العقلية لم تخمد فى زعماء المجاهدين شهواتهم واطماعهم المـادية . وكما ان الدين كان علماً فى يد الـكنيسة تدعو حوله الأمراء والفرسان ، كذلك كانت الدعوة الدينية وسيلة نافذة فى يد الفرسان والسادة لحشد جموع العامة وضمان طاعتهم وخضوعهم . ولئن جاشت بنفس الزعماء والفرسان نزعة من الحماسة الدينية ، فقد كانت الاطماع الدنيوية أقوى البواعث التى زجت بهم فى غمار تلك المخاطرات النائية ، بل لقد شق التنافس على الملك والرياسة طريقه منذ البداية. ولنا مايوضح ذلك فى معظم الحملات الصليبية، فقد سار جودوفروا دى بويون وزملاؤه الأمراء على رأس الحملة الأولى بعد أن تعهدوا بأن يحكموا البلاد المفتوحة باسم البابوية ، فلما وصلوا إلى القسطنطينية تعهدوا أن يحكموها باسم الأمبراطور مقابل

اختراق الجيوش الصليبية أراضى الدولة غير أنهم ما كادوا يصلون إلى طرطوس وأنطاكية حتى ثارت بينهم عاصفة شديدة من الخلاف والتنازع فافترق بلدوين عن زملائه واستقر فى امارة حمص ، واستقر بوهموند فى أنطاكية وأبى السير إلى الجنوب، واشتغل ريمون دى تولوز بغزو طرابلس ، واستقل جودفروا بامارة بيت المقدس. وحكم الجميع الامارات الجديدة باسمهم ولحسابهم ، وأنشأوا القصور، وأقطعوا القطائع. وقد رأينا أن الحملة الخامسة لم تصل إلى الأرض المقدسة بل استقرت فى القسطنطينية ، وخاض امراؤها غمار الدسائس التى كانت تعصف حينئذ بعرش الأمبراطور ، وآثروا فى النهاية أن يلتهموا أشلاء الدولة الشرقية على أن يحجوا إلى قبر المسيح

فى وسعنا إذن أن نستخلص مما تقدم ان هنالك عاملين جوهريين هما اللذان دفعا باوربا إلى خوض الحروب الصليبية ، أحدهما معنوى ، والآخر اجتماعى أو مادى.

فأما الأول فهو ثورة العواطف والعقائد الدينية ، فقد رأينا النصرانية تصارع الاسلام منذ القرن السابع ، وترده عن أوربا بعد ان كان ينذرها بالتغلب والفناء، وتحصره فى أسبانيا أخيراً ، وهنالك تمضى فى مغالبته ومناهضته، وان الحروب الصليبية لم تكن فورة فجائية أثارتها قصص الحاج الناقمين ولا دعوة بطرس الزاهد ، ولكنها كانت تتمة أو ذروة للمعركة الكبرى التى كانت تضطرم منذ أربعة قرون بين الاسلام والنصرانية . وكان مسرح هذه المعركة حتى القرن الحادى عشر فى أوربا فنقلته الحروب الصليبية إلى آسيا . وإذا كان لنا أن نقارن بين حوادث هذين العهدين، فانا نستطيع أن نلاحظ ان النصرانية كانت تعرض لنا مدى حين فى آسيا بعض المظاهر التى يعرضها الاسلام فى اوربا وتجوز نفس المصاير فى معنى من المعانى ، فقد كان الاسلام مستقراً فى اسبانيا ، وكان قد أسس هنالك امارات وممالك ،وقد فعل النصارى مثل ذلك فى آسيا فافتتحوا الشام وأنشأوا المملكة اللاتينية وغيرها من الامارات الصغرى ، وكان موقفهم هنالك بالنسبة للمسلمين يشبه موقف المسلمين من بعض الوجوه فى أسبانيا بالنسبة للنصارى ، و بعبارة أخرى : كانت مملكة بيت المقدس النصرانية فى المشرق تشبه بعض الشبه مملكة غرناطة المسلمة فى المغرب ،

ولكن الظاهرة الكبرى هى دائماً معركة النظامين الدينى والاجتماعى، معركة الاسلام والنصرانية التى لقيت ذورتها فى الحروب الصليبية

وأما العامل الثانى ، المادى والاجتماعى ، فهو حالة أوربا فى القرن الحادى عشر. كانت النظم الاقطاعية قد بلغت شأواً بعيداً فى ارهاق المجتمع الأوربى بما تفرض من أغلال وقيود ، وكانت أوربا قد بدأت تتلمس أفقا أوسع وأعم ، وكان الذهن البشرى يحاول يومئذ أن يجوز النطاق الضيق الذى حصر فيه ، فهرعت الجماعات إلى الحروب الصليبية كأنما آنست فيها حياة أرحب وأشد تبايناً وبدا أمامها المستقبل فياضاً بالآمال الكبيرة . وكانت الحروب الصليبية أول حادثة أوربية عامة، وربما كان ذلك أهم مميزاتها ، فقد اشتركت فيها كل أوربا ، ولم ترقبل الحروب السليبية أوربا تهتز لعاطفة واحدة وتعمل لقضية واحدة ، ولم تكن الحروب الصليبية حادثة أوربية فقط ، بل كانت فى كل بلد حادثاً وطنياً ، ففى كل بلد أيضاً كانت طوائف المجتمع كلها تضطرم بشعور واحد ، وتطيع نزعة واحدة ، وكان الملوك والسادة والكهنة والتجار والعامة والفلاحون جميعاً ينظرون إلى الحروب الصليبية بنفس العين ويعملون فيها يداً واحدة ، فكانت الحروب الصليبية للأمم الأوربية مهاد الوحدة المعنوية ، وهى ظاهرة جديدة ، بل كانت فاتحة الوحدة الاوربية ذاتها .

***

أما عبرة الحروب الصليبية وآثارها السياسية والاجتماعية فلاتتناسب مع ضخامة المعارك التى اقترنت بها ، فهى قد انقذت المجتمع الأوربى من طوائف كبيرة من الفرسان والسادة كانت تعبث بحريات الطبقات الوسطى والعامة وحقوقها ، بيد أنها لم تحمل غنما كبيراً من المشرق إلى الحضارة الغربية التى استطاعت أن ترتوى من مناهل العلوم والحضارة الاسلامية لافى غمار الخطوب والمعارك ولكن فى مهاد السلام وفى بسائط قرطبة وصقلية الزاهرة حيث كان الاسلام والنصرانية يلتقيان متصافحين ، ويعملان فى تفاهم وتعاون . كذلك لم يغنم المشرق شيئاً من خوض هذه المعارك الطاحنة مع جموع لم تعن إلا بالنار والسيف .

الفصل السادس

النار اليونانية

١ — تاريخها وتطوراتها

أضحى الافتتان فى اختراع وسائل الفتك والتدمير من أروع ظواهر العصر الحاضر، وقد نبتسم إذا استعرضنا وسائل التدمير القديمة إلى جانب وسائل عصرنا ، فشتان ما بين منجنيق العرب و بين المدافع الضخمة مثلا ، وشتان ما بين النبال والسهام وبين القنابل والرصاص ، وشتان ما بين الأساطيل القديمة وشراعاتها وأمراسها و بين الأساطيل الحديثة ونسافاتها ومدمراتها وغواصاتها وما تحمل فى جوفها من صنوف هائلة للتخريب والسفك . بيد أن هذا البون الشاسع لا يمنع المؤرخ الذى يتأمل صحف الغابر فى اعتبار وروية أن يقف ما بين آن وآخر وقفة الاكبار والاعجاب بما استطاعت مدنيات الحرب القديمة وفنونها أن تخرجه من آلات التدمير ووسائل الدفاع

إن اختراع الآلات المدمرة يتوقف فى كل عصر على ما تستطيع مدنية هذا العصر أن تخرجه من وسائل الدفاع ، فحيثما كانت المدن تحمى بالابراج والأسوار المعينة كان المنجنيق وما يشابهه انفذ آلات التقويض والهدم ، وحيثما كانت السفن الحربية فى صغر الحجم و بساطة العدة كسفن اليونان أو الرومان أو العرب فى البحر الأبيض ، كانت النار اليونانية أروع وسائل الفتك والتدمير ، بل لقد لبثت هذه النار اليونانية قرونا تدفع حملات العرب البحرية عن ثغور الدولة البيزنطية ومعاقلها ، والفى فيها خلفاء قسطنطين آخر وسيلة للاحتفاظ بما بقى فى أيديهم من تراث الدولة الرومانية

ومنشأ هذه النار التي لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ القرون الوسطى محاط بالغموض والحلك فقد استعملت لأول مرة وسيلة ناجعة للتدمير فى أواخر القرن السابع من الميلاد . غير أن فى بعض النقوش والرموز الاشورية مايدل على أن قذف النار على المدن المحصورة وعلى معسكرات العدو كان وسيلة من وسائل الحرب فى مدنية بابل. ويذكر توكوتيدوس أن الاسبارطيين فى حصار بلانيا (سنة ٤٢٩ ق .م) حاولوا إحراق المدينة بأن قذفوها بكرات ملتهبة من الخشب الممزوج بالقار والكبريت ، وفى حصار دليوم(سنة ٤٢٤ ق . م) وضع المحاصرون على الاسوار آنية ملأى بالقار والكبريت والفحم وأشعلوها بواسطة كور يدفع اليها الهواء داخل ساق شجرة مجوفة ، ويذكر تاسيت أنه فى القرن التالى كان يستعمل فى المعارك البحرية مركب من الكبريت والقار والفحم ووبر الكتان ، يوضع فى قوارب سريعة ويقذف ملتهباً على مؤخرات سفن العدو ثم أضيف إلى هذا المركب حوالى سنة ٣٥٠ ق . م النافتا أو البترول ، على مايذكره نجنيوس ، ويذكر المؤرخون اللاحقون فى قصص الحروب والمعارك إلى ما بعد ذلك بنحو تسعة قرون مركباً يصنع من هذه المواد ، ثم تطور هذا المركب فاضيف اليه ملح البارود وزيت التربنتين والشحم واستعمل فى الحروب الصليبية وعرف عندئذ بالنار اليونانية

غير أن هذه النار التى استعملت فى الحروب الصليبية لم تكن هى النار اليونانية الحقيقية التى استعملت فى المعارك البحرية بين البيزنطيين والعرب والتى مازال سر تركيبها إلى اليوم موضع الخلاف والتكهن . وترجع الأساطير الدينية البيزنطية أصل هذه النار إلى الوحى الالهى فيزعم الأمبراطور قسطنطين السابع (بورفير وجنتوس) مؤرخ الدولة البيزنطية أن سر النار اليونانيــة قد أفضى به ملاك من السماء إلى الأمبراطور قسطنطين الأول هبة من الله وبركة أسبغها على الرومانيين ، ولكن الصحيح المعول عليه أن النار لم تظهر بين وسائل الحرب البيزنطية إلا بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون فى عهد قسطنطين الرابع (بوجوناتوس) (٦٤٨ — ٦٨٥ م)

وان الذى اخترعها مهندس يدعى كالنيكوس كان فى خدمة العرب فى هليوبوليس من أعمال الشام ثم فر منها إلى القسطنطينية ، ويقال انه مصرى من هليو بوليس المصرية ، وربما كان هذا هو الأصح لان الكيمياء كانت فناً مزدهراً عند المصريين منذ العصور الأولى وكانت لهم فيها مباحث واختراعات جليلة . وظهرت روعة هذا السلاح الجديد لأول مرة فى حصار العرب الأول للقسطنطينية (سنة ٦٦٨م ــ ٤٨هـ) حينما أطلقت النار على السفن العربية المرابطة فى جزيرة سيزيكوس فدمرت منها عدداً كبيراً وارتد المسلمون على أثر ذلك إلى الجنوب ورفعوا الحصار عن عاصمة الدولة الرومانية

أما سر تركيب هذه النار العجيبة فما زال كما قدمنا يحوطه الخفاء شأن مواد التحنيط عند قدماء المصريين التى مازالت لغزاً مغلقاً على العلم الحديث . على انه يستنتج من أقوال المؤرخين البيزنطيين واشاراتهم إلى النار اليونانية انها كانت تركب من النافتا (زيت النفط) وهو زيت سريع الالتهاب يلتهب حالما يصطدم بالهواء ، ومن الكبريت والقار بنسب ومقادير لم تعرف حتى الآن . وكان هذا المركب يحدث دخاناً كثيفاً وانفجاراً عظيما ، وتنبثق منه نار شديدة حامية تندلع ألسنتها صعوداً وهبوطاً فى نفس الوقت ، وتضطرم اضطراماً سريعاً هائلا، ولا تنطفىء عند ملامسة الماء بل تشتد وتحتدم ولا يخمد أوارها سوى الرمل والخل . والمظنون ان مخترعها كالنيكوس استعمل فى تركيبها ملح البارود أيضاً ليحدث هذا الانفجار ولكن يرد على ذلك بان البارود لم يعرف قبل أواخر القرن الثالث عشر. ويستنتج المؤرخ الحربى الكولونل هايم فى كتابه عن تاريخ الأسلحة والذخائر الحربية ان النار اليونانية كانت تحتوى على مقدار من الجير وهذا هو السبب فى احتدامها واشتدادها عند ملامسة الماء ، وعلى ذلك فقد كانت تركب من زيت النفط والكبريت والجير والقار فينتج من ذلك السائل الملتهب، ومن ذلك سميت بالنار السائلة، ونار البحر

وكانت النار اليونانية تستعمل فى حروب البر والبحر معاً، أثناء التحام الصفوف وأثناء الحصار فتقذف من فوق الابراج أو الاسوار فى آنية كبيرة ، أو تطلق فى كرات

مشتعلة من الحـديد والحجارة أو فى سهام ملتوية قد لفت بالقنب والوبر والشعر ، مشبعة بالسائل الملتهب . وأما فى المعارك البحرية فـكانت تحمل فى سفن النيران وتطلق من أنابيب طويلة من النحاس ركبت على مضخات ضانطة (سيفونات) توضع فى مقدمة السفينة ، وجعلت على هيئة وحوش فاغرة أفواهها تقذف منها وابلا من النيران السائلة المضطرمة

وقد احتفظ البيزنطيون طويلا بسر هذا السلاح الهائل واستأثروا باستعماله فى محاربة أعدائهم قروناً طويلة . وكانوا يعيرونه أحياناً إلى حلفائهم ولـكن دون ان يبوحوا لهم بسره . ويزعم قسطنطين السابع فى تاريخه أن هذا التكتم كان فرضاً من السماء ، وأن الملك الذى أرسله الله بسر هذه النار إلى قسطنطين الـكبير (الاول) أبلغه وجوب احتفاظ الأمير والرعية بسر هذه النعمة والا اعتبر فضحه خروجاً على أوامر الله ومجلبة لسخطه وعقابه . وهكذا لبث سر هـذه النار مقبوراً فى المصانع البيزنطية زهاء أربعة قرون حتى ظفر به العرب فى أواخر القرن الحادى عشر وذلك اما بطريق التحليل والبحث ، واما بالوقوف على سر المركب من بعض الخوارج والخونة البيزنطيين

***

كان العرب أول من عانى فتك النار اليونانية فآنسوا روعتها وخطرها لاول مرة فى حصارهم الأول للقسطنطينية (٤٨هـ — ٦٦٨ م) وسلطها اليونانيون على سفنهم ومعسكراتهم فأوقعوا فيها الخلل والاضطراب غير مرة . وهى التى ردت هجمات المسلمين عن الاسوار مراراً وتكراراً وانتهت باحراق معظم سفنهم فى سيزيكوس كما قدمنا . وفى الحصار الثانى (٩٧ هـ —٧٧٧ م) كان فتكها بالمسلمين أشد وأنكى . فقد ردت مسلمة بن عبد الملك بجيوشه وأساطيله الجرارة عن أسوار المدينة واضطرته أن يرابط بقواته وسفنه فى مراكز بعيدة على الشاطىء الاوربى ، ومن ثم أرغمته على رفع الحصار والارتداد بفلوله إلى جزر الارخبيل بعد ان هلكت فى تلك الموقعة

قوة من أضخم وأمنع القوى التى جردها الاسلام على النصرانية

وليس من المبالغة ان تقول ان النار اليونانية هى التى أحبطت تدابير الخلافة الأموية فى افتتاح أوربا عن طريق القسطنطينية ، وقضت نهائياً على مشاريعها نحو الدولة الرومانية الشرقية وشرق اوربا واضطرتها أن تحول وجهة غزواتها نحو قفار افريقية وان تقنع من اوربا النصرانية بانتزاع الاندلس ، وان النار اليونانية هى التى حولت مشاريع الخلافة العباسية من افتتاح آسيا الصغرى ومحاولة اقتحامها إلى القسطنطينية، إلى حملات ناهبة ، وفتوحات صغيرة لبثت خلالها الدولتان العباسية والبيزنطية تتبادلان محاصرة حصون الحدود وافتتاح مدنها الهامة مثل عمورية وزبطره وطرسوس وغيرها ، وانها هى التى حمت عاصمة الدولة البيزنطية وثغورها من عدوان مهرة البحارة فى تلك العصور مثل بحارة جنوى وبيزا والبندقية

بيد انه إذا كانت النار اليونانية قد لبثت قروناً سلاحاً هائلا فى أيدى اليونانيين فانها بعد ان ظفر المسلمون بسرها غدت سلاحاً شديد الهول فى أيديهم . وقد لعبت دوراً كبيراً فى الحروب الصليبية . ويصفها المؤرخ الفرنسى دى جوانفيل فى كتابه « تاريخ القديس لويس » فيقول انها تشق عباب الهواء كأنها جارح طويل الذيل ينشر جناحيه ، شديدة الكثافة يصحبها دوى الرعد ، وتنطلق بسرعة البرق ، فتبدد أضواؤها ظلمات الليل ، ويصف ارتياعه وارتياع أصحابه من رؤيتها ، وفتكها بصفوف الفرنج[1]

والظاهر ان المسلمين استطاعوا أن يحتفظوا بسر هذه النار بعد اكتشافه إلى حين كما استطاع اليونانيون أن يحتفظوا به من قبل ، ففى الحملات البحرية التى كان يجردها المسلمون على الشواطىء الايطالية وعلى جزائر البحر الأبيض ما بين آونة وأخرى ، وفى الحروب الصليبية نراهم يستخدمون النار اليونانية دون أعدائهم ، كذلك يظهر ان سر استعمال النار اليونانية قد نقل إلى مسلمى الاندلس فاستعملوه فى محاربة أعدائهم من نصارى الشمال (شمال اسبانيا) ففى حصار لبلة (سنة ١٢٥٧م — ٦٥٥هـ)

---

(١) ترى فى القسم الثانى من هذا الفصل رواية دى جوانفيل مفصلة

من أعمال البرتغال استعمل الموحدون لدفع جيوش الفونسو العاشر ملك قشتالة آلات تقذف على معسكر النصارى حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوى كالرعد ، واستعمل ابن الأحمر ملك غرناطة آلات كهذه فى محاربة النصارى . وهنا نقف مترددين فى الحكم على حقيقة هذه الآلات فقد يخطر للانسان من قراءة وصفها المتقدم الذى أورده مؤرخو العرب والاسبان انها مدافع وان المسلمين كانوا قد اكتشفوا سر البارود فى ذلك الحين ، إذا سلمنا بأنهم قد وفقوا إلى اكتشافه قبل أن يوفق إلى ذلك القس الألمانى برتولد شفارتز فى منتصف القرن الرابع عشر ، غير أن المرجح انهذه الآلات انما هى قاذفات الناراليونانية تطورت مع العصور ، ونقلها الموحدون والاندلسيون عن مسلمى مصر وتونس . والظاهر أن مسلمى الاندلس استعملوا المدافع لأول مرة فى موقعة وادى لكة (ريوسليتو) (سنة ١٣٤٠م — ٧٤٠هـ) وفى حصار الجزيرة (الجسيراس) (سنة ١٣٤٢م — ٧٤٢ هـ) ، ويقوى لدينا هذا الرأى ان الناراليونانية كان يصحبها على ماقدمنا عند اطلاقها دوى مخيف . بيد أن ذلك لايمنعنا من أن نفترض ان مسلمى الاندلس بدأوا باستعمال الناراليونانية وأضافوا إليها البارود بعد واستطاعوا أن يصنعوا المدافع وأن يستعملوها فى محاربة النصارى

هذه هى قصة النار اليونانية وقصة الدور الذى لعبته فى حروب القرون الوسطى وقد رأيت انها كانت عاملا بعيد الأثر فى حماية الدولة الرومانية الشرقية من هجمات أعدائها ، ولا سيما العرب قروناً طويلة . بيد انا لانستطيع أن نقول ان الناراليونانية قد أحدثت فى فنون الحرب ثورة كبيرة كالتى أحدثها اختراع الديناميت . فالنار اليونانية على ما كانت تحدث من رائع التدمير واحراق المؤن والسفن لم تكن عظيمة الفتك بالصفوف والأرواح ولم تقض على أساليب الدفاع والحماية التى كانت تستمدها الصفوف من الصلب والحديد ، من الدروع والمناطق والخوذات وغيرها ، هذا إلى انها وجدت إلى جانب آلات أخر للحرب لاتقل عنها فتكا وروعة ، فقد لبث المنجنيق العربى عصوراً مديدة رعب المدن المحصورة ، ولبثت سهام العرب ونبالهم

زمناً فزع البيزنطيين وغيرهم من أمم النصرانية . أما الديناميت فهو وسيلة فذة للدمار وحصد الأرواح ، بل هو أروع وأشأم ما نكبت به الانسانية بأسرها

٢ ـ النار اليونانية فى معارك دمياط الصليبية

كما يصفها دى جوانفيل مؤرخ لويس التاسع

الحروب الصليبية فى معنى من المعانى صفحة من تاريخ مصر القومى ، وان كانت فى الواقع صفحة من تاريخ الاسلام العام ، فقد كانت مصر وولايات مصر مهبط الحملات الصليبية ، وكانت جيوش مصر أسبق الجيوش الاسلامية إلى رد الصليبيين ، وكانت أشدها وطأة عليهم وأثخاناً فيهم ، ولكن الحملة الصليبية السابعة أشد الحملات الصليبية ارتباطا بتاريخ مصر ، فقد قصدت إلى مصر مباشرة لتجعل منها ميداناً للحرب، وغنما للكنيسة. وجاء لويس التاسع على رأس فرسانه وجنوده فالتقى فى أراضى دمياط بالجيوش المصرية ، ولقى على يديها ما لقى من أسر ومحن

ولعل مذكرات دى جوانفيل المسماة تاريخ القديس لويس أنفس وثيقة افرنجية لتلك الحروب التى خضبت شمال مصر بالدماء حيناً . فقد كتبها شاهد عيان اشترك فى كل المواقع والحوادث ، وكان يشغل فى الجيش منصباً رفيعاً . ذلك هو الفارس جان دى جوانفيل ، الذى كان سيداً معروفاً فى بطانة لويس التاسع ، ثم صحبه على رأس فرسانه وجنده إلى مصر ثم غدا بعد وفاته من بطانة ولده لويس العاشر .

وقد كتب دى جوانفيل مذكراته بأمر ملكة فرنسا ، زوج لويس التاسع وكتبه لها خصيصاً ليدون فيه كل ما خاضه الملك القديس من وقائع ، وكل ما أثر عنه من خلال وآراء وميول . وهذا ما يقوله دى جوانفيل نفسه فى فاتحة كتابه غير ان هذه الناحية الأخيرة لا تعنينا هنا ، وانما نعنى بما كتبه دى جوانفيل

عن وقائع الحروب التى استعر لظاها بين المصريين والصليبيين فى الأراضى المصرية ففى ذلك كثير من التفاصيل والملاحظات الدقيقة التى قلما عنيت بها المصادر العربية. والذى يجعل لهذه الملاحظات قيمة كبيرة هو أن الذى دونها كما قلنا جندى عليم بفنون الحرب ، وشاهد عيان خاض غمار الوقائع بنفسه من البداية إلى النهاية

ومن أهم ما يلفت النظر فى رواية دى جوانفيل عن أهبة الجيوش المصرية وأساليبها فى الحرب يومئذ ما كتبه عن المقذوفات النارية التى عصفت بتحصينات الصليبيين وصفوفهم أيما عصف وكانت فى النهاية من أقوى أسباب هزيمتهم وارتدادهم . فهو يصفها وصفاً دقيقاً شائقاً ، ويصف ذعر مواطنيه من رؤيتها ، واضطرابهم واستغاثتهم ، ويسميها بالنار اليونانية. ولهذه التسمية أصل أو مغزى تاريخى إذ يلوح لنا أن هذه المقذوفات النارية التى استعملها المسلمون يومئذ فى محاربة أعدائهم هى نفس النار اليونانية القديمة أو النار البيزنطية التى لبثت كما قدمنا قروناً أمضى سلاح فى يد الدولة الرومانية الشرقية . وقد رأيت أنها اكتشفت فى عهد قسطنطين الرابع أعنى فى أواسط القرن السابع ، واستعملها البيزنطيون من ذلك الحين ، واستطاعوا أن يحتفظوا بسرها زهاء أربعة قرون ثم ظفر العرب بسرها فى أواخر القرن الحادى عشر وغدت منذ اكتشافهم لها سلاحاً هائلا فى أيديهم كما كانت سلاحاً هائلا فى يد أعدائهم، وكانت عاملا كبيراً فى تمزيق الصليبيين واحباط كثير من حملاتهم

وقد جاء الصليبيون إلى مياه مصر أيام الملك الصالح بن الكامل سنة ١٢٤٩م (٦٤٧ هـ) وعلى رأسهم ملك فرنسا لويس التاسع المعروف بالقديس لويس ، ومعهم دى جوانفيل على رأس فرسانه واتباعه ، وعسكروا بظاهر دمياط . وكتب لويس التاسع إلى الملك الصالح باسم الأمم النصرانية أن يسلم اليه مصر مهدداً بوفرة جموعه . وكان الملك الصالح يومئذ مريضاً فى القاهرة ، فكلف القاضى بهاء الدين زهير بكتابة رده المشهور ، وفيه يتحدى الصليبيين وينذرهم بالانتقام . وكان الملك الصالح حذراً على قدم الأهبة غير ان حامية دمياط لم تلبث ان هجرت المدينة

فاستولى عليها الصليبيون وأقاموا أمامها الأبراج لحمايتها من المسلمين الذين عسكروا في موقع المنصورة وحصنوه ، واقتصروا بادىء بدء على ازعاج الفرنج وتمزيق سرياتهم الباحثة عن الأقوات والمؤن .

***

وكانت النار اليونانية أول مفاجأة هائلة رمى بها المسلمون الصليبيين ، فانه ما كاد الاضطراب الناشىء عن وفاة الملك الصالح ينتهي حتى تقدم المصريون بجموعهم لقتال الفرنج . وكانت النار اليونانية في يد المسلمين إلى جانب المنجنيقات أروع آلة للتخريب والهدم ، وهنا ننقل عبارات دى جوانفيل نفسه في وصف ما استولى على مواطنيه من الذعر والخوف من جراء هذه النار

يقول المؤرخ : « في ذات ليلة ، بينما كنا نحرس الابراج ، حدث أن المسلمين أحضروا آلة لم يستعملوها من قبل ووضعوا النار اليونانية في قاذفة الآلة . فلما رأى سيدى والتر دوكيرى الفارس النبيل الذى كان إلى جانبي ذلك قال ما يأتى : أيها السادة نحن في خطر أعظم مما لقينا إلى اليوم لأنهم ان أضرموا النار في أبراجنا وبقينا فيها فانا نهلك ونحرق ، وإذا غادرنا الحصون التى انشأناها للدفاع خسرنا الشرف . وإذن فلا منقذ لنا إلا الله ، ورأيي أنه كلما رميت علينا النار رمينا أنفسنا على مرافقنا وركبنا ودعونا الله منقذنا أن يحمينا من ذلك الخطر ، وهكذا حدث فانه لما رميت علينا أول دفعة من النار سجدنا ودعونا فوقعت النار في البرج أمامنا وكان رجال المطافىء على أهبة لاخمادها .

« وصفة النار اليونانية أنها تثب مستقيمة كأنها اسطوانة كبيرة ولها ذيل من اللهب قدر الحربة الطويلة ودويها يشبه الرعد وكأنها جارح يشق الهواء ولها نور ساطع جداً من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء ، حتى انك ترى كل ما في المعسكر كما ترى في ضوء النهار . وقد رمى المسلمون علينا هذه النار في تلك الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة وأربع مرات من القوس العريضة

« وكان ملكنا القديس كلما سمعهم يقذفون النار اليونانية ينهض من فراشه ويبسط يديه إلى منقذنا ويقول باكيا : « أيها السيد الاله العظيم احفظ لى رجالى» والحق انى اعتقد ان هذه الدعوات قد نفعتنا وقت الشدة ، وكلما سقطت علينا النار بالليل أرسل أحد أمنائه ليرى ماذا فعلنا ، وماذا فعلت بنا النار

« وحدث ذات مرة عند القاء النار أنها سقطت عند البرج الذى يحرسه رجال السيد دى كورتنى فعندئذ جاء فارس يدعى لويجواز وقال لى : أيها السيد إذا لم تبادر إلى اسعافنا حرقنا فان المسلمين قد أرسلوا علينا كثيراً من المقذوف، حتى كانت النار تواجه برجنا كأنها سياج عريض فعندئذ هرولنا الى هنالك فوجدناه قال حقاً فأطفأنا النار ، وما كدنا ننتهى من ذلك حتى قذفنا المسلمون جميعاً بوابل من النار فى اتجاه النهر

« وكان اخوة الملك يحرسون الأبراج بالنهار فصعدوا إلى رؤوس الأبراج ليقذفوا المسلمين بالنبال ، ذلك لأن الملك قرر أن ملك صقلية يحرس الأبراج بالنهار ونحرسها نحن بالليل . فحدث ذات يوم حينما كان ملك صقلية يتولى الحراسة بالنهار على أن نتولاها نحن بالليل ان كنا فى أشد ألاضطراب لأن المسلمين كانوا قد حطموا أبراجنا تقريباً . وقد صف المسلمون القاذفات فى رابعة النهار فى حين انهم لم يستعملوها حتى اليوم إلا ليلا ثم قذفوا النار اليونانية على أبراجنا وقد نصبوا القاذفات قريباً من القنطرة التى كان يبنيها العمال حتى ان أحداً لم يجرؤ أن يذهب إلى الأبراج بسبب الأحجار الكبيرة التى كانت تقذفها الآلات والتى كانت تنهمر على القنطرة فكان ان حرق البرجان ، وان غضب ملك صقليه وتولاه اليأس حتى كاد يلقى نفسه فى النار ليحاول اطفاءها ولو كنا نحن نحرس الأبراج بالليل لكنا والله قد حرقنا جميعاً .

« فلما رأى الملك ذلك أرسل إلى جميع البارونات ورجا كلا منهم أن يحضر شيئاً من الخشب من مراكبه للمعاونة فى بناء برج يساعد على قطع النهر ، فأحضر

كل قدر ما يستطيع وانشىء البرج . كذلك قرر الملك ألا يدفع البرج إلى الأمام ليوضع على القنطرة إلا حينما يأتى دور ملك صقلية فى الحراسة حتى يستطيع بذلك أن يعوض عن خسارة الأبراج التى حرقت وقت حراسته وهكذا وقع ، فلما جاء دور ملك صقلية فى الحراسة أمر بالبرج أن يسير على القنطرة إلى المكان الذى حرقت فيه الأبراج الأخرى

« فلما رأى المسلمون ذلك نصبوا قاذفاتهم الستة عشرة بحيث تلقى مقذوفاتها جميعاً على القنطرة حيث وضع البرج ، ولما رأوا أن رجالنا يخشون الذهاب إلى البرج ارتياعاً من الحجارة التى تتساقط على القنطرة أحضروا قاذفات اللهب وقذفوا النار اليونانية على البرج ، وأحرقوه بتاتاً »

ثم يصف دى جوانفيل فى سياق المعارك القادمة التجاء المسلمين إلى النار اليونانية فى فرص عدة فيقول إن نيرانهم كانت ذات مرة تجوس خلال المعسكر النصرانى كله حتى إنها أصابت سرج الملك وانها كانت تنهمر على الفرسان أخرى بكثرة حتى خيل الينا أن نجوم السماء تتساقط علينا .

وكان المسلمون فى المشرق أعنى فى مصر والشام أول من ظفر بسر النار اليونانية وأول من حذق استعمالها من المسلمين ولكن سرها ما لبث ان ذاع فى الدول الاسلامية الأخرى فنرى بعض الدول الاسلامية فى تونس والمغرب تستعملها لرد غارات الفرنج ونرى الموحدين يستعملونها فى محاربة النصارى فى اسبانيا ، ثم تطورت كما قدمنا فى مملكة غرناطه ايام بنى الأحمر حتى اتخذت فى منتصف القرن الرابع عشر شكلا جديداً تمتزج فيه النار المقذوفة بانفجار رائع حتى لقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الديناميت عرف سره فى اسبانيا المسلمة قبل أن تعرفه أوربا

الفصل السابع

دى جوانفيل ومذكراته

صور نفيسة من تاريخ مصر أيام حملة لويس التاسع

— ١ —

أشرنا فى الفصل السادس إلى أن جان دى جوانفيل مستشار الملك لويس التاسع ومترجمه ، قد ترك مذكرات نفيسة لم يقتصر فيها على الالمام بسيرة مليكه المترجم فقط ، ولكنه دون فيها أخبار المعارك الصليبية التى وقعت فى مصر أثناء الحرب الصليبية السابعة (سنة ١٢٤٩ م) وتناول فوق ذلك بعض شئون مصر فى هذا العهد فوصفها وصفا دقيقا . وقد أوردنا ما كتبه هذا الراوية عن استعمال الجيوش المصرية فى هذا العهد للنار اليونانية وما أصاب مواطنيه لروعها وفتكها ، من ذعر وهزيمة . ولما كانت مذكرات دى جوانفيل هذه من أنفس وثائق الحروب الصليبية وكانت ذات قيمة خاصة بالنسبة لتاريخ مصر ، فقد رأينا أن نفرد هذا الفصل للكلام عن المؤرخ نفسه وعن المذكرات التى خلفها

ولد جوانفيل ، أو السيد جوانفيل ، حوالى سنة ١٢٢٤ م ، وصحب مليكه القديس لويس على رأس أتباعه من الفرسان والجند فى الحملة الصليبية السابعة التى غادرت المياه الفرنسية فى ٢٨ أغسطس سنة ١٢٤٨ . وكانت هذه الحملة من أعظم الحملات الصليبية ، وكانت فى الواقع فاتحة لفصل جديد من فصول هذه الحروب الدموية البربرية لأن المملكة اللاتينية التى أنشأها جودفروا دى بويون وسادته فى بيت المقدس لم يطل أجلها أكثر من ثمانين سنة، ثم انهارت تحت ضربات صلاح الدين

وجيوشه المصرية ، وعادت الأراضى المقدسة إلى قبضة الاسلام ، وارتد الصليبيون إلى قلاعهم على الساحل . وكان الصليبيون قد رأوا منذ سقوط مملكتهم فى بيت المقدس أن يحولوا ميدان الحرب إلى مصر ، ليحطموا تلك القوة التى أوقعت بحملاتهم وأفسدت تدابيرهم ، فنزلوا مصر لأول مرة أيام الملك الكامل واستولوا على دمياط (٦١٦ هـ) ولكن سرعان ما ارتدوا منهزمين ولبثت مصر آمنة مطمئنة نحو ثلث قرن حتى حشد لويس التاسع حملته الكبرى . فكان على هذه الحملة أن تعيد سيرة الحروب الصليبية من مبدئها ، وأن تفتح الأماكن المقدسة من جديد، فقصدت مصر توا ، ونزلت فى ظاهر دمياط واستولت عليها ثانية ، ولكنها كسرت أيضاً وردت بعد معارك طاحنة . وكان ذلك أيام الملك الصالح . وحارب دى جوانفيل إلى جانب مليكه ، وشهد محنته وأسره ، ثم اطلاقه وعوده . وعاد إلى فرنسا فى شهر يوليه سنة ١٢٥٤ أى لستة أعوام من سفره

ويقول دى جوانفيل أنه انتهى من كتابة مذكراته فى شهر اكتوبر سنة ١٣٠٩ أعنى وهو شيخ يربى على الخامسة والثمانين ، وبعد أن مضى أكثر من نصف قرن على الحوادث التى تناولها . وكان تدوينه لها إجابة لطلب جان دى نافار ملكة فرنسا والدة لويس العاشر . وهذا مايذكره فى مستهل كتابه إذ يقول : « إلى سيده النبيل لويس (لويس العاشر فيما بعد) ولد ملك فرنسا (فيليب الجميل) وبحول الله ، ملك نافار وكونت شامبانيا وبرى ، يقدم السيد دى جوانفيل كبير حجابه ، التحية والمحبة والشرف ، والخدمة الصادقة . . مولاى العزيز — أحيطك علماً بأن سيدتنا الملكة ، والدتك ، التى أغدقت حبها على — أسكنها الله فسيح عفوه — قد شددت على الرجاء أن أكتب لها كتابا يحتوى على كلمات مليكنا القديس لويس المقدسة وأعماله الطيبة ، فأذعنت للرجاء ، وقد تم الكتاب بحول الله»

وقد خصص الراوية أول القسمين لسيرة القديس لويس الشخصية ، وعاداته ، وأحواله ، ومناقبه . وفى هذا القسم يصور دى جوانفيل مليكه وقائده لويس التاسع

ملكا ورعا ، يفيض قلبه إيمانا وحنانا ورقة ، ويرى فيه مثلا أعلى لرجولة النصرانية ويعرب عن محبته وإجلاله لهذا الصديق الذى خاض إلى جانبه جسام الحوادث وشاء القدر أن يموت قبله بأعوام طويلة، ثم يرتد ببصره إلى الماضى البعيد فيذكر أيام الصبا الحافلة ، ويستعيد شبح القديس لويس وهو ملتحف بدرعه ، غارق فى عدته وأسلحته ، يركض بين الصفوف هنا وهنالك ليشحذ من عزائم فرسانه، ويكبر شجاعته واقدامه، وصبره على المحن والنوائب ، وجلده أوقات الشدة ، ويعدد خلاله من محبة لجنده، ورفق بهم ، إلى رعاية للعهود ، وصلابة فى الحق. على أن المؤرخ لم يحمل باجلاله ومحبته إلى الاغضاء المطلق عن كل تجريح ونقد ، فهو ينقد حيث يرى موضعاً لذلك ، ويعرض رأيه وحكمه الخاص ، فنراه مثلا يأخذ على الملك القديس قبوله لفرسين نادرين أهداهما إليه قسيس كلونى تمهيداً لحديث بينهما عن مسائل معينة ولا يتردد فى سؤال الملك عما إذا كانت هذه الهدية قد حملته على التساهل مع القسيس . وتراه يذهب فى تقريع الملك إلى أبعد من هذا الحد فيعرب عن دهشته وكدره لجمود الملك إزاء زوجه وأولاده فيقول مثلا ان الملكة سافرت بحراً من يافا لموافاة الملك فى « مسيات » ، فذهب ، أى دى جوانفيل ، لمقابلتها عند وصولها، وصحبها إلى قصر الملك ، ثم نبأ الملك بوصولها وكان وقتئذ فى مصلاه ، وكان يعلم أين ذهب دى جوانفيل ولم يستقبله ، وقد تعمد أن يطيل الوعظ حتى عودته ، وكان كل مافعله أن سأله عن صحة زوجه وأولاده . وهنا يقول دى جوانفيل. «وأنا أقص عليك هذه الأمور لانى كنت قد أنفقت فى صحبته خمسة أعوام لم يخاطبنى خلالها قط بكلمة عن الملكة أو عن أولاده ، ولم يخاطب فى ذلك أحداً قط على ما أعلم . ويلوح لى من ذلك أنه ليس من حسن الخلال أن يكون المرء غريباً إلى هذا الحد بالنسبة لزوجه وأولاده» ويحق للمؤرخ أن يسوق هذا اللوم إلى مليكه . فقد كانت مرجريت ده بروفانس زوج الملك القديس مثالا بديعاً للمرأة أو للملكة، بل كانت تتميز بلون من ألوان البطولة إذا صدقنا مايرويه المؤرخ عنها . فهى قد صحبت زوجها

فى حملته إلى ميدان الوغى والى بلاد الغربة ، وتحملت متاعب السفرالتى كانت هائلة فى ذلك العصر ، وصبرت على ضروب الحرمان والتقشف التى فرضتها الحوادث . فلمانكب زوجها وسقط معسواد أجناده أسيراً فى يد العدو ، وكانت يومئذ محصورة فى دمياط تقاسى آلام الوضع الأخيرة استدعت إلى حجرتها فارساً شيخاً وطلبت إليه أن يعاهدها أن يقطع رأسها فى الحال إذا سقطت المدينة المحصورة فى قبضة المسلمين فأقسم لها أن يفعل . ثم لم يمض على وضعها يوم واحد ، حتى استدعت الفرسان حول فراشها — وكانت إشاعة التسليم قد سرت إلى الحامية — فالتمست إلى تشجيعهم شفاعة من ضعف ولدها الطفل ومن أنوثتها . وأمثال هذه المناظر قليلة فى التاريخ ، بيد أننا نفسر موقف لويس التاسع إزاء هذه الملكة الباسلة بأنه حذر من أن يتأثر فى أعماله السياسية والحربية بنفوذ زوجه ، ذلك لان مرجريت ده بروفانس كانت قوية الارادة ذات أطماع ونفوذ

ولايقف دى جوانفيل عند هذا الحدمن الملاحظة والنقد ، فهو يأبى أن يقر تصرفات مليكه فى بعض المواطن — وقد كان له مشيراً وناصحاً — فنراه مثلا يقف موقف المعارض حينما اعتزم لويس التاسع أن يجرد حملته الصليبية الثانية فى سنة ١٢٧٠ م أعنى لخمسة عشر عاما من عودته إلى فرنسا وقد كان يومئذ كهلا هدمه الاعياء والمرض ونراه فوق ذلك يحاول أن يرد الملك عن عزمه ، ويبين له اخطاء هذه السياسة وما قد تجر عليه وعلى فرنسا من الويل والمصائب ويقول : « لقد اعتقدت أن أولئك الذين نصحوا اليه بهذه الحملة قد ارتكبوا خطيئة كبرى » ثم يحمد الله على أنه لم يصحبه اليها . وقد أيدت الحوادث نبوءة دى جوانفيل ،إذ انحرف لويس التاسع عن خطته الأصلية ، ونزل على ساحل تونس وكان هنالك مصرعه ومصرع سواد جيشه .

ولسنا نعنى بهذا القسم الذى يفرده دى جوانفيل لشخص مليكه القديس ومناقبه قدر مانعنى بالقسم الثانى وهو الذى يأتى فيه المؤرخ على الحوادث والمعارك التى اقترنت

بحملة لويس التاسع على مصر والأراضى المقدسة، ففى هذا القسم يعرض دى جوانفيل لصفحة تكاد تكون قطعة من تاريخ مصر، ويسرد بتفصيل وإسهاب كل ما شهد من الحوادث مذ هبط الصليبيون أرض مصر، وحاصروا دمياط حتى جلوا عنها وعن أرض مصر بعد هزيمتهم . ولرواية دى جوانفيل فى هذا القسم قيمة خاصة ، فهو لم يكن فقط شاهد عيان لكل ما رأى ودون من الحوادث ولكنه قام بدور فعلى فى هذه الحوادث كلها ، فخاض غمار المعارك التى نشبت حول دمياط وفى أراضى المنصورة من أولها إلى آخرها ، وكان رغم حداثته يشغل منصباً رفيعاً فى الجيش إذ كان من سادته وفرسانه ، ثم ان اتصاله فى كل لحظة بمليكه الذى كان يسأله الرأى فى كثير من الأمور الهامة يجعل لروايته صبغة شبه رسمية ، على الأقل فيما يتعلق بالجانب الفرنسى من الحوادث التى تناولها . ويتناول دى جوانفيل هذه الحوادث بوضوح ودقة وقوة ملاحظة تدعو إلى الاعجاب . ولنا أن نعجب بصفة خاصة بما كتبه عن انقلابات مصر السياسية فى هذا الحين ، فهو يسردها بدقة، رغم كونها وقعت فى بلد محارب و بين صفوف الأعداء ، فيروى أولا ما حدث عقب وفاة الملك الصالح ، حينما هبط الصليبيون أرض مصر . وقد كان الملك الصالح مريضاً فى القاهرة ، فلم يلبث أن توفى بعد استيلاء الفرنج على دمياط بقليل . يقول دى جوانفيل : « وكان للسلطان — ويسميه «السادان» — ولد فى الخامسة والعشرين من عمره ، عاقل ، حازم ، ذو دهاء ، وكان السلطان المتوفى يخشى أن ينزعه ابنه الملك ، فأقطعه مملكة له فى الشرق (سوريا) ، فلما توفى السلطان أرسل الأمراء إلى الابن، فجاء سريعاً إلى مصر ، وعزل حاجب أبيه ، وكبير حرسه وقائده ، وعين مكانهم رجالا ممن أتوا معه من المشرق ، فلما رأى هؤلاء ذلك نقموا منه غاية النقمة ، كما نقم منه وزراء أبيه ، وشعروا أن خزيا كبيراً لحق بهم ، ففاوضوا رجال « الحلقة » أوحرس السلطان ، واتفق هؤلاء أن يقتلوا السلطان إجابة لطلبهم » ويسوق دى جوانفيل تتمة هذا الحديث فى مكان آخر فيقول : « اجتمع الأمراء الذين عزلهم السلطان من

مجلسه ليعين غيرهم من أمرائه الذين جاءوا من الخارج ، وتباحثوا ، وطلبوا إلى زعماء الحلقة أن يقتلوا السلطان عقب تناولهم الطعام معه ، وكان قد دعاهم إلى ذلك. فحدث انه لما فرغ الأمراء من تناول الطعام ، واستأذن السلطان فى الانصراف ، ان فارساً من رجال الحلقة ضرب السلطان بالسيف فأصابه فى راحته بين أصابعه وشق يده أحتى الذراع . فالتفت السلطان إلى الأمراء الذين دبروا ذلك وقال : « أيها السادة تشكو اليكم هؤلاء الحلقة الذين يريدون قتلى كما ترون » فأجاب الحلقة : «مادمت قول أننا نرغب فى قتلك ، فخير لنا أن نقتلك مما لو قتلتنا أنت ! » . ثم قرعت الطبول ، فهرع الجيش كله ليرى ماذا يريده السلطان . فأجابوهم أن دمياط قد سقطت (وكان السلطان يعسكر يومئذ بظاهر دمياط) وان السلطان ذاهب اليها وقد أمرهم أن يتبعوه ، فتقلد الجند أسلحتهم وساروا فى اتجاه دمياط فلما رأينا نحن ذلك فزعت قلوبنا (وكان المؤرخ أسيراً وقتئذ مع الملك ونفر من سادة الفرنج وفرسانهم) واعتقدنا أن دمياط قد ضاعت . أما السلطان ، فكان فتى ، وكان خفيف الحركة ففر إلى البرج المقام وراء روشنه مع ثلاثة من شيوخه كانوا إلى جانبه واحتمى معهم بالبرج . أما الحلقة وعددهم نحو خمسمائة فارس فنزعوا مضارب السلطان واحتشدوا حول البرج وحاصروه ومن معه ، وصاحوا عليه بالنزول ، فأجابهم انه يفعل اذا وعدوه الامان ، فألقوا عليه النار اليونانية ، فعلقت بالبرج ، فشبت النار فيه بسرعة . فلما رأى السلطان ذلك نزل من البرج برشاقة ، وركض تجاه النهر ، فلقيه أحد الحلقة فطعنه بحربته فى ضلوعه ، ولكنه استمر يركض تجاه النهر ودماؤه تقطر ، فتبعوه فى الماء وعاموا وراءه حتى ظفروا به وقتلوه بالقرب من السفينة التى كنا فيها . ومزقه فارس يدعى فارس الدين آقطاى بسيفه واستخرج قلبه من جثته وجاء إلى الملك (لويس التاسع) والدماء تقطر من يده وقال له : ماذا تعطينى ؟ فقد قتلت عدوك الذى لو عاش لذبحك : — فلم يجبه الملك ببنت شفة »

ويشير دى جوانفيل فى الفقرة الأولى إلى تولية الملك المعظم غياث الدين

ولد الملك الصالح وكانت توليته بسعى أمه شجرة الدر . وكان الأمراء قد كتموا موت الملك الصالح وأرسلوا فى استدعائه من سوريا على عجل . ويشير فى الفقرة الثانية إلى ما فعله الملك المعظم من عزل الأمراء والحكام المصريين واستبدالهم بنفر ممن جاءوا معه ، وائتمار المماليك به ، وعلى رأسهم بيبرس الذى تولى ملك مصر بعد ، وقتلهم إياه فى النهر كما تقدم ، وانقراض دولة بنى أيوب بذلك ، وقيام دولة المماليك الأولى .

وترى مثل هذه الدقة ظاهراً فى كل ما يسرده دى جوانفيل من حوادث الحرب أو السياسة سواء فى المعسكر الفرنجى أو المعسكر الاسلامى ، وتعليل ذلك واضح وهو أن مركز دى جوانفيل فى الجيش واتصاله بالملك لويس التاسع كانا يسهلان عليه الاطلاع على التقارير التى يضعها الجواسيس الفرنج عن أحوال المسلمين وأخبارهم . ثم إن دى جوانفيل كان شاهد عيان لمقتل السلطان المعظم كما رأيت ، وكان معه من مواطنيه الأسرى من يفهم العربية

هذا ، وللمؤرخ مواقف أخرى تستوقف النظر مثل وصفه الدقيق للنار اليونانية وبراعة المسلمين فى استعمالها ، ووصفه أحوال البدو ، والحلقة أو حرس السلطان ونظام الحكم والامارة فى مصر ، وذكره سفارة شيخ الاسماعيلية فى بانياس إلى لويس التاسع وهو فى مصر وسفارة لويس اليه . وهو فى كل ذلك عميق البحث والاستقصاء ، دقيق الملاحظة والمنطق ، هادىء الرواية والاسلوب . ومن ثم كانت مذكراته أقرب إلى التاريخ الصحيح منها إلى « الرواية » وكانت وثيقة قيمة فى تاريخ الحملة الصليبية التى قادها القديس لويس إلى مصر ، وفى تاريخ مصر ذاته فى هذا العهد

٢ ــ محنة القديس لويس فى مصر

ومن الحوادث الفريدة فى تاريخ الحروب الصليبية أسر لويس التاسع أو القديس لويس ملك فرنسا فى مصر وهو من الحوادث الفريدة أيضاً فى جميع أدوار المعركة الكبرى التى استعر لظاها قروناً بين الاسلام والنصرانية ، من المشرق إلى اسبانيا .

وقد يقدم الينا تاريخ الأندلس فى أكثر من فرصة قصة أمير نصرانى يقع فى اسر المسلمين ، أو أميرمسلم يقع فى أسر النصارى ، ولكن هؤلاءجميعاً كانوا من الأمراء المحليين ، كذلك لعل معركة الاسلام والنصرانية لم تشهد منذ بلاط الشهداء ، ومنذ الزلاقة ، موقعة أعظم فى حوادثها وآثارها من تلك التى هلكت فيها زهرة الجيش الفرنسى فى سهول مصر ، وأسر فيها الملك القديس

وهى الحملة الصليبية التى وصلت إلى مصر سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) فى عهد الملك الصالح كما تقدم . وهى أحق هذه الحملات الشائنة بأن توصف بالصليبية ، فان لويس الناسع لم يفد بجيوشه على المشرق غازيا ليبحث وراء السلطان ومغانم الظفر ولم تحفزه اطماع هذه الدنيا ، كما حملت قبله أمراء النصرانية وفرسانها ، فهرعوا إلى المشرق وثغوره الغنية ليملأوا أيديهم من الأموال والسبى ، وليستقروا ملوكا فى مروجه اليانعة ، ولكنه قدم إلى المشرق مغامراً بنفسه وجيوشه ، فى سبيل الدين قبل كل شىء ، وليعمل على اعلاء كلمة النصرانية ، وانقاذ الأراضى المقدسة . ولم يكن فوق ذلك آلة تحركها الكنيسة كاسلافه من الأمراء الصليبيين ولكنه كان يسترشد بوحى نفسه ، وتسيره عواطفه المضطرمة شغفاً بالدين وقضيته ، وان لم يكن فى سياسته سوى معبر عن مقاصد الكنيسة ، منفذ لمشاريعها .

كان لويس التاسع يمثل فى سياسته وأعماله روح العصر الذى كانت فيه المعارك تضطرم من كل صوب بين النصرانية وأعدائها . وكانت المعارك الصليبية لا تنفك ناشبة بين الاسلام والنصرانية فى اسبانيا ، كما كانت تنشب بين النصرانية والخارجين عليها ، مثل الألبيين والكاتار ، وغيرهم من فرق الملاحدة

جاء لويس التاسع على رأس فرسانه وجنوده فى جيش ضخم ، إلى مياه مصر ونزل بظاهر دمياط كما قدمنا وكتب إلى ملك مصر باسم الأمم النصرانية أن يسلم اليه مصر مهدداً منذراً ، فرد عليه ملك مصر وعيده وتحديه .

وكانت شئون مصر يومئذ مما يشجع العدو المغير ، فقد توفى الملك الصالح بعد

قدوم الصليبيين بقليل ، واشتغل رجال القصر حينا بوحى شجرة الدر باستقدام ولدها توران شاه من الشام ليتولى الملك . وفى أثناء ذلك سار الصليبيون من دمياط صوب الجنوب نهرا ، وبرا ، واشتبكوا مع المسلمين فى المنصورة فى مواقع شديدة كانت الدائرة فيها على النصارى ، وكان الملك الجديد قد وصل بجموعه من الشام فاشتد ساعد المسلمين . وهنا ألفى لويس التاسع جيشه فى مأزق ، فان الوهن والمرض والجوع أخذت تفعل فيه فعلها . فتشاور أمراء الفرنج فيما بينهم ، وقرروا مفاوضة المسلمين فى الانسحاب من دمياط على أن يترك لهم بيت المقدس . فرضى المسلمون ، ولكنهم اشترطوا أن يسلم إليهم ملك النصارى نفسه رهينة حتى يتم الجلاء ، فأبى الفرنج وعرضوا أن يسلموا أخا للملك فقط ، وأصر كل فريق على رأيه ، وانقطعت المفاوضات بذلك ، وكان النصارى فى الواقع فى مأزق شديد الحرج ، ولم يخف على المسلمين أن ساعة النصر قد أزفت .

ولما رأى لويس التاسع ان فرسانه وجنده يتساقطون من حوله تباعا ، قرر الارتداد شمالا إلى دمياط ، وحدد لذلك مساء يوم الثلاثاء ٥ ابريل سنة ١٢٥٠ (٢ محرم ٦٤٨ هـ) ولكن المسلمين كانوا على قدم الأهبة ، وكانت سفنهم وسراياهم قد نفذت شمالا فى النهر ، وحول ضفافه ، واحتاطت بمعسكر الفرنج من جهات عدة ولذا ما كاد الفرنج يرتدون بسفنهم وجموعهم قليلا نحو الشمال الشرقى حتى لحقوا بهم وكانت الواقعة المشهورة فى تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة ، وقتل منهم آلاف عدة ، وأسر ملكهم لويس التاسع أو «رى افرنس» (١) كما يسميه مؤرخو العرب .

* * *

وقد دون ده جوانفيل مؤرخ لويس التاسع ، كما رأيت هذه الحوادث العظام التى شهدها واشترك فيها بدقة واسهاب ، وعنى بالأخص بأن يفصل كيف سقط مليكه

---

(١) ظاهر أنها الفرنسية القديمة « روى ده فرانس » Roy de France أو ملك فرنسا

القديس أسيراً فى يد المسلمين ، وهو ماقصه عليه لويس التاسع نفسه كما يشير إلى ذلك فى سياق حديثه .

يقول المؤرخ : « لقد قص الملك على كيف غادر فرقته الخاصة ، وانتظم إلى جانب سيدى جوفرى دى سارجين ، فى الفرقة التى يقودها سيدى جوشيه ده شاتيون قائد المؤخرة

«ثم قص الملك على أنه كان يمتطى مهراً صغيراً يكسوه الديباج ، ونبأنى بأنه لم يكن يسير إلى جانبه فى الوراء من بين جميع فرسانه سوى سيدى جوفرى دى سارجين، فسار به إلى قرية صغيرة، وهى التى أسر فيها . ونبأنى الملك أن السيد جوفرى دافع عنه أمام المسلمين دفاعا باسلا ، وكلما اقتربوا منه رفع سيفه، وكر عليهم، وردهم عند الملك

« وهكذا وصل الملك إلى القرية الصغيرة ، فحمل إلى منزل ، وهو فى شدة من المرض كأنه رجل ميت ، وهنالك وافاه السيد فيليب ده مونفور ؛ وقال له إنه رأى الأمير المسلم الذى فاوضه فى شروط الهدنة، فاذا شاء عاد إليه ليستأنف المفاوضات فى عقدها طبقا للشروط التى يريدها المسلمون ، فرجاه الملك أن يفعل فأجابه انه على تمام الأهبة ، وذهب السيد ده مونفور إلى الأمير فرفع الأمير عمامته ، وخلع خاتمه من أصبعه اشارة بأنه سوف ينفذ شروط الهدنة باخلاص

« وفى أثناء ذلك وقع خطب عظيم لرجالنا . فان ضابطا خائناً يدعى مارسل أخذ يصيح برجالنا : « سلموا أيها السادة الفرسان ، فان الملك يأمركم بذلك ، ولا تمتنعوا فيقتل الملك ! » فظن الجميع أن الملك يأمر بذلك حقا ، فسلموا سيوفهم إلى المسلمين . ولما رأى الأمير أن المسلمين يأتون برجالنا أسرى ، قال للسيد ده مونفور: إنه لايرى محلا لعقد الهدنة لان جميع فرساننا قد غدوا أسرى .

« وهكذا حدث أن السيد فيليب ده مونفور بقى حراً طليقا بينما أسر كل زملائه لأنه كان سفير الملك . ولكن توجد ثمة عادة سيئة فى تلك البلاد، وهى أنه إذا أرسل الملك رسلا إلى السلطان ، أو السلطان رسلا إلى الملك ، ومات الملك أو

السلطان قبل أن يعود الرسل إلى مقرهم ، فانهم يغدون عبيدا أو أسرى سواء كانوا مسلمين أو نصارى »

وكانت القرية التي فر اليها لويس التاسع وسادته قبل أن يقعوا فى الأسر ، تعرف بمنية أبي عبد الله . ونحن نعرف من الرواية العربية أن لويس التاسع أخذ بعد ذلك إلى المنصورة ، وسجن فى الدار المعروفة بدار فخر الدين بن لقمان ، ووكل به الخادم صبيح المعظمى ، ثم أخذ بعد إلى معسكر المسلمين . وكان حرس السلطان توارن شاه قد ائتمروا به أثناء ذلك ، ثم قتلوه على مقربة من المكان الذى اعتقل فيه ملك الفرنج وسادته . ويروى ده جوا نفيل كما قدمنا أن أحد زعماء الحرس السلطانى وهو فارس يدعى فارس الدين أقطاى ، استخرج قلب السلطان من جثته ، وحمله إلى الملك لويس التاسع والدماء تقطر من يده ، وقال له « ماذا تهبنى ؟ لقد قتلت عدوك ، ولو عاش لذبحك » وأن لويس التاسع لم يجبه بشىء . ويروى فوق ذلك ، أن زعماء المسلمين أوفدوا إلى الملك الأسير يعرضون عليه عرش مصر ! وأن لويس التاسع أفضى إلى المؤرخ ، أنه ما كان يأبى هذه المنحة لولا محنته . وهو ما نعتبره نحن أسطورة فقط . أما الذى لا ريب فيه فهو أن الملك القديس لبث فى أسره ، حتى أذعن لكل شروط المسلمين ، وأهمها الجلاء عن كافة الأراضى المصرية ، ودفع فدية كبيرة ، ولم يطلق سراحه إلا فى منتصف مايو سنة ١٢٥٠ بعد أن حملت الفدية واستعاد المسلمون دمياط أى بعد زهاء ستة أسابيع من الأسر ثم ركب البحر بفلوله إلى عكا . ولجمال الدين بن مطروح نائب دمشق فى تلك الواقعة أنشودة خالدة يقول فيها :

قل للفرنسيس [١] إذا ما جئته	مقال صدق عن قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر بالطبل ريح

(١) يقصد القديس لويس ذاته

فساقك الحين إلى أدهم ضاق به ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم بسوء تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح
فقل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثار أو لقصد قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

ويبالغ الرواة العرب فى تقدير خسائر الفرنج فى تلك الموقعة ، فيقدرها بعضهم ثلاثين ألفاً ويقدرها الشاعر كما ترى بخمسين ألفاً . ومن المحقق أن خسائر الفرنج كانت فادحة سواء أثناء الموقعة أو قبلها مما أصابهم من ويلات الجوع والمرض ، ولكن لا ريب أيضاً فى أن الرواية المسلمة إذا تعلق الأمر بهزيمة النصارى، أو الرواية النصرانية إذا تعلق الأمر بهزيمة المسلمين تحاول دائما ، فى أمثال هذه الوقائع الحاسمة بين الاسلام والنصرانيــة ، أن تسبغ على الوقائع والنتائج لونا عميقا من الخطورة والظفر الخارق .

الفصل الثامن

الرق فى العصور الوسطى

لمحة من أحكامه وأطواره فى الدول الاسلامية

اشتقت شرعة الرق من عرف الحروب القديم أكثر مما اشتقت من أى مصدر آخر (١) وهو عرف يقضى بأن الغالب يصبح سيداً مشروعاً للعدو الذى قهره وأبقى على حياته . وقد أعارت حروب الدول البربرية التى اقتسمت ملك رومة هذا العرف قوة وشدة ، فكان الظافر قوطياً كان أو بورجونيا أو فرنجياً يتبع ركب اسلابه بصف طويل من الأسرى الذين غدوا بأحكام الحرب رقيقاً وملكا خالصاً له يتصرف فيه كما يتصرف فى أية سلعة ، وكان الفتية والفتيات ذوو الحسن والرشاقة يلحقون بالاعمال المنزلية حيث يشغلون مراكز مريبة تعرضهم تباعا للحظوة أو النقمة أو نزعات الاهواء المتباينة ، أما أصحاب الفنون والحرف المختلفة فيزاولون فنهم أو حرفتهم لمصلحة سيدهم ، بيد أن الأمراء البربريين كانوا يشذون فى معاملة الرقيق من الرومان فيقضون عليهم، دون مراعاة لمقامهم، بزرع الحقول وتعهد الماشية . وكان للسيد حق الموت والحياة على رقيقه . وكان الرقيق فى هذه الدول البربرية يزداد عدده كل يوم بما يغذيه من حروب وموارد جديدة ، وكذا يشتد عسف الامراء والسادة بالجماعة المستعبدة . فلما تضاءلت شوكة هذه الدول وخبا ظمأ الفتح

---

(١) يلاحظ أن للرق فى العصور القديمة مصادر أخرى غير الحرب منها بيع الآباء لاطفالهم وخطف الاشخاص وقد كان ذائعا بين الممالك البحرية ، ثم بعض الاحكام الجنائية فى الشرائع القديمة وكانت تعاقب بالرق على جرائم معينة

والحرب نوعا ، نقص الرقيق فى العدد وخفت وطأة العسف به أيام الدول الفرنجية التى خلفت الدول البربريه فى غاليس (جول) ولومبارديا ، واستمر هذا النقص فى العدد والتضاؤل فى الشدة حتى غدا الرق منذ القرن التاسع أضيق حدودا وغدا الرقيق أحسن أحوالا ، وتطور النظام إلى صبغة جديدة اندمجت فى كل المجتمعات الاقطاعية مدى العصور الوسطى

استمر الأسر فى الحرب أظهر شكل للرق خصوصاً إذا كان الأسير ينتمى إلى جنس آخر ، ولكن اعتبار الحياة البشرية والحقوق الانسانية ارتفع معياره نوعا . وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى أثر التعاليم والتقاليد النصرانية واشتداد أثرها وهيبتها فى نفوس القادة والأمراء والسادة . وملخص أحكام الرق فى هاتيك العصور هو ان العبد متاع للسيد أيضاً ، وعنصر الرق هو ان العبد وان لم يكن يجوز بيعه مستقلا عن الضيعة التى ألحق بها لا يستطيع أن يفارق هذه الضيعة ، فهو ملحق بالارض ينتقل معها إلى المالك الجديد . على انه لم يكن وقتئذ يعتبر واحداً من قطيع من العبيد يعمل تحت اشراف عريف من عرفاء المالك كما كان يعتبر أيام الفرنج ، بل يقطع قطعة معينة من الأرض يعيش فيها ، ويدفع إلى السيد مقابل ذلك ريعاً سنوياً فى شكل نسبة كبيرة من محصول أرضه ، ويحتفظ هو بملكية ما يبقى . فاذا فر العبد من الضيعة كان للسيد أن يسترجعه بالقوة وإذا لم يوجد عادت أرضه الى المالك . ثم حصل الرقيق شيئاً فشيئاً على حقوق جديدة منها الميراث من طريق الأب ، والزواج . وكان زواج الرقيق بادىء بدء عملا غامضاً ليست له أحكام معينة ولذا كان نسلهم غير معترف به فلا يقر نسب الأولاد إلى آبائهم ، ولكن الفضل يرجع إلى تدخل الكنيسة أيضاً فى ازالة هذا الحيف . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر اعترف للرقيق بحق الزواج الصحيح واعترف بنسب الاولاد للآباء ، ومن ثم استقر حقهم فى ميراث الأرض المقطوعة . بيد ان احوالا استثنائية كانت تترتب على زواج الرقيق ، فاذا تزوج عبد مثلا من جارية سيد آخر تبعته بحكم الزواج

إلى ضيعتة لتعيش معه ، وبذلك يخسر سيدها خدماتها ، وتكون الخسارة أبلغ إذا لحق بها أطفالها أيضاً وهو الأغلب . وكانت هذه المشكلة وأمثالها تحل بحلول كثيرة ، إذ يعوض سيد الجارية مثلا بثمن نقدى ، أو ينتظر حتى يتزوج أحد عبيده من إحدى جوارى سيد الضيعة التى التحقت بها جاريته وبذلك يعوض بمثلها . أما الأولاد فيقسمون بين السيدين طبقاً لشروط معينة . وكان أظهر فارق بين الحر والعبد فى الحقوق المدنية فى هذه العصور هو قصور العبد عن تولى الخدمة القضائية بمعنى انه لا يمكن أن يعين قاضياً أو يقبل أمام القضاء كشاهد . وهذا القصور نتيجة لقصوره عن القتال ، ومن عرف العصور الوسطى انه لا يصلح لتفسير ارادة الله كما هى ظاهرة فى الاحكام القضائية إلا من كان أهلا لحمل السلاح .

*
* *

هذا ولعل أحكام الرق فى الاسلام هى أدق وأمتن قانون وضع لمعالجة هذه الرذيلة الاجتماعية التى قد لا تبررها حتى ظروف العصور التى شرعت فيها ، ولكن الرق كما هو مشهور من ظواهر أعرق المدنيات وأقدمها ، وكان من المتعذر بل من المستحيل أن يتجرد الاسلام فى هاتيك العصور لهدم نظام يتغلغل فى هيكل المجتمع حتى أعماقه ، وتحتم حالة الحروب وتنازع البقاء الروحى أو المادى أن يكون له نصيب فى نظم الدولة والحياة الخاصة . على ان الرق الذى شرعته المجتمعات الغربية فى العصور الوسطى والذى قدمنا لمحة من أحكامه لم يكن معروفاً فى الاسلام بمعناه الذى تقدم ، فالاسلام لم يعرف من الرقيق سوى نوع واحد هو رقيق الحروب .وملخص أحكام الشريعة الاسلامية فى ذلك هو ان من أسر من غير المسلمين نوعان ، نوع يكون رقيقاً بمجرد السبى أو الأسر ويكون كسائر مفردات الغنائم فى القسمة والتصرف وأولئك هم النساء والصبية والعبيد ونوع لا يعتبر رقيقاً بمجرد السبى وانما يرق بالاختيار وهم الرجال الاحرار ، وهؤلاء يخير فى مصيرهم الامام أو أمير الجيش فاما القتل أو الاسترقاق أو المن عليهم بتخلية سبيلهم أو افتدائهم بالمال أو بالرجال أعنى استبدالهم

بأسرى من المسلمين تحت يد العدو، ويراعى فى هذا الاستبدال ظروف الحال ومركز الاشخاص، وأن أسلم أسير مكلف لم يقرر الامام أو القائد مصيره قبل اسلامه عصم الاسلام دمه وبقى للامام ان يقرر مصيره فيما بقى من الاحكام، ومن أسلم قبل أسره عصمه الاسلام من كل شىء، وحقن دمه وصان ماله وحريته وصغاره

هذه هى أحكام الرق فى الاسلام، وهى كما ترى تحصره فى أضيق الحدود التى تسمح بها ظروف هاتيك العصور. على انك تشعر من مراجعة بعض الأحكام الاسلامية الأخرى أن الرق فى ذاته كان شرعة مكروهة فالنبي العربى يحض فى كثير من احاديثه على عتق الرقيق (تحريره) ويقع هذا العتق باللفظ دون أى اجراء آخر بل لقد شرع عتق الرقيق فدية لكثير من الذنوب الروحية كالافطار العمد مثلاً. وكان العتق يعتبر فى المجتمع الاسلامى من أعظم الفضائل. هذا إلى أن الرقيق فى كثير من الدول والمجتمعات الاسلامية لم يذق من عسف السادة شطراً مما عانى فى المجتمعات الغربية، بل كانت الحسنى قاعدة عامة فى معاملتهم، وفى كثير من أحكام الشريعة التفصيلية تكليف بالرفق بهم وحض على الاشفاق عليهم، وكثيراً ما اعتبروا من أفراد الأسرة التى يلحقون بها. هذا ويجب ألا ننسى الاشارة هنا إلى نوع معين من الرقيق كان له فى دول الخلفاء وقصورهم شأن يذكر ونعنى بذلك الصقالبة الذين كانت تغص بهم قصور الخلفاء والأمراء منذ القرن الثامن، وقد كانت كلمة الصقالبة تطلق فى الأصل على الأسرى الذين يأسرهم الألمان والبيزنطيون والفرنج من الأمم السلافية ويبيعونهم للعرب، بيد انها غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يخدمون فى القصر وفى الجيش مهما كانت جنسيتهم. وقد نشطت أسواق الرقيق من الصقالبة فى المشرق منذ أيام الرشيد أى منذ ان كثرت غزوات الدولة العباسية لأراضى الدولة البيزنطية. وبلغ هذا النشاط ذروته أيام المأمون حيث انقلبت حواضر الدولة العباسية وثغورها بالأخص إلى أسواق شاسعة تموج بهذه التجارة المقوتة. بل كانت الارباح الطائلة التى تجنى من ورائها فى بعض الأحيان عاملا

من عوامل اثارة الحرب وتوالى الغزوات من جانب حكام النواحى والثغورلاراضى الدولة البيزنطية . كذلك كان لاسترقاق الصقالبة فى الاندلس شأن عظيم،فكانت قصور الأمراء تموج بهم ولا سيما منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم وكانوا يومئذ يشملون كل الجنسيات الاوربية فقد ذكر ابن حوقل الذى زار الاندلس فى القرن العاشر الميلادى انه كان من بين الصقالبة الذين يخدمون فى بلاط الخليفة ألمان وفرنسيون وأسبان ولومبارد وروس . وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالا بواسطة اليهود الذين كانوا أقطاب تجارة الرقيق فى هذه العصور ، أو على يد القرصان العرب الذين يخطفونهم ، ومن ثم كانوا يعتنقون الاسلام ويتعلمون العربية بسهولة .وكان بعضهم يربى تربية راقية حتى لقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم . وقد فاق عددهم أيام الناصر لدين الله (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) أى عهد آخر فبلغ نحو أربعة عشر ألفاً ، وكان لهم نفوذ وأملاك شاسعة . وكان الناصر يعهد إليهم بأهم الوظائف فى الجيش والحكومة، ويرغم أشراف العرب ورؤساء القبائل على الخضوع لهم . وكان مثال هذه السياسة يتردد من الناحية الأخرى فى قصور بغداد . ولا يسمح لنا المقام أن نسهب فى تفاصيل هذه السياسة التى كانت خطراً على الاسلام ودوله سواء فى بغداد أو فى القاهرة أو قرطبة، بيد أنا نستطيع أن نقول انها كانت من أهم أسباب انحلال العصبية العربية، وتدهور سلطة الخلافة ، وتمزيق شاسع أقطارها إلى دويلات وحكومات محلية

***

لاندهش بعد ذلك إذا رأينا ثغور البحر الابيض وجزائره تنقلب إلى مراكز هائلة لتجارة الرقيق ولا سيما فى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد ، ففى ذلك الحين استعر لظى الحروب بين الدولتين العباسية والبيزنطية من جهة وبين هذه الدولة وجاراتها من المشرق والشمال ، واستولى العرب على معظم جزائر البحر الابيض ، وسما شأن البحارة العرب ، واتخذوا جزيرة اقريطش محطاً لاقلاعهم ورسوهم ، وغصت ثغور الجزر وثغور مصر والشام بسفن البحارة والقرصان المغامرين الذين يجوبون عباب هذا البحر بحثاً وراء الغنيمة فيغيرون على شواطىء الدول النصرانية

وخصوصاً ثغور الجمهوريات الايطالية وثغور الدولة البيزنطية ويعودون إلى أوطانهم مثقلين بالغنائم والسبي ، ويبيعون الرقيق آلافا مؤلفة إلى تجار مصر والشام ، وينفذ هؤلاء بسلعهم إلى أقاصي افريقية وآسيا. وكانت أعظم غزوة من هذا النوع غزوة البحارة المسلمين بقيادة ليون الطرابلسي أعظم بحارة عصره لثغر سلانيك فى سنة ٩٠٤ م ، حيث يروى ان عدد الأسرى بلغ فى تلك الغزوة نيفاً وخمسين ألف نسمة . وكان اضطرام لظى الحروب والمغامرة البحرية على ذلك النحو فى ذاته ، عاملا فى تخفيف ويلات الرق ، إذ كانت المغانم والارباح المادية تحمل الظافرين فى فرص كثيرة على حقن دماء الأسرى ابتغاء بيعهم أو افتدائهم على يد القادرين من ذويهم ، هذا إلى ان فكرة استبدال الأسرى قويت باشتداد المعارك وتفاقم المصائب المترتبة عليها من السبي والتشريد ، وانتهى الأمر بالدولتين البيزنطية والعباسية إلى الاتفاق فيما بينهما على تنظيم استبدال الأسرى بشروط مقررة ، وبديء بتنفيذ هذا الاتفاق . ومنذ سنة ٧٨٩ م أعنى أيام الرشيد ادمج فى الاتفاق شرط يقضي بان يسمح لكلا الفريقين بافتداء الكافة من اسراه نظير مبلغ معين عن كل فرد ، وغدا ثغر طرسوس من ذلك الحين مركزاً من أهم مراكز المبادلة والافتداء بين المسلمين والبيزنطيين. وكان مسلمو اقريطش من أعظم مروجي هذه السياسة ، إذ كانت جزيرتهم أعظم مركز فى البحر الابيض لتجارة الرقيق من جهة، ولاجراء المبادلة والافتداء من جهة أخرى. وكان يقوم باجراء هذه الرسوم أفراد وجماعات من الخاصة يخابرون أسر الأسرى أو أصدقاءهم من الأغنياء لدفع الفدية أو تقديم البدل . وكان الأسرى من النصارى الذين يفتدون بهذه الواسطة يرغمون على دفع المبالغ الطائلة إذ كان الافتداء صفقة خاصة لا يجرى طبقاً لمعاهدات رسمية كالافتداء أو الاستبدال الذى يتم فى طرسوس بين الحكومتين المتعاقدتين .

هذه لمحة موجزة عن أحكام الرق وأطواره فى العصور الوسطى ، ومنها ترى ان مصائب الحروب المضطرمة المستمرة كانت تعصف بحريات البشر أشد مما كانت تعصف بأرواحهم وأموالهم

الفصل التاسع

الفروسية

(La Chevalerie)

تاريخها ، ومبادؤها ، ورسومها

إذا كان الاقطاع [1] أساساً جوهريا لصرح النظم الاجتماعية والسياسية فى العصور الوسطى ، فان الفروسية أهم حجر فى هيكل الاقطاع ، بل تكاد تكون قاعدة جوهرية للاقطاع ووحدة لبنائه تربط أطرافه المتباينة ، وتصل طبقاته الرفيعة منها بالوضيعة . وقد كانت أهم ظاهرة للتفريق بين البشر فى بدء العصور الوسطى قبل أن تنتظم الفروسية وتزدهر ، الحرية والرق ، فكان من الناس أحرار وأرقاء . فلما اضمحل نظام الرق ، وسما شأن الفروسية ، كانت أهم ظاهرة للتفريق بين البشر ، النبل والمنبت العام ، فكان من الناس فرسان أو نبلاء أو سادة وكافة أو عامة . هذه الفروسية التى لبثت قروناً زهرة المجتمعات النصرانية والتى لعبت دوراً كبيراً فى الحروب الصليبية ترجع مبادؤها ورسومها وتقاليدها إلى نحو القرن التاسع وإلى نظم الاقطاع فى عهد النورمان . والظاهر أنها ترجع فى الأصل

---

(١) الاقطاع هو نظام سياسى اجتماعى حربى كان سائداً فى القرون الوسطى . وظهر فى القرن التاسع حينما ضعفت الحكومات المركزية عن أن تسيطر على جميع الاقاليم التابعة لها . وأصل النظام مجهول ، ولكنه خليط من نظام التملك الرومانى ونظام علاقة الاشخاص بعضهم ببعض . وملخص هذا النظام هو أن الأرض تعتبر ملكا للعرش وللعرش أن يقطع منها للأمراء والسادة ولهؤلاء بدورهم أن يقطعوها للكافة ولكل من هؤلاء حقوق وعليهم واجبات بين سياسية وحربية ومالية . وقد ساد هذا النظام فى غرب أوربا حتى القرن الثالث عشر ، وكان الفرنج أول من طبقه ووضع له أصولا ثابتة

إلى رسوم القبائل الجرمانية لأن المؤرخ تاسيتوس يذكرها ويصف رسومها فى حديثه عن أحوال هذه القبائل . وعلى أى حال فان نظام الفروسية لم يزدهر ويستكمل أسباب الاستقرار والنمو إلا فى القرن الحادى عشر حيث غدا نظاماً سياسياً اجتماعياً يرجع إلى أصول وقوانين متعارفة أدمجت فيه الحقوق والواجبات جنباً إلى جنب .

والنبل كما رأيت قاعدة الفروسية وميزتها الأولى. وقد كان التفريق بين النبلاء والعامة فى مراحل الاقطاع الأولى غامضاً فى الغالب، ولكنه تقدم مذ أصبحت وراثة الضياع المقطوعة حقاً مقرراً، ثم غدا فى النهاية محوراً لاجتماع الناس إلى طوائف قوية سريعة هى أظهر عنصر فى مجتمع العصور الوسطى . والنبل يتكون من عنصرين متمايزين : الأول وراثة الضيعة بما تحمل من تعهدات فى أداء الواجبات الكبرى ، والثانى أهلية القتال على ظهر الجواد أو بعبارة أخرى الفروسية (Chevalerie). والصفة الثانية تحمل فى ثنيتها فكرة الملك أيضاً ، فهى تتضمن القدرة على اقتناء العدد الغالية اللازمة لأداء واجبات الفارس. وقد كان امتزاج هذه الفكرة بفكرة الملكية العقارية وفكرة المنبت الحسن ، يمد الأمير الاقطاعى بخدمات نخبة من المقاتلة. وطبيعى أن تكون هذه النخبة وأسرها أرقى طبقات الارستوقراطية وأقوى الطوائف فى مجتمع بربرى كمجتمع العصور الوسطى

وقد أفضى شرف المنبت إلى تحول هذه الارستوقراطية إلى طبقة بكل معانى الكلمة قلما يمكن اقتحام حدودها من جانب الكافة والاندماج فى سلكها دون مصاعب ورسوم جمة . وكان من وسائل هذا الالتحاق أن يشترى الفرد العادى ضيعة تلحق بها صفة النبل (Terra Nobilis) أو يسبغ الملك أو أحد كبار النبلاء عليه صفة النبل هبة منه لخدمات أداها أو كفايات معينة برز فيها ، فتلحق عندئذ صفة النبل بهذه بالأرض التى يملكها وتنتقل إلى عقبه بالارث . وواضح أن خلق النبلاء على هذا النحو كان وسيلة حسنة لاحاطة العرش بأشخاص يؤيدونه ويرعون مصالحه . وهذا العصر هو فى الواقع فاتحة لنهوض الملكية وبروزها من أغلال الاقطاع ، وتبوء

نظمها مركز العلية والسيادة على ماعداها من نظم السلطان والحكم . وكانت وراثة النبل تنحصر بادئ بدء فى صف الذكور ، ولكن ميل العروش إلى اتباع السياسة المتقدمة أفضى قبل بعيد إلى منحها للاناث أيضاً وغدت تستطيع الأنثى أن تهب صفة النبل لعقبها فيصبحوا فرسان وسادة ونبلاء

ولما استقر النظام الاقطاعى وتحسنت موارد الارستقراطية بتحسن الزراعة، غدا الواجب الذى يقضى على الفارس باتباع الأمير على نفقته الخاصة ، بالنسبة للسادة الاقطاعيين أرفع ضروب الشرف والكرامة . وكان الفارس إذا ارتدى عدده المنيعة الشاملة وتقلد سلاحه الذى يدججه من الرأس الى القدم ،وامتطى جواده الذى يغطيه الحديد والصلب مثله، أضحى أهلا للقاء عشرات من العامة غير المسلحين ،فاذا اجتمع من هؤلاء الفرسان عدة استطاعوا أن يرهبوا المئات والالوف من اتباعهم ويلجئوهم الى الخضوع والطاعة . وواضح ان استفحال مثل هذه الخصومة بل وجودها كان يؤدى فى كثير من الاحيان الى معارك دموية لايعدم العامة فيها وسيلة للانتصاف لأنفسهم من عسف الفرسان وجورهم . على ان ارتباط الحقوق بالواجبات بالنسبة للفريقين كان فى ظروف الحياة العادية يدعم نظاماً اجتماعياً كنظام الفروسية تنقصه على ما رأيت جميع عناصر الاستقرار السياسى .

وقد ندهش حينما نتأمل رسوم الفروسية وتقاليدها ، ويخيل لنا أنها رسوم احدى الهيئات الدينية او الجمعيات السرية الكبرى . والواقع ان هذه الرسوم التى يجب جوزها لنيل شرف الفروسية قديمة جداً وقد أشار اليها تاسيتوس فى حديثه الذى أشرنا اليه عن فروسية القبائل الجرمانية . بيد ان هذه الرسوم اتخذت منذ القرن التاسع صبغة من الروعة والجلال تكاد تدنو من القدسية . وخلاصة هذه الرسوم هى ان المرشح للفروسية قبل أن يزود بالسيف والمهماز يجوز بعض التجارب والاختبارات ، ويقضى أياما فى الصوم ، ثم يمضى ليلة فى كنيسة عتيقة مظلمة يستسلم فيها الى التفكير والتأمل . بعد ذلك يعطى السيف والمهماز ، ويلطم على

خده أو كتفه لطمة خفيفة اشارة الى آخر اساءة يسوغ له أن يغضى عنها . هذا ومع ان الفروسية نظام اجتماعى سياسى فانها لم تخل من الصبغة الدينية ، بل كانت هذه الصبغة قوية فيها إلى حد ان نظام الفروسية ذاته كان يشبه فيما يختص بحقوقه وواجباته بالهيئات الكهنوتية المقدسة ، فالزام الفارس المبتدىء بالاستحمام وارتداء السترة القصيرة صورة من إحياء التنصير . ثم ان الفارس يتسلم سيفه على هيكل الكنيسة من يد أحد رجال الدين ويسبق الاحتفال بقبوله كما قلنا صوم وابتهال ، ثم ينادى فارساً باسم الله والقديس جورج والقديس ميخائيل . ويقسم الفارس بعد ذلك أن يؤدى واجبات مهنته — فقد كانت الفروسية مهنة كما رأيت — وليس من ضمان بوفائه سوى التربية ، والقدوة الحسنة ، وحكم الرأى العام. وخلاصة قسمه أن يقول الصدق ، وأن يؤيد الحق ، وأن يحمى المنكوب وأن يستعمل الرقة والمجاملة فى معاملاته ، وأن يطارد أعداء الدين، وأن يحتقر مغريات الرفاهة والأمن ، وأن ينتصف لشرفه فى أية مغامرة خطرة . وقد بلغت هذه الرسوم فى القرن الحادى عشر مكانة علية من الجلال والتقديس حتى ان الملك ذاته ما كان ينتظم فى سلك الفروسية قبل أن يخدم البلاط وصيفاً ثم سيداً مرشحاً للفروسية ، ثم يمنح بعد ذلك المهماز الذهبى أو رمز الفروسية

وكما كان للفروسية رسوم وعهود خاصة بها ، فكذلك كان للفروسية رياضات وألعاب خاصة بها . وللفروسية فضل فى تطور هذه الرياضات والالعاب الارستقراطية فقد عدلت عن الالعاب الأولمبية القديمة حيث كانت تعرض المناظر العارية فتبعد العذارى والنسوة عن ارتيادها وتبعث الفساد والتهتك الى أخلاق اليونانيين، وآثرت عليها الالعاب المحتشمة . وكانت المبارزة أحب هذه الألعاب إلى الفرسان والسادة فكانت تعقد لها حفلات شائقة يهرع اليها الفرسان من كل صوب ويشهدها أشرف الكواعب والعقائل وأجملهن ، وقد تستغرق الحفلة يومين أو أكثر تجرى فيها المبارزات الفردية بين فارسين يتقاتلان بالرمح ، وللظافر أن يغنم سلاح خصمه وجواده

وله فوق ذلك أن يسمى سيدة من الحاضرات تشرف على بقية المبارزات والألعاب وتسمى ملكة الحب والجمال ، ومن ثم كانت فكرة الحب تقترن بكلمة الفروسية فى العصور الوسطى ، وكان حب امرأة يعنى فى نظر الفارس المتيم اجلال الجنس اللطيف كله . وأحياناً كان الفارس يؤثر بتأمله غادة معينة وتكون علائقهما نقية أفلاطونية فقط . وقد كان دور الفروسية فى هذا الشأن مستقى خصيباً لآداب مستفيضة من قصص جميلة رائعة ، ونظم رقيق حماسى ، وأناشيد وروايات جذابة لا تقع تحت حصر . هذا ولم تكن الفروسية تقف فى رياضاتها عند حد النزهة واللهو بل كانت أيضاً تنظم معارك صغيرة ، وتقيم تمارين جدية من مهاجمة حصن والدفاع عنه الى غير ذلك ، فكانت هذه المعارك والتمارين ميداناً يتلقى فيه الفارس دروسه وخبرته

***

ماذا كانت آثار هذا النظام الغريب فى نفسية المجتمع والفرد ؟ ان الفروسية بلا ريب من أجمل وأروع مناظر العصور الوسطى ان لم تكن أجملها جميعاً، ولكنها لم تقف عند انشاء مجتمع فريد فى رسومه ونظمه يضم طائفة متماثلة متضامنة من الأفراد ، بل كانت لها فى أنفس الأفراد والجماعة فى العصور الوسطى آثار عميقة قد ترتفع الى ذروة الخلال السامية ، وقد تهبط إلى أوضع الاهواء والشهوات النفسية ، فقد ذللت الفروسية كثيراً من حدة المجتمعات المتبربرة ، ولطفت من أخلاقها وخلالها . وبثت اليها روحا قويا من مبادىء الوفاء والعدالة والانسانية ؛ بل كانت الفروسية أول ما صدع من صرح الأسرة القومية . لم تكن تجمع فى صعيد واحد بين الفرسان من مختلف الأمم ، يمتزجون فى الالعاب والرياضات العامة ، تجمعهم مبادىء وروابط مشتركة ؟ ولكن الفروسية من الناحية الأخرى بثت فى أنفس أبنائها وخصوصاً غير المتعلمين منهم احتقاراً عميقاً للفنون والمهن السلمية ، وعاطفة قوية من الغرور والأثرة والتمرد على النظم والقوانين ؛ فكان الفارس يعتبر نفسه هو المنتقم

المقتص لنفسه ، و يطأ بقدمه كل شرع وعرف . هذا ولعل أسوأ ما غرسته الفروسية فى نفس مجتمع العصور الوسطى هو عاطفة وحشية من التعصب الدينى العميق . وقد رأيت أن بغض أعداء الدين إحدى فقرات القسم الذى يؤديه الفارس عند الانتظام فى سلك الفروسية ، ورأيت الصبغة الدينية الواضحة التى تقترن برسوم هذا الانتظام. والواقع أن الكنيسة فكرت منذ الساعة الأولى أن تبسط نفوذها وسيادتها على الفروسية النصرانية ، وقطعت فى سبيل هذه الغاية شوطاً بعيداً . فلما اضمحلت الدولة البيزنطية التى كانت تعتبرها الكنيسة سداً منيعاً أوحد لحماية النصرانية من وثبات الاسلام من جهة المشرق ، ونهض السلاجقة يجتاحون أراضى الدولة البيزنطية وينفذون إلى أعماق الأناضول وطارت صرخة الكنيسة فى الأمم النصرانية باشهار الحرب الصليبية على الأمم الاسلامية انقاذاً لقبر المسيح فى الظاهر ومحافظة على سيادة الكنيسة وحماية النصرانية فى الواقع ، كانت الفروسية على قدم الاستعداد والأهبة لخوض غمار الحرب المقدسة ، باسم الله و باسم الدين ، وهب الأمراء والسادة الاقطاعيون وهب الفرسان من ورائهم فى جماعات متعاقبة إلى ثغور الشام وفلسطين . وكان الفارس يذهب إلى ميدان الحرب مصطحباً وصيفه الخاص وعددا من الجند ، و يحشد كل أمير من فرسانه ما استطاع ، و تتميز كل جماعة بشعار أميرها وصيحته فى الحرب . وتاريخ الحروب الصليبية فياض بأخبار الحملات والبعثات الخاصة التى كان يجهزها أفراد من الفرسان ، يحاربون تحمساً للدين ، أو طلباً للمغانم و بحثاً وراء طالعهم وهو الأغلب ، بل نقرأ أن هذه الجماعات المغامرة كثيراً ما كانت تنقطع لاعمال السلب والنهب فى جميع الأراضى التى تمر بها . ولكن لا ريب فى أن الفروسية بالرغم مما كان يسود صفوفها من التنافس وأسباب الانحلال قد أدت إلى النصرانية فى الحروب الصليبية خدمات جليلة خصوصاً إذا ذكرنا أن الفروسية الافرنجية ، بما كانت تحمل من أسباب الأهبة والعدد المنيعة والدروع الدقيقة ، كانت تتفوق فى كثير من المواقع على فروسية المسلمين الخفيفة لنقص فى عددها وأهبتها

بقيت كلمة عن الفروسية فى الاسلام . إن الفروسية كامنة فى الأخلاق العربية، وكان لها كبير شأن قبل الاسلام ، وفى الدول الاسلامية الأولى ، ولكن الفروسية المنظمة ذات المبادىء والرسوم لقيت مهدها الأول فى الاسلام فى قرطبة ، واستقت مبادءها من قوانين الشرف، ورقة المجاملات، ورفعة الخلال ، أيام الناصر وولده الحكم ، وازدهرت بالأخص فى أيام الحاجب المنصور . يقول سديو : ان خلال الفروسية الاندلسية وشمائلها الرقيقة كانت مستقى أخذت منه الفروسية النصرانية الكثير من خلالها ورسومها . ويقول رينو : إن أفكار الفروسية بدأت تزدهر فى هذا العهد ، أى عهد الناصر ، مقرونة بعاطفة شرف قوية واحترام للجنس الضعيف . ويقول فياردو : إن الفروسية وكل نظمها التى عرفت فى الأمم الغربية النصرانية كانت مزدهرة عند الاندلسيين أيام الناصر والحكم والمنصور . وكانت الاندلس فى ذلك العصر كعبة يقصدها فرسان النصرانيـة من كل صوب بعيد سلام وحماية من الخلفاء ليعقدوا المباريات مع فرسان الاسلام . وكانت التقاليـد القديمة كنداء الفارس اسم أخته أو حبيبته حين الوثوب الى ميدان القتال قد عفت فى ذلك العصر ، مكان الفارس يكتفى بأن ينزل الى الميدان واضعاً فوق ذراعه أو فوق خوذته شارة من حبيبة قلبه. وكان سيدات الاندلس يشهدن المباريات والمبارزات التى تعقد فى ساحات المدن الكبرى ، فكان وجودهن يسبغ على تلك الحفلات الشائقة مسحة من السحر والظرف . أما شروط الفروسية التى يقضى بها العرف فكانت عشرة هى : التقوى، والشجاعة، ورقة الخلال، والقوة ، وهبة الشعر والفصاحة ، والمهارة فى ركوب الخيل، والسيف والرمح والقوس . وكان اجتماع الجنسين على ذلك النحو عاملا فى تهذيب المشاعر والشمائل ، وتقوية عواطف الوفاء والحياء والصدق . وقد بلغت هذه الفروسية الاسلامية أسمى شئونها، وذروة ازدهارها فى مملكة غرناطة التى يفيض تاريخها بأخبار السادة والامجاد وأحاديث شهامتهم ووفائهم مما لا يسمح المقام بالافاضة فيه ، غير أنا نذكر على سبيل التمثيل واقعة تاريخية ، هى أن الفرسان المسلمين حاصروا ملكة

قشتالة زوجة الفونسو السابع فى قلعة أزيكا فى سنة ١١٣٩م (٥٣٤هـ) فأنبت الملكة الفرسان المسلمين على مسلكهم، ورمتهم بنقص فى الشجاعة والخلال لأنهم هاجموا قلعة تدافع عنها سيدة ، فأقر الفرسان المسلمون عدالة التأنيب والتمسوا منها فقط أن تطل عليهم من شرفة القلعة ، فلما فعلت قدم الفرسان المسلمون إليهـا أسمى ضروب الاحترام ورفعوا الحصار وارتحلوا على الأثر

هذه هى خلاصة موجزة لتاريخ الفروسية ومبادئها ونظمها نستطيع أن نستشف منها الكثير من خلال مجتمع العصور الوسطى ، ومن عواطفه ونفسيته

الفصل العاشر

عصر السيادة البحرية الاسلامية

ومخاطرات البحارة المسلمين فى بحر الروم

— ١ —

فى أوائل القرن التاسع الميلادى هبت ريح من الاضطراب والجزع على سواد العالم المتمدين ، وكادت الحرب الاهلية تجتاح كل مجتمع منظم ، وتسربت أسباب الاضمحلال التى أصابت الدولة البيزنطية وحضارتها ، فى نفس الوقت إلى الدول الاسلامية ودولة الفرنج معاً ؛ واذن فيجب أن نبحث عن سر ذلك الاضطراب العام فى سبب عام تتأثر به علائق الطبقات المختلفة فى تعاونها على تدبير وسائل التقدم الاجتماعى بعيداً عن الأثر المباشر الذى يحدثه ما تستند اليه الحكومات مسلمة كانت أو نصرانية من القوانين والمبادىء السياسية

فمن أهم خواص هذا العصر ظهور عصابات شتى من المغامرين ، فياضة الاقدام والجرأة ، وافرة الشجاعة والأهبة ، تستطيع أن تتحدى أية حكومة قائمة . وكانت هذه العصابات تتألف فى العالب من رجال ينتمون إلى الطبقة الوسطى أو الطبقة العليا ممن دفعتهم خيبة الامل وتقلبات الزمن إلى أن يبحثوا وراء طالعهم فى قطع الطرق أو المغامرة . وكان انتشار الرق فى هذا العهد يمدهم بوسيلة سهلة لامداد قواتهم برجال يضطرمون بسالة ومخاطرة . كان الشعور الذى دفع الامم الغربية فى العصر الحديث الى افتتاح الامم المتأخرة واستعمارها ، واستثمار المرافق والاراضى العامرة ،

يدفع العرب والنورمان فى القرن التاسع الى اقتحام الثغور والشواطىء التى يستطيعون نهبها وغزوها

هـذه الحملات الناهبة ، والحملات الاسلامية بنوع خاص ، لبثت نحو قرنين تروع أمم هذا العصر ، وتبث روح الاضطراب والفتنة فى كثير من الدول ، وتذكى أطماع الناقمين والمتنافسين فى طلب الرياسة والملك . وكانت شواطىء بحر الروم ولاسيا شواطىء الدولة البيزنطية ميداناً لوثبها وفتكها .وكانت جزائره الغنية محط رحالها ومطمح أنظارها ، وسنعنى فى هذا الفصل بسرد لمحه من أخبار هذه الحملات الاسلامية وغزواتها ومغامراتها البحرية

⁂

كانت جزيرة إقريطش « كريت» أول غنم ثمين لهذه الحملات المخاطرة . فى سنة ١٩٨ هـ (٨١٥ م) حدث فى قرطبة هياج كبير أثاره بعض الفقهاء الناقمين على الحكم المنتصر أمير الاندلس وقتئذ ، فحاصر الثوار الامير فى قصره ولكنه فرق شملهم بيد من حديد وقتل منهم جموعاً كبيرة ، ثم أمر بديارهم فهدمت وأحرقت وأمر بنفى من بقى منهم عن الاندلس ، فهاجر بعضهم الى فاس ، وقصد معظمهم مصر ، ونزلوا بالاسكندرية واشتركوا فى الحرب الاهلية التى كانت تضطرم اذ ذاك ، ثم استولوا على الاسكندرية من يد حاكمها واتخذوها قاعدة لغاراتهم وحملاتهم الناهبة على جزر بحر الارخبيل . فلما قدم عبد الله بن طاهر قائد المأمون الى مصر ليقمع الثورة ردهم وأنذرهم بالويل ، فاضطروا الى اخلاء الاسكندرية وسرحوا أبصارهم فى مياه البحر ليظفروا منه بملجأ أمين يثوون اليه فوقع اختيارهم على إقريطش التى خبروا ثروتها وخصبها فيما سبق من غاراتهم

خرجت هـذه العصابة المغامرة من مياه الاسكندرية فى نحو أربعين سفينة بقيادة بحار جرىء وجندى مجرب هو أبو حفص عمر البلوطى (ويسميه اليونان أوشابس) ورست على شواطىء إقريطش (٢٠٨ هـ — ٨٢٣ م). وانقض المسلمون

على الجزيرة؛ ففرت الحامية البيزنطية ، وارتاع السكان فلم يبدوا كبير معارضة ، ولم تستطع حكومة القسطنطينية أن تبعث بالمدد الى الجزيرة لان ثورة داخلية منعت الامبراطور ميخائيل الثانى أن يتخذ أية خطة لرد الفاتحين . ويروى المؤرخون البيزنطيون أن أباحفص لما نزل الى الجزيرة أمر باحراق السفن وانه قال لجنده حينما احتجوا على هذا العمل: « فيم شكوكم ؟ لقد حملكم الى أرض تفيض باللبن والشهد هذه أرضكم الحقة فاستريحوا وانسوا أوطانكم المجدبة » فقالوا : « ونساؤنا وأولادنا فأجابهم « سوف يؤدى الاسيرات الحسان لكم وظائف الزوجات ومن ثم تصبحون آباء جيل جديد » فأقاموا حيث نزلوا وأحاطوا معسكرهم بخندق ضخم ، أطلق اسمه على إقريطش حيث سميت « بالخندق » وهو الاسم الذى حرفه الغربيون الى كانديا . وأسس أولئك المغامرون فى إقريطش حكومة جديدة ، واتخذوا الجزيرة قاعدة لطائفة من الحملات الناهبة على الجزر المجاورة ، ووفد عليهم سيل من القرصان والمتطوعة المخاطرين من جميع الثغور الاسلامية ليحصلوا نصيبهم من الغنائم اليونانية من متاع وأسرى . وارتاع الامبراطور ميخائيل لذلك الخطر الجديد فجهز حملة بحرية كبيرة بقيادة أمير البحر أوريفاس جاست خلال جزر الارخبيل وطاردت البحارة المسلمين غير أنها ارتدت أمام غزاة إقريطش ، وجهز خلفه الامبراطور ثاوفيلوس حملة كبيرة أخرى فمزقها المسلمون بالقرب من تاسوس . ولبث المسلمون فى إقريطش زهاء قرن وثلث يزحمون جزائر الأرخبيل بالغزو والنهب حتى استعاد اليونانيون الجزيرة منهم فى عهد الامبراطور رومانوس الثانى سنة ٩٦٠ م

وفى نفس الوقت الذى سقطت فيه إقريطش فى يد البحارة المسلمين ، افتتح المسلمون صقلية وأسسوا فيها دولة باذخة . وكان للبحارة المغامرين من المسلمين أيضاً فضل كبير فى هذا الفوز . ويروى فى أصل هذا الفتح ان سيداً يونانياً كبيراً من صقلية يدعى يوفيميوس (ويسميه العرب فيمى) هام براهبة حسناء واختطفها من ديرها فقضى الامبراطور (ميخائيل الثانى) بجدع أنفه عقابا له على جرمه ، ففر الى

بلده سرقوسة وثار فى عصبته وأنصاره على حاكم الجزيرة ، ولما رأى أن لا طاقة له بجيوش الامبراطور وأساطيله استغاث بأمير إفريقية (تونس) زيادة الله الأغلب ووعده بملك صقلية ، فبعث اليه السفن والجند فى سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م)، ونشبت بين المسلمين وحليفهم يوفيميوس، وبين قوات الامبراطور معارك عدة انتهت بهزيمة اليونانيين . بيد أن المسلمين لم يستطيعوا التوغل فى الجزيرة حتى جاءتهم سفن من الأندلس تحمل سيلا من القرصان والمخاطرين ، وتوالت عليهم الامداد من إفريقية والثغور الاسلامية . واستمرت الحرب بين الفريقين نحو خمسين سنة استولى المسلمون خلالها على ثغور الجزيرة ومدنها واحدة بعد الأخرى ، وكانت سرقوسة آخر معقل وقع فى يدهم (سنة ٨٧٨ م — ٢٦٤ هـ)

بيد أن الذى يهم هنا هو أن شواطىء صقلية وقلوريه (كلابريا) التى استولى المسلمون على بعض ثغورها أيضاً أضحت ملاذاً لعصابات مخيفة من البحارة المسلمين تغير من آن لآخر على الشواطىء الايطالية وتجوس خلال الادرياتيك فتنشر الروع والذعر فى الامارات النصرانية وتعود مثقلة بالغنائم والأسرى ، وتقيم للرقيق فى الثغور الاسلامية سوقاً رابحة . ففى سنة ٨٤٢ م اختلف أميران من اللومبارد على ولاية دوقية بنفوتوم فاستنصر أحدهما بمسلمى صقلية ، فانقضت عصابة منهم على ثغر بارى ، وأنشأت فيه قاعدة كبيرة لنهب الشواطىء الايطالية والأمارات البيزنطية والفرنجية . وفى سنة ٨٤٦ م (٢٣١ هـ) سارت حملة أخرى من بحارة صقلية على طول شاطىء إيطاليا الغربى ، وبعد أن عاثت فى ثغوره ، رست عند مصب نهر التيبر ، ونهبت كنيستى القديس بولس والقديس بطرس ، ولم ينقذ «ملكة العالم» (رومة) من الوقوع فى يدها سوى جند الامبراطور لويس الثانى (سنة ٨٥٠ م) وكان من أثر ذلك ان البابا ليون الرابع حصن ضاحية الفاتيكان وأدخل كنيستى بولس وبطرس فى الحى الجديد المعروف « بمدينة ليون » . وتوالت حملات البحارة المسلمين بعدئذ على الثغور الايطالية حتى اضطر سكانها ان ينشئوا على طول الشاطىء

أبراجا وقلاعا شديدة المنعة لكى ترد الهجوم الفاجىء ، شاهقة الارتفاع لكى لا تصل النيران التى تضرم فى أسفلها إلى مخابئها العليا ،وهبت على ايطاليا فى هذا العصر عاصفة من الخوف والذعر المستمر ، وسرت الفوضى إلى جميع طبقات المجتمع

ثم عادت شراذم من البحارة المغامرين جهزتها حكومة صقلية إلى نهب الشاطئ الايطالى بعد ذلك بنحو عشرين سنة ، وهاجمت رومة مرة أخرى ، ولم ينقذ المدينة هذه المرة من الوقوع فى يدهم سوى تعهد البابا يوحنا الثامن أن يدفع لحكومة صقلية جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون الف مثقال من الذهب .

ولم يكن خطر العصابات الاسلامية البحرية على ثغور الدولة البيزنطية فى شرق بحر الروم أقل منه فى المياه الايطالية . ففى سنة ٨٨١ م (٢٦٧ هـ) خرج أمير طرسوس فى ثلاثين سفينة وهاجم شاليس، ولكن أونيانيس القائد البيزنطى أشرف عليه بقوة كبيرة ، ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها أمير طرسوس وهزم المسلمون. ولم تمض على ذلك بضعة أعوام حتى انقض قرصان إقريطش على شواطىء الهيليس (الدردنيل) ونهبوا جزيرة بركنيسوس ، ثم ارتدوا أمام الاسطول الامبراطورى بقيادة أوريفاس غير انهم عادوا بسفن جديدة وانقضوا على شواطىء اليونان الجنوبية فاضطر أمير البحر أوريفاس أن يلجأ إلى حيلة قديمة معروفة هى أن ينقل السفن من المياه الشرقية إلى مياه الادرياتيك فوق مضيق كورنثة ، وبذلك استطاع أن يداهم سفن القرصان المسلمين عند مدخل الادرياتيك وأن يمزقها شر ممزق

أعظم بحار مسلم

وفى ذلك الحين ظهر فى شرق البحر الأبيض أعظم بحار فى ذلك العصر . ولعله أعظم وأمهر بحار مسلم على الاطلاق ، وهو أمير البحر الذى يعرفه مؤرخو الدولة البيزنطية باسم ليون الطرابلسى (Leo of Tripolis) [1] ويفيضون فى سرد غزواته

(١) تقبت فى كل المراجع العربية المعتبرة لاظفر بالاسم العربى لذلك البحار المسلم فلم أوفق ، ولذلك أشير إليه هنا بالاسم الذى يسمى به فى تواريخ الفرنج

البحرية لأنها كانت أروع ما عانته الدولة البيزنطية من غزوات البحارة المسلمين واقتحامهم لثغورها

ولد ليون الطرابلسى من أبوين نصرانيين فى أتاليا من أعمال بامفيليا ولكنه اعتنق الاسلام منذ نعومة أظفاره واستقر فى طرابلس من أعمال الشام ، ونشأ منذ حداثته فوق متن السفن ، وتلقى دروسه الحربيـة فى عرض البحر ، واشترك فى كثير من الحملات والغزوات الناهبة التى كان يقوم بها البحارة والقرصان المسلمين فى شواطىء بحر الارخبيل وثغوره وجزره . ثم انتقل الى طرسوس وجمع تحت لوائه أمهر وأشجع بحارة المسلمين فى هـذا العصر ، واتخذ خليج طرسوس محطاً لرحاله ومرفأ لسفنه .

وفى سنة ٩٠٤ م (٢٩٢ هـ) قام ليون الطرابلسى بأعظم غزواته البحرية . فخرج من طرسوس فى أربع وخمسين سفينة فى كل منها نحو مائتى جندى ، غير الضباط وجماعة منتخبة من الرؤساء ، وانضم اليه فى مسيره أشجع قرصان المشرق ، ولم يجرؤ الأسطول البيزنطى الذى أوفده الامبراطور ليون السادس لحماية ثغور الدولة على لقاء سفن المسلمين فارتد الى ضفاف الهيليس (الدردنيل) تاركا مياه الارخبيل مفتوحة لسفن الغزاة ، ووصل الفارون الى القسطنطينية فأذاعوا ان العدو يقصد ثغر تسالونيكا (١) . وكانت تسالونيكا من أمنع الثغور البيزنطية وأغناها فى ذلك العصر ، تقع على هضاب جبال أولمبوس وتشرف على رأس خليج مستطيل تستطيع أن تمتنع به السفن . وكان يفصلها عن الخليج سور ضخم يمتد نحو ميل على طول الشاطىء ، وتحميها من بعد ذلك قلاع حصينة شيدت على آكام مرتفعة ، وقد جعلتها الطبيعة فوق ذلك مخرج قليم غنى خصب . بيد أن قلاعها لم تكن عندئذ فى حالة جيدة من المناعة ، وكان سورها الضخم قد تقوضت حافته العليا مما يلى البحر ، وكان فى

(١) تسلونيكا ، أو تسلونيكى فى كتب العرب ، وهى ثغر سالونيك الحديث . وقد كانت فى العصر الذى نتحدث عنه أعظم ثغور الدولة البيزنطية وأغناها بعد القسطنطينية ؛ وكان سكانها يبلغون يومئذ زهاء مائتين وخمسين ألفاً

وسع السفن أن تسير فوق الماء حتى الاسوار، ولذلك حاول بتروناس أول قائد أوفده الأمبراطور للدفاع عن المدينة أن يحول دون اقتراب السفن من الاسوار بأن يلقى فى الماء على مسافة من الاسوار كمية كبيرة من الصخور الضخمة والرخام الذى كانت تزدان به القبور اليونانية ، لكى يعرض سفن الهاجمين إلى نبال اليونانيين وسهامهم. أما أهل تسالونيكا أنفسهم فلم يبدوا كبير عناية بالخطر المحدق بهم بل وضعوا كل ثقتهم ، لافى الأمبراطور ولا فى جيوشه وأساطيله التى كانت تهزم فى كل يوم ، ولكن فى « القديس ديمتريوس » الذى لم يخدعهم قط ، والذى طالما رد الصقالبة عن المدينة وتقدم لغوثهم فى كل حصار وخطر ، وحماهم بالأخص من عدوان المسلمين والوثنيين . وكانت الاشاعات المزعجة تتواتر كل يوم بقدوم المسلمين ؛ وكان ليون الطرابلسى قد طارد الأسطول البيزنطى حتى مضيق الهيليس ثم عاد إلى تاسوس . ثم توفى بتروناس فجأة ، فتولى القيادة مكانه ضابط يدعى نيكيتاس ؛ وبذل جهداً كبيراً فى إعداد وسائل الدفاع ، واستقدم بعض الجند الصقالبة من الأنحاء القريبة . بيد أن سكان المدينة لم ينزعوا ثقتهم من القديس ديمتريوس فاجتمع جمع غفير منهم وتقدمهم القسس والاسقف إلى كنيسة هذا القديس ، وانهمكوا فى الصلاة العامة ليل نهار . أما ليون الطرابلسى فوقف قليلا فى تاسوس ليصلح سفنه وليعد المنجنيقات وغيرها من آلات التدمير . وفى يوم الأحد ٢٩ يوليه سنة ٩٠٤ سرى الخبر إلى المدينة بأن المسلمين قد وصلوا إلى الخليج واحتجبوا عن الانظار . فعم الاضطراب والذعر وارتفع الصراخ والعويل . وذهب السكان لقتال بين دموع الزوجات والاطفال ، ثم ظهرت سفن المسلمين أخيراً ، وتقدمت من الميناء . وكان مدخلها محمياً بسلاسل ضخمة مدت بين الجانبين ، وقد أغرقت فيه سفن عدة لتحول دون اقتراب الهاجمين ؛ فاستطلع أمير البحر المسلم مدخل المدينة وحصونها ثم قام بهجوم محلى ليختبر منعتها وليتعرف مبلغ استعداد أهلها للدفاع عنها

وفى اليوم التالى هاجم المسلمون المدينة من الشرق وحاولوا اقتحام السور بنصب

السلالم ، واطلاق المنجنيقات ولكنهم ردوا أمام سيل من أحجار البيزنطيين وسهامهم فلجأ ليون الطرابلسي عندئذ إلى وسيلة أخرى ، و بعث طلائعه بعربات من الخشب والكبريت والقار قد غطيت بقوارب الصيد حتى لا تصلها نار المدافعين ، وأضرم الطلائع النار تحت أبواب المدينة من الشرق وارتدوا تحت وابل من السهام والاحجار فارتفعت ألسنة اللهب وتداعت الأبواب الحديدية ، ولكن المسلمين لم يظفروا بجديد إذ ظهر ان الممرات التى تلى الأبواب قد سدت بالبناء المحكم وأقيمت فوقها أبراج منيعة . وكان ليون الطرابلسي يرمى بكل هذه المقدمات إلى تحويل عناية المدافعين عن غايته الحقيقية ، بيد ان هؤلاء رأوا من جرأة المسلمين واقدامهم واستخفافهم بالموت ماراعهم وضاعف خوفهم وهمهم

وكان ليون الطرابلسي قد رأى انه يستطيع محاذاة السور فى عدة مواضع عينها بدقة وعندئذ بدأ بتنفيذ خطته النهائية بمنتهى الحذق والسرعة ، فربطت عدة سفن كل اثنتين منها معاً ربطاً وثيقاً محكماً ، وأقيم فوق كل اثنتين منها برج خشبي مرتفع ، وفى الصباح دفعت الأبراج نحو المواضع المنخفضة فى السور ، وفى كل منها نخبة من المسلمين تستطيع أن تشرف على أبراج المدافعين من عل ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، وقذف المسلمون البيزنطيين بوابل مستعر من الاحجار والسهام والنار اليونانية التى بدأوا باستعمالها فى هذا العصر (١) فارتد اليونانيون عن الأبراج ، وكان بحارة السفن السكندرية أول من أقتحم السور ، فأنقضوا على باقى الابراج وأجلوا اليونانيين عنها ثم فتحوا أبواب المدينة ، فانقض المسلمون عليها من كل ناحية ودخل البحارة المكافون بجمع الأسلاب شاهرين السيوف وليس عليهم سوى السراويل حتى لا يخفى أحد شيئا من الغنيمة، وفر البيزنطيون والصقالبة من كل صوب

---

(١) ذكرنا فى فصل سابق انه قد وجد نوعان من هذه النار ، نوع استعمل منذ أقدم العصور ، ونوع اخترعه البيزنطيون بعد ذلك ولم يعرف العرب سره إلا فى القرن الحادى عشر ونريد بالنار اليونانية هنا النوع الأول

ثم قسم المسلمون أنفسهم إلى جماعات أخذت تجوس خلال المدينة قتلا ونهباً وسبياً ، وكان المؤرخ البيزنطى يوحنا كامنياتس وعدد من أفراد أسرته بين الأسرى، وقع فى يد جماعة من الأحباش فالتمس الرحمة منهم ووعد بأن يدل على مخبئ أودعت به ثروات أسرته . وكان بين الأحباش من يفهم اليونانية ، فقاده رئيس الجماعة إلى أمير البحر فأرسل معه من ينقل الكنز ، وكان من حسن طالع كامنياتس أن وجد الكنز سليما ، فرضيه ليون الطرابلسى فداء لحياة المؤرخ وأسرته وأمر بحمله مع من أسر حتى يستبدل فى طرسوس بمن فى يد البيزنطيين من أسرى المسلمين .
وبعد أن أنفق المسلمون بضعة أيام فى النهب والسبى غادر ليون الطرابلسى ثغر تسالونيكا مثقلا بغنائم فادحة وعدد كبير من الأسرى يقدره يوحنا كامنياتس باثنين وعشرين ألفاً ما بين رجال ونساء وغلمان انتخبوا لغنى ذويهم بحيث يستطيعون فداءهم أو لجمالهم بحيث يجدون فى أسواق الرقيق أثمانا رابحة ، وكان بين الأسرى كثير من أشراف اليونانيين ممن قاسوا الأهوال فوق متن السفن . ومات كثير منهم من الجوع والبرد

وسار ليون الطرابلسى فى سفنه متجنباً لقاء الأسطول البيزنطى حتى لا يرهقه وهو مثقل بغنائمه . ورسا فى زنار يون من ثغور إقريطش . وهناك أنفق بضعة أيام فى توزيع الغنيمة والسبى ، ثم تفرقت السفن ، وسارت كل جماعة من البحارة إلى مرافئها سواء فى مياه مصر أو الشام . ووصل ليون إلى طرابلس فى ٢٤ سبتمبر سنة ٩٠٤ ثم سار إلى طرسوس التى كانت قاعدة لاستبدال الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين . وهنالك استبدل أشراف تسالونيكا ، ومن بينهم المؤرخ كامنياتس ، وهو الذى تخرج من كتاباته قصة هذه الغزوة الكبرى

هذه لمحة من أخبار البحارة المسلمين . ومنها ترى أن السيادة البحرية فى بحر الروم كانت للمسلمين خلال عصور عدة ، وأن غزوات بحارة منس أبى حفص عمر البلوطى

فاتح إقريطش ، أو أسد بن الفرات فاتح صقلية ، أو ليون الطرابلسى قاهر تسالونيكا لا تقل فى روعتها عن غزوات أمراء البحر المحدثين مثل أندريا دوريا ، وخير الدين بارباروس أعظم بحارين فى عصرها ، والسير فرنسيس دريك ، والسير والتر رالى والسير جون هوكنس وغيرهم من بحارة انجلترا فى القرن السادس عشر ممن تملأ سيرهم وأعمالهم صحفاً جمة من أبدع وأمتع صحف الآداب الأنجليزية . كذلك نستشف من تاريخ هذه الحملات والغزوات اضمحلال الدولة البيزنطية وضعف حكومة القسطنطينية، وفساد بلاطها الذى يؤثر طغيانه تبديد أموال الدولة فى مظاهر النعيم والترف وتشييد القصور والكنائس على تحصين أطراف الدولة وإعداد جيوشها وأساطيلها بيد انا نستطيع أن نلاحظ أيضاً ان ميول الشعوب التى تحكمها الدولة البيزنطية كانت عاملا هاماً فى تسهيل غزوات المسلمين ، فان هذه الشعوب لم تر فى حكم المسلمين من العضاضة ما كانت تقدره حكومة القسطنطينية التى بلغ عسفها وجورها مبلغاً لم تبلغه حكومة اسلامية فى هذا العصر ، ولنا فى ذلك دليل فى فتح صقلية التى انضم أهلها إلى المسلمين فى محاربة البيزنطيين

وكانت هذه الحملات والغزوات الناشبة تقترن عادة بضروب رائعة من السفك سواء من جانب المسلمين أو أعدائهم ، وكانت تغذى أسواق المشرق كلها وقصوره بأسراب السرارى والرقيق . بيد أنا نلاحظ أن المغامرين المسلمين كانوا يختصون بعدواتهم ثغور غير المسلمين مما يدل على أن نزعة قومية أو دينية كانت غالبة فيهم ، وكانوا يؤدون إلى الحكومات الاسلامية خدمات جليلة باضعاف جيوش الدولة البيزنطية وأساطيلها، واستبدال أسرى المسلمين بمن يأسرون فى غزواتهم ، ثم نلاحظ فى النهاية أن البحارة المسلمين كانوا مستعمرين حقاً ، فقد استعمروا إقريطش وغيرها من جزر الأرخبيل ،وكانوا عضداً قوياً للدول الاسلامية التى قامت فى قلورية وصقلية وأزهرت قرونا

٢ ـ غزو المسلمين لروما

فى أوائل القرن التاسع من الميلاد افتتح المسلمون كما قدمنا جزائر البحر الأبيض الكبرى مثل إقريطش وصقلية وسردانية ، وافتتحوا بعض ولايات ايطاليا الجنوبية ، وبدأوا فى مياه هذا البحر سلسلة من الغزوات والمعارك البحرية تكون فصلا فريداً فى صحف التاريخ الاسلامى . وكانت الحروب والفتوح الاسلامية قبل ذلك تقتصر على اليابسة مما يلى شواطىء البحر الأبيض ولم تشذ عن ذلك الا فى عهد الدولة الأموية فى حادثين كبيرين : الأول افتتاح الأندلس ، والثانى حصار القسطنطينية مرتين . وكانت نكبة المسلمين أمام أسوار القسطنطينية فى المرتين عاملا جديداً فى روعة المسلمين من البحر وأهواله . فكان عليهم أن يمضوا قرنا آخر فى تعرف أسراره ودرس طبائعه وأحواله . وقد حملوا على ذلك بسير الظروف والحوادث ، فكانت غارات النورمان على شواطىء الأندلس وثغورها مثلا ، عاملا فى اهتمام حكومة قرطبة بانشاء الاساطيل البحرية ، وكان الخطر الذى يهدد الاغالبة فى افريقية من جهة البحر عاملا فى اهتمامهم بالتحصينات والمنشآت البحرية وحشد جيش مدرب من أمراء البحر وجنوده . وكان القرن الثامن عصر التجارب البحرية بالنسبة للأساطيل الاسلامية ، فنراها تقنع بالدفاع ، ولا تقدم على الهجوم أو التوغل فى عرض البحر إلا فى فرص نادرة . ولكن فجر القرن التاسع لم يبزغ حتى تبدلت الحال ، وحتى كانت هذه الاساطيل تجوس خلال البحر الأبيض من أقصاه إلى أقصاه وتفتتح جزائره وتثخن فى شواطئه وثغوره . فكان القرن التاسع كما رأيت عصر السيادة البحرية الاسلامية

ولم يكن فضل الحكومات الاسلامية فى إحراز هذه السيادة قدر فضل المغامرين

من أمراء البحر المسلمين . وكانت مياه البحر الأبيض المتوسط ميداناً أوحد لجولات هذه الاساطيل غير الرسمية، وكانت جزائره الغنية محط رحالها ومطمح أنظارها وكانت شواطىء صقلية وقلورية (كلابريا) التى استولى المسلمون على بعض ثغورها ملاذاً لطائفة من هذه العصابات القوية المخيفة . ولم تكن هذه العصابات الناهبة تعمل دائماً بوحى الحكومات الاسلامية ، ولكنها كانت فى معظم الاحيان حاصلة على الأقل على تأييدها المعنوى ، فكانت تعمل تحت سمعها و بصرها، وتحتمى بثغورها وتتزود منها بالمؤن والذخائر . وكانت تؤدى لها خدمات جليلة ، إذ تنهك بغاراتها المتوالية قوى أعدائها من النصارى ، وتساعد فى فرص كثيرة بما تحمل من اسرى النصارى على افتداء أسرى المسلمين بطريق المبادلة . وكانت فى بعض الاحيان تعمل لحساب هذه الحكومات مباشرة ، فتحارب مع القوات النظامية جنباً إلى جنب وتسهل مهمتها فى الهجوم أو الدفاع

وليس فى سير الحملات البحرية الاسلامية أغرب وأمتع من غزو المسلمين لمدينة رومة . فقد غزا المسلمون مدينة القياصرة مرتين . وليس لدينا سوى لمحات ضئيلة من أخبار هذه الغزوة التى عنيت بالاشارة اليها تواريخ الفرنج فقط . وقد نحمل صمت الرواية العربية على أن هذه الغزوة لم تكن لحساب حكومة إسلامية منظمة وإنما قامت بها عصابات قوية من المسلمين

غير أنه يلوح لنا من تكرار الحملة على الشواطىء الايطالية وعلى رومة ، ومن ضخامتها وانتظامها . ومن تعاهد قادتها مع البابا كما سنرى ، ومن خروجها من ثغور صقلية وعودتها اليها . أنها كانت على الأقل تعمل بوحى حكومة صقلية أو بالحرى حكومة إفريقية التى كانت صقلية تابعة لها .

وكانت « المدينة الخالدة » رومة لا تزال حتى فى ذلك العهد الذى فقدت فيه منعتها القديمة ، تتمتع بلمحة من عظمتها الذاهبة . وكان القوط والوندال واللومبارد قد غزوها مراراً وثخنوا فى أنحائها الفخمة ، ولكنهم احترموا أحياءها ومعاهدها

المقدسة التى كانت تقع فى ظاهر الفتيكان وفى طريق ثغر أوستيا الواقع على مصب نهر التيبر . ولكن أساطير القديسين النصارى لم تكن شيئاً فى نظر البحارة المسلمين ففى سنة ٨٤٦م (٢٣١ هـ) سارت حملة كبيرة من صقلية نحو الشمال بحذاء الشاطىء الايطالى ، وبعد أن عاثت فى ثغوره ، ونهبت فوندى ، وحاصرت جايتا ، رست عند مصب التيبر . وكان على كرسى البابوية وقتئذ البابا سرجيوس . وكانت أسوار رومة لا تشمل كل المدينة القديمة ، بل كان الحى المقدس ، وفيه كنيستا القديس بطرس والقديس بولس وطائفة كبيرة من المعابد والقبور القديمة ، خارجا عن الأسوار ، معرضاً للاعتداء . فانقض البحارة المسلمون على ذلك الحى وجردوا الهياكل والاصنام من حليها النفيسة ، وانتزعوا هيكلا فضياً من قبر القديس بولس ، وضربوا الحصار على مدينة القياصرة ، فارتاع البابا ، واهتز الشعب الرومانى فرقا ورعبا . وبادر الامبراطور لويس الثانى ملك الفرنج واللومبارد بارسال حملة من جنده لمقاتلة الغزاة ، وجهزت ثغور نابولى وأمالفى وجايتا حملة بحرية لمطاردتهم . على أن الذى أنقذ المدينة الخالدة من الوقوع فى يد المسلمين كان تفرق الزعماء المسلمين أنفسهم ، فرفعوا الحصار بعد أن قاتلوا جند الامبراطور وسفن الثغور الايطالية قتالا رائعاً غرق فيه بعض سفنهم ، وعادوا إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والأسرى .

فكشفت هذه الجرأة للبابوية والنصرانية ضعف المدينة الخالدة وما تتعرض إليه من المخاطر ، ونشط خلف سرجيوس ، ليون الرابع إلى تحصينها ، وأدخل الحى المقدس وكنيستى القديس بطرس والقديس بولس فى حمى الأسوار ، وحصن هذه الضاحية التى ما زالت تسمى « المدينة الليونية » تخليداً لاسمه ، وأغلق مصب التيبر بسلسلة ضخمة من الحديد ، تحول دون تقدم الهاجمين .

وتوالت حملات المغامرين المسلمين بعدئذ على الثغور الايطالية . وكانت فى الغالب حملات ناهبة . ولكن فكرة غزو المدينة الخالدة لبثت تجول فى أذهان المسلمين أعواما أخرى . ففى سنة ٨٧٠ م (٢٥٦ هـ) نشط أمراء البحر المسلمين فى

ثغور إفريقية والأندلس إلى تجهيز حملة كبيرة . وهنالك ما يدل على أن حكومة إفريقية (حكومة الاغالبة) هى التى أشرفت على تجهيز هذه الحملة وأمدتها بالمؤازرة المادية . واجتمعت الوحدات المختلفة فى بعض ثغور سردانية، ثم قصدت إلى الشاطىء الايطالى فأثخنت فيه كعادتها ، ورست عند مصب التيبر على قيد ستة عشر ميلا من رومة . وكان البابا ليون الرابع قد عقد محالفة دفاعية مع مجمع الثغور الامبراطورية أعنى نابولى وأمالفى وجايتا ، فبادر أسطولها فى الحال إلى الزحف على سفن المسلمين تحت إمرة قائد شجاح فتى يدعى قيصر يوس . فخف المسلمون إلى لقائه . ونشبت بين الفريقين معركة بحرية كبرى فى مياه أوستيا . ولكن عاصفة هائلة هبت عندئذ فارتد الأسطول النصرانى إلى الشاطىء ، واصطدمت سفن المسلمين بعضها ببعض فغرق عدد منها . ولكن هذه الخسارة الجزئية لم ترد المسلمين عن عزمهم ، فلبثوا يهددون المدينة حتى اضطر البابا يوحنا الثامن خلف البابا ليون أن يفاوضهم فى الجلاء على أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون الف مثقال من الذهب

وهكذا كانت خاتمة المحاولة التى بذلها المسلمون لغزو مدينة القياصرة . فلم يعودوا إلى تلك المياه فى حملات كبيرة منظمة . ولم يكن فتح رومة فى ذلك العصر أمنية بعيدة المنال كفتح القسطنطينية مثلا . ولكن الخلاف كان يجثم دائماً فى طي هذه الحملات ، وكان ظمأ الكسب يغلب على فكرة الاستقرار والفتح السياسى المنظم . وكانت دولة الأغالبة فى ذلك الوقت فى طور انحلالها ، وقد بدأ حكام صقلية يعملون على فصلها عن الحكومة المركزية . أما حكومة قرطبة فكانت تعنى يومئذ بقمع الثورات الداخلية التى كانت تمزق أوصال الأندلس ، ورد غارات النورمان والفرنج ، وكانت بعيدة عن فكرة الفتوحات البحرية القاصية . فكانت فكرة افتتاح رومة فى الواقع من بنات أفكار المغامرين من أمراء البحر والبحارة المسلمين عليهم غرمها ، ولهم غنمها ، وان كانت حكومة إفريقية لم تضن عليهم كما قدمنا بمؤازرتها المادية أحيانا ، والمعنوية دائماً .

الفصل الحادى عشر

موقعة الزلاقة

سنة ٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م

لبثت اسبانيا المسلمة نحو ثلاثة قرون كتلة واحدة تخضع لحكومة مركزية هى حكومة قرطبة ، ولا تعرف داخل شبه الجزيرة من خصم سوى اسبانيا النصرانية، فلما تقوض آخر صرح للدولة الأموية الأندلسية بعد أن سلبتها الدولة العامرية سلطانها واستأثرت بتراثها ورسومها، وهوى الغاصب والمغصوب إلى اهاوية التى حفرتها يد المطامع والاهواء المضطرمة، سقطت اسبانيا المسلمة فريسة الطغيان والفوضى ، واجتاحها سيل جارف من الانحلال والتفرق ، ووثب الجوارح المتطلعون إلى الرياسة ، الطمئون إلى السلطان والملك ، بالفريسة الممزقة فأجهزوا عليها وتخاطفوا أشلاءها وشادوا فوق انقاضها دولا وأمارات عدة ، مااستقرت دعائمها حتى نشطت إلى تمزيق بعضها بعضا، وتفرغت لخوض غمار طاحنة من الحروب والمعارك الداخلية ، ولم تفق من هذا النضال حتى صرعت جملة على يد دول جديدة قامت فى الضفة الأخرى من البحر الابيض ، ووجدت فى الاندلس ميداناً خصيباً لتحقيق أطماعها فى السيادة والملك الباذخ ، ثم لقيت حتفها متعاقبة على يد عدوها القديم الذى لم يفتأ خلال القرون يتحين الفرص لاستعادة وطنه من قبضة الاسلام ورده إلى حظيرة النصرانية

هؤلاء الرؤساء الذين ورثوا ملك الدولة الأموية بالاندلس يسمون ملوك الطوائف. وقد وثبوا الى الطليعة إبان العاصفة وهم ما بين وزير سابق ، وحاكم لاحدى المدن،

وشيخ للقضاء ، وكبير من ذوى المال والحسب ، وأنشأوا لهم حكومات مستقلةوأسر ملوكية ، وسما شأن بعضهم وامتد سلطانه إلى أكثر من ولايةمن الولايات الكبيرة مثل بنى هود فى سرقسطة والثغر الأعلى (أرجوان) وبنى عباد فى أشبيلية التى سطع فيها بلاط كاد يعيد سيرة البلاط الاموى الذاهب فى الفخامة والبهاء .

وقد كان فى وسع هذه الدويلات العديدة أن تقيم سداً منيعاً فى وجه اسبانيا النصرانية لو اتحدت كلمتها أو كلمة بعضها على مقاومةالعدو المشترك . غير أنهااشتغلت عن الخطر العام الذى يهدد حياتها جميعاً بالمنازعات الشخصية والمعارك الداخلية ، بل لم يحجم بعضها عن أن يظاهر ملوك الشمال على بعضها الآخر .فلم يمض غير بعيدحتى كان معظمها يدفع الاتاوة لقشتالة وبعضها تابعا لملوك الشمال .

***

فى غمار هذه الحروب الداخلية التى كانت تمزق أوصال الدول الاندلسيةاشتد ساعد اسبانيا النصرانية ولاح لها أن حبل الاسلام قد تصرم وغدت أيامه معدودة فى اسبانيا . وكانت اسبانيا النصرانية قد التأم شملها يومئذ إلى مملكتين كبيرتين هما قشتالة وأرجوان ، وكان على عرش قشتالة ملك شديد البأس والعزم هوالفونسو السادس . وكان قد تبوأ عرشهضعيفا مهيضا بمؤازرةأمير اندلسىهو ابنعباد صاحب إشبيلية، فبدأ حكمه بالاغارة علىالممالك النصرانية الصغرى مثل ليون وجليقية ونافار ، واقتسم ما افترسه منها معحليفه سانكو الثانى ملكأرجوان. ثم تجرد للدس والضرب بين الدول الاسلامية ، ولبث يحالف أميراً على أمير ، ويغلب زعيما علىزعيم ، حتى استطاع بعزمه ودهائه أن يستولى علىمدينة طليطلة من يدأميرها يحيى بن ذىالنون وهىأول قاعدةاسلامية كبيرة سقطت فىيد اسبانيا النصرانية(سنة٤٧٨هـ — ١٠٨٥م) ودفعت حدود اسبانيا النصرانية لأول مرة الى ماوراء ضفافالتاجه . ثمرفعالفونسو القناع وبدا فى حقيقته لأولئك الأمراء المسلمين الذين ما لؤوه وزعم محالفتهم ،ودفع جيوشه نحو إمارة سرقسطة حيث أخذ ملكها أبو جعفر بن هود يدافع عن أرضه

دفاع اليائس ، وارسل من ناحية أخرى الى ابن الافطس ملك بطليوس يدعوه إلى تسليم بعض حصونه ، فرد عليه ابن الافطس رداً شديداً حازما ولكنه لم ير حوله من أمراء المسلمين من يستنصر به ، ونفذت جيوش قشتالة الى الاراضى الاسلامية واستولت على مدينة قورية وقلاعها . ثم طالب الفرنسو ابن عباد صاحب إشبيلية وأقوى أمراء المسلمين وقتئذ ، بتسليم بعض قلاعه أيضاً ، فثار ابن عباد لذلك وأخذ يتجهز للحرب ، وطرد رسل الفونسو الذين جاءوا يقبضون منه بقية مال تعهد بدفعه لملك قشتالة فى إحدى المعاهدات التى عقدت بينهما ، وأمر بكبير هؤلاء الرسل فقتل ليلا فى اشبيلية فاشتد صيحات الملك النصرانى وأغرق فى الوعيد والتجنى .

واعتزم محمد بن عباد أمره ، فجمع القادة وحشد الجند ، وأقام الحاميات ، وأصلح الحصون ، ولكنه ذهب الى أبعد من التأهب لمحاربة النصارى بمفرده فأخمد نزعة الافتئات والتغلب التى حركته على زملائه امراء المسلمين حينا ، ودفعت به الى ممالأة النصارى عليهم فى غير مرة ، وكتب الى ملوك غرناطة وألمرية و بطليوس وغيرهم من الامراء والولاة يدعوهم للاجتماع والتشاور فى دفع الخطر المشترك ، فأجاب هؤلاء الامراء الدعوة واجتمع ممثلوهم فى اشبيلية وطرحت فى هذا المؤتمر فكره خطرت من قبل لأكثر من أمير اندلسى ونفذها أمير بطليوس بالفعل وهى الالتجاء الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطى اللمتونى ملك المغرب ، واستنهاض حميته للذود عن الاسلام المحتضر فى الاندلس .

وكان أولئك المرابطون اللمتونيون قد برزوا من الصحراء فيما وراء جبال الاطلس قبل ذلك بنحو نصف قرن ، وغلبوا على قبائل الجبال المجاورة ودوخوا معاقل المغرب الاقصى تباعا ، واستولوا على سجلماسة و بلاد دارة ومصمودة ، ثم اخترقوا جبال الاطلس وهرعت القبائل من كل صوب الى الانضواء تحت لوائهم وأنشأوا دولتهم الجديده فيما بين الاطلس والبحر واختطوا مدينة مراكش لتكون قاعدة لملكهم. وكان على عرش هـذه الدولة الفتية يومئذ أمير بارع الخلال وافر العزم والحزم هو

يوسف بن تاشفين. فالى أولئك الغزاة الاشداء اتجهت أنظار الطوائف، وأجمع المؤتمرون فى إشبيلية على الاستغاثة بأميرهم الا والى مالقة فانه انفرد بمعارضة الفكره وحذرهم من استحضار أولئك البدو المتوحشين الى وديان الاندلس الجميلة خشية أن يغصوا بنعمائها وأن يضعوا فى أعناق شعوبها أغلال العبودية بعد أن يحطموا طغيان الفونسو ، ونصحهم بأن يعتمدوا على أنفسهم وعلى اتحادهم ، فما جاء ضعفهم إلا من التفرق . فلم يصغ المؤتمرون اليه ، بل قرروا الالتجاء الى يوسف بن تاشفين ، وأوفد ابن عباد اليه باسمه وباسم أمراء الاندلس سفارة وتحفا ثمينة ، وأرسل يشرح اليه ما آلت اليه دول الاندلس من ضعف ، وما أصاب الاسلام فيها من ذلة ، ويستنصره لغوث اخوانه فى الدين قبل أن يفوت الوقت ويضرب النصارى ضربتهم الاخيره .

وكان يوسف بن تاشفين وقت أن وصله رسل ابن الأفطس يلتمسون غوثه مازال مشتغلا بتوطيد النظام فى مملكته ودعوة القبائل البربرية القريبة المتجولة إلى الانضواء تحت لوائه ، فاستقبل الرسل استقبالا حسناً ولكنه صرفهم بوعود غامضة . فلما تم له ما أراد من استقرار شؤونه أخذ يفكر فى شؤون الأندلس. وهنا وصلته سفارة ملك إشبيلية ورسالته التى يشكو فيها من طغيان ملك النصارى وإغاراته المتكررة على بلاد الأندلس ، وانتهاكه للمعاهدات ، وانصراف أمراء الأندلس عن حماية البلاد إلى الفتور والدعة .

فعقد يوسف مجلساً للشورى وأجمع الزعماء البربر على اجابة ملتمس ملوك الاندلس . وكان هذا رأى ابن تاشفين أيضاً . وليس من ريب فى أن زعماء البربر كانت تحملهم نزعة من الحماسة الدينية ورغبة فى غوث الاسلام وغوث إخوانهم ، ولكن ليس من ريب أيضاً فى أن ملك المرابطين كان منذ الساعة الأولى يضطرم بأمل خفى فى بسط سلطانه على الأندلس الجميلة التى طالما سمع عنها وعن بدائعها العجائب .

ولكن يوسف بن تاشفين اشترط لاجابة الدعوة أن يعطيه ابن عباد ثغر الجزيرة حتى يكفل بذلك سلامة طريقه فى الذهاب والعودة ، فأجابه ابن عباد إلى ذلك رغم

معارضة ابنه الرشيد وغيره من الأمراء الذين توجسوا ريباً من وراء ذلك ، ثم جاز ابن عباد نفسه البحر إلى المغرب وتقدم إلى يوسف مكرراً التماس الغوث والنجدة، فصرفه ملك المغرب بأشد العهود والمواثيق .

وأوفى ملك المغرب بعهده ، وتقاطر سيل الجيوش من جميع أنحاء المغرب تجاه البحر ، وسار ملك المرابطين على رأس جيشه الجرار ، وجاز البحر إلى الأندلس ، فاستقبله ابن عباد فى الجزيرة وسلمه حصونها فاحتلتها قوة من المرابطين ،وأمر يوسف باصلاح قلعتها المنيعة ، ثم سار بجيشه نحو إشبيلية بعد ان زوده بكميات وافرة من المؤن والذخائر .

وكان ملك قشتالة فى ذلك الحين مشتغلا بمحاربة ابن هود أمير سرقسطة ومحاصرة عاصمته ، فبلغته أهبة المرابطين وعبورهم إلى اسبانيا ، فارتد من فوره عن سرقسطة،واستقدم الجند من كل ناحية،من جليقية وبسكاية واشترويش (الاوسترياس) وجمع جيوش قشتالة كلها ودعا إلى معاونته السد الكمبيادور (السيد الكنبيطور) الفارس القشتالى الأشهر ، واستغاث بملكى اراجون ونافار ، فلبى الجميع الدعوة وهرعوا إليه فى جندهم . وكان يوسف بن تاشفين ينتظر وقتئذ فى إشبيلية أهبة أمراء الأندلس ، فلما علم بأهبة ملك قشتالة وسيره نحو الأندلس خرج فى جموع البربر من إشبيلية وجيوش الأندلس تتدفق حوله من كل ناحية ،وسارت الجيوش المسلمة المتحدة إلى لقاء الجيوش النصرانية المتحدة ، فكان اللقاء فى سهل يعرف بالزلاقة على قيد أربع مراحل من بطليوس . ونظم ملك قشتالة جيشه إلى قسمين ، تولى هو قيادة الأول ، وتولى ملك نافار قيادة الثانى . ويروى أن جيش النصارى كان يضم وقتئذ زهاء ثمانين ألف فارس غير المشاة . ونظم يوسف جيوشه أيضاً إلى قسمين كبيرين يضم الأول فرسان البربر جميعاً وقد تولى قيادته داوود بن عائشة أبرع قواد البربر ، ويضم الثانى فرسان إشبيلية وغرناطة وبلنسية وبطليوس. وتولى محمد بن عباد

القيادة العامة . وتولى يوسف قيادة الجيش الاحتياطى مكوناً من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية .

وانتظم الجيشان كل تجاه الآخر لا يفصلهما سوى نهر وادى ييرا وهو فرع صغير من وادى يانا يمتد ما بين بطليوس وماردة . وكتب يوسف قبيل المعركة إلى ملك قشتالة كتابا يعرض عليه فيه الدخول فى الاسلام أو الجزية أو الحرب اتباعا للسنة . ويروى أن ورد فيه : « بلغنا يا أذفونش (الفونسو) أنك دعوت إلى الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا و بينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » ويروى أيضاً ان ملك قشتالة ألقى كتاب يوسف وقال لرسوله غاضباً : انقل لمولاك ما رأيت ، وقل له ألا يختبىء وقت المعركة لكى نلتقى وجهاً لوجه .

وفى يوم ١٤ رجب سنة ٤٧٩هـ — ٢٣ اكتوبر سنة ١٠٨٦ م ابتدأ القتال واشتبك الجيشان فى معركة عامة ، فهجم ملك قشتالة بفرسانه على جناح المرابطين الذى يقوده ابن عائشة هجمة شديدة دفعت بصفوفه إلى الاختلال والتزعزع رغم ما أبداه المرابطون من ضروب الشجاعة ، وبرز ملك نافار أيضاً فى قتاله للقوات الأندلسية التى اختل نظامها ، وتقهقر سوادها نحو بطليوس ، ولم يقف فى وجه النافاريين سوى ابن عباد وجنده . على أن الأمير الباسل لم يلبث ان أثخن جراحا ، وتفرق جنده من حوله . ورأى ملك المرابطين كفة النصارى ترجح من كل ناحية فدفع من فوره إلى الميدان بقواته الاحتياطية ، وهى نخبة جنده كما تقدم ، وقادها إلى قلب النصارى قائد من أشجع وأمهر قواده هو ابن أبى بكير ، وسرعان ما تغير وجه المعركة والتف الفارون حول القوة الجديدة ، واستأنفوا القتال وهجم يوسف على معسكر النصارى ، وكانت تحرسه قوة ضعيفة ففتك بها ، ووثب إلى مؤخرة القشتاليين وأثخن فيهم من الوراء ، فاضطر ملك قشتالة ان يرتد بقواته لملاقاة هذا الخطر الجديد ، وانتهز ابن عائشة هذه الفرصة فاندفع بقواته إلى مطاردة المرتدين ، ومن حوله الجيش الاحتياطى ، وجيوش

الأندلس تضطرم وتتدفق ، فمزقت صفوف النصارى من كل ناحيــة ، وتعالت أكوام الأشلاء والجرحى من حول ملك قشتالة ، وأصابه فى فخذه جرح بالغ ، ولم ينقذه وينقذ جيشه من الفناء سوى دخول الظلام .

وأمضى المسلمون الليل فى ميدان الحرب يرقبون حركات النصارى،وفى صباح اليوم التالى زحفت قوة من فرسانهم لمطاردة المرتدين ، وعمدت قوة أخرى إلى جمع الاسلاب ، وكانت عظيمة وافرة

ويقول بعض مؤرخى العرب إن ملك قشتالة فر مع نحو خمسمائة فارس هم بقية جيشه ، وأن المسلمين لم يفقدوا سوى ثلاثة آلاف فى حين ان النصارى قتل سوادهم الأعظم . ويقول المؤرخ أبو مروان ، وهو شاهد عيان للمعركة ، انه بعد أن قطعت رءوس القتلى طبقاً للعرف المتبع وأحصيت وجدت أربعة وعشرين ألف ، وهــذ مايشوبه كبير مبالغة إذ يجمع مؤرخو الاسبان أنفسهم على أن المعركة كانت هائلة سالت فيها دماء النصارى بغزارة . ويقرر مؤرخ عربى آخر أن رءوس القتلى التى وزعت على أمصار الأندلس كانت أربعين ألف . على ان خسائر المسلمين كانت فادحة أيضاً ، ولا سيما بين المرابطين الذين كانوا يحاربون فى أرض أجنبية.ولم تقف الجيوش الظافرة عند النصر الحاسم فى سهول الزلاقة ، بل زحفت شمالا واستعادت من النصارى كثيراً من القلاع والبلاد التى استولوا عليهامنذأعوام.وعاد ابن تاشفين إلى إشبيلية ومكث بها قليلا ثم قفل إلى المغرب لشؤون عجلت بعودته

***

وظاهر أن التقاء الاسلام والنصرانية فى سهول الزلاقة صفحة من سيرة الحروب الصليبية التى كانت اسبانيا أول مهاد لها ، والتى اضطرمت بعد ذلك فى المشرق فى نفس الوقت الذى كانت تضطرم فيه فى اسبانيا . فواقعة الزلاقة تعنى فى الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة وظفر للطوائف وحلفائهم المرابطين . ذلك ان فورة المرابطين الدينية التى اجتاحت صحارى المغرب فى فترة قصيرة ثم عبرت البحر إلى اسبانيا لنصرة

لدول المسلمة بادىء بدىء ، وانتزعتها من الطوائف بعد ذلك ، كانت عنيفة رائعة توجست النصرانية منها ، واستشفت فى اضطرامها ذلك الخطر الداهم الذى كان فى أكثر من مرة ينذر بمناهضة النصرانية فيما وراء اسبانيا. وقد جاشت اسبانيا المسلمة بهذه الفورة بعد موقعة تور (بلاط الشهداء) وخلاص النصرانية من نير الاسلام على يد كارل مارتل سنة (٧٣٢ م) أولا فى عهد الناصر لدين الله ، ثم فى عهد الحاجب المنصور ، وفى كلتا المرتين ردت اسبانيا النصرانية إلى ماوراء الجبال الشمالية ، ونفذ الاسلام إلى قاصية اسبانيا

ويشعر المؤرخون المسلمون أنفسهم بخطورة هذه الموقعة وصبغتها الصليبية ، فيحيطون حوادثها بطائفة من الأساطير الروحية ، من ذلك مايروى من أن يوسف ابن تاشفين حينما استقل سفنه فى البحر ثارت الأنواء واشتدت فدعا ربه أن يهدئها وقال ما معناه : اللهم ان كان ما أفعل خيراً وكانت رحلتى لخير الاسلام فهدىء الموج وإذا كان ما أفعل شراً يضر الاسلام ، فليكن هذا الموج معبراً عن إرادتك المقدسة فما لبثت الأمواج أن هدأت عقب الدعاء ، ودفعت سفنه نحو الأندلس ريح طيبة. ومن ذلك أن ملك قشتالة حينما كان يتأهب لمحاربة المسلمين توالت عليه الأحلام المرعبة ، فرأى ذات يوم أنه يركب فيلا قد تدلى إلى جانبه طبل يحدث صوتاً مرعباً كلما ضربه ، وأن فقيهاً مسلما من أهل طليطلة فسر له ذلك الحلم بأنه نذير بهزيمته الساحقة مشبهاً ذلك بما حدث فى عام الفيل من سحق أبرهة الذى كان يركب الفيل أيضاً ، وغير ذلك . ويضيف الرواة المسلمون إلى هذه الاساطير أن جيوش النصرانية قد سحقت فى الزلاقة سحقاً تاما ، وأن ملك قشتاله لم ينج إلا فى خمسمائة فارس من جيش يقدر بأكثر من مائة الف . وهذه مبالغة رائعة تذكرنا بمبالغة الرواة القسس عن خسائر المسلمين فى موقعة بلاط الشهداء حيث يقرر هؤلاء الرواة أنه قتل من المسلمين فى تلك الموقعة زهاء ثلاثمائة الف مسلم فى حين أنه لم يقتل من النصارى سوى ثلاثة آلاف !

على أن هذه الأساطير والمبالغات لا تثير ذرة من الريب حول أهمية هذه الموقعة الشهيرة ، ولا تنقص من شأن نتائجها الحاسمة . ففي سهول الزلاقة ارتد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة بعد ان كان ينذرها بالفناء والسحق ، وغنم الاسلام حياة جديدة فى اسبانيا امتدت إلى أربعة قرون أخر ، وسرت اليه تلك الروح الفتية القوية التى بعثت من أنقاض الطوائف بمملكة غرناطة المجيدة التى لبثت أكثر من قرنين تبهر أوروبا برائع علومها وحضارتها

الفصل الثاني عشر

السد الكمبيادور

EL - CID CAMPEADOR

وقصة مملكة بلنسية

كانت فروسية العصور الوسطى بما حوت من مبادىء العنف والسفك، وعناصر النبل والشرف، وما تميزت به من الجمع بين عوامل الحقد والتأثر والعطف والاشفاق، و بين الجرأة والخشوع والمخاطرة والايمان، من أغرب الصور التى خلقتها نظم الاقطاع، وتمخضت عنها مجتمعات تلك العصور، بل كانت هذه الفروسية تتغلغل فى المجتمع الاقطاعى الى حد أنها كانت تغلب أحياناً على كل سلطة أخرى وتسير مجتمعات هذا العصر وجماهيره طبقاً لما ينتابها من النزعات والاهواء.

ولقد تقلبت اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية فى مهاد الفروسية، وكان للفروسية فى كل منهما نصيبها من الازدهار، غير أن المعارك التى كان يضطرم لظاها بين الفروسية المسلمة والفروسية النصرانية كانت تصطبغ بلون عميق من التعصب أكثر مما تصطبغ بالقومية، وتحركها الاهواء والأغراض الشخصية أكثر مما تسيرها الاغراض العامة، بل كانت هذه النزعة الشخصية غالبة فى المعارك الداخلية التى تضطرم بين أنجاد الفروسية العربية أو الاسبانية

هذه الظواهر والمميزات تجدها ماثلة بارزة فى سيرة فارس من فرسان اسبانيا النصرانية تعتبره الرواية والأساطير الافرنجية مثلا أعلى للفروسية القومية والنصرانية—

تقول الرواية والأساطير لا التاريخ ، لأن التاريخ ، كما سترى ، يدحض الكثير من هذه الأساطير ، ويخرج البطل الاسبانى فى ثوب غير الذى تسبغه عليه الاناشيد والقصص والرواية الكنسية .

هذا الفارس الأشهر هو الدون رودريجو دياز دى بيفار المعروف فى التواريخ النصرانية بالسد الكمبيادور

*
* *

لبث السد الكمبيادور قروناً رمزاً للبطولة النصرانية والعزة القومية ، ولبثت سيرته مستقى خصباً لخيال الشعراء والكتاب ، وطبيعى أن تغلب نعرة الدين والجنس فى سير لم يتحر الدين والسياسة فى صوغها سوى إثارة التعصب الدينى والفورة القومية فى شعب كان فى هاتيك العصور يجاهد لاسترداد أرضه التى انتزعها الاسلام منه واستقر بها منذ قرون . على أننا إذا جردنا سيرة الفارس النصرانى مما يشوبها من أسباب التشيع والمبالغة وعناصر الخيال القصصى . ألفيناه صورة عادية لفروسية العصور الوسطى له من نقائصها أكثر مما له من خلالها . أما ما يمتاز به من وفرة فى الوقائع والمعارك التى خاض غمارها ، وتفوق فى الجرأه والمخاطره ، وسعة فى الجاه والسلطان فيرجع إلى ظروف عصره وإلى عوامل الشقاق التى كانت تمزق خصومه أكثر مما يرجع إلى كفايته وبراعته .

كتب تاريخ السد الكمبيادور أكثر من مؤرخ اسبانى . وكان أول من استقصى سيرته وكتبها بأسلوب تاريخى مجرد من الرواية والقصة الفونسو العاشر ملك قشتالة الملقب بالعالم ، كتبها فى أواخر القرن الثالث عشر حينما عنى بوضع تاريخ اسبانيا العام Cronica general الذى اعتمد فى كتابته على الروايات اللاتينية والاسبانية العتيقة وبعض التواريخ العربيه والمنظومات التاريخية أعنى بعد وفاة السد بنحو ثلاثة أرباع القرن على أن هذا القسم الخاص بترجمة السد يختلف اختلافا بينا فى روحه ولغته عن كل ما تضمنه تاريخ الفونسو العاشر . وقد اختلف النقدة فى تفسير هذا

الخلاف فى الأسلوب والمبنى، بيد ان أحداً منهم لم يوفق إلى إبداء رأى حاسم حتى جاء المستشرق العلامة الهولندى رينهارت دوزى الذى قضى معظم حياته فى استجلاء غوامض التاريخ الأندلسى فأثبت بمقارنات وأدلة قاطعة أن ترجمة السد هذه التى ألحقت بتاريخ الفونسو العاشر إنما هى ترجمة حرفية لسيرة كتبها مؤرخ عربى بلنسى عاش أيام السد وشهد وقائعه وحروبه، وانها تستند فى كثير من رواياتها إلى بعض رسائل ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة[1] الذى ضمنه سيرة أدباء الأندلس فى القرن الخامس الهجرى وقد وضع ابن بسام كتابه المذكور حوالى سنة ٥٠٣ من الهجرة (١١٠٩ م) فى مدينة إشبيلية أعنى بعد وفاة السد الكمبيادور بعشرة أعوام فقط . فروايته عن السد هى أقدم رواية. ومما يرفع قيمتها أن مؤلفها يستشهد فيها بشخص عرف السد حق المعرفة ووعى صفاته وأخباره ، وقد وردت هذه الرواية فى الفصل الذى كتبه ابن بسام عن ابن طاهر ملك مرسية الذى خلع من ولايتها وهاجر بعد فقد عرشه إلى بلنسية ليعيش فيها ، فقد أثبت له ابن بسام بعض رسائل كتبها عن حوادث بلنسية . واستطرد ابن بسام نفسه إلى تفصيل هـذه الحوادث باسهاب ودقة . ونفاسة هذه الرواية واضحة فاقتحام السد الكمبيادور لبلنسية أمجد صفحة فى تاريخه . وسنعود إلى مناقشة الرواية العربية فى مقامها المناسب

***

من هو السد ؟ هو فارس قشتالى يدعى، كما قدمنا، رودريجو أو راى دياز دى بيفار ويلقب بالسد . وهو تحريف للكلمة العربية « السيد » حيث كان يسميه المسلمون كذلك ، والكمبيادور [2] وهى تعنى فى القشتالية القديمة (المقاتل أو البراز) أطلقت

---

(١) وهو كتاب « الذخيرة فى التعريف بمحاسن أهل الجزيرة » وقد عثر الاستاذ « ليفى بروفنسال » المستشرق الفرنسى على نسخ خطية كاملة منه فى بعض مساجد مراكش وفاس غير تلك التى عرفها العلامة دوزى وأذاع اخيراً فى مؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى اكسفورد فى أواخر أغسطس سنة ١٩٢٨ أنه قد أصبح من الميسور أن ينشر نص كامل لكتاب الذخيرة نقلا عن هذه المخطوطات

(٢) ويسميه المقرى (القنبطور) ج ٢ ص ٥٨٨ ، ولكن ابن بسام يسميه رذريق الكنبيطور وهو أدق تعريب للاسم القشتالى « رودريجو الكمبيادور »

على السد لشجاعته وجرأته وشغفه بالقتال . وقد ولد السد فى برغش بين سنتى ١٠٢٦ و ١٠٤٥ م وأبوه لايان كالفو قاضى قشتالة فى عهد فرويلة الثانى . وليس يعرف شىء عن حداثته بل كل مافيها يرجع إلى الأسطورة والقصة . وكان بدء ظهوره عقب وفاة فرديناند الأول ملك قشتالة وليون فى سنة ١٠٦٥ م ونشوب الخلاف بين أولاده ، فقد انضم إلى ولده سانكو وسار مع قوات حليفه احمد بن سليمان ابن هود صاحب سرقسطة لمحاربة راميرو ملك أراجون الذى هزم وقتل فى جرادوس سنة ١٠٦٨ (٤٦٠ هـ) . ثم كان إلى جانب سانكو سنة ١٠٧١ حينما نشبت الحرب بينه وبين أخيه الفونسو ملك ليون فى جلبياريس ، وهزم سانكو بادىء بدء . ولكنه جمع فلوله تحت جنح الظلام وداهم أخاه بارشاد السد فهزمه وأسره

ولبث السيد يحارب إلى جانب ملك قشتالة حتى قتل هذا الملك أمام أسوار سموره (زامورا) فى العام التالى . فانتقل الى خدمة أخيه الفونسو الذى تولى عرش قشتالة أيضاً بعد قتل أخيه وأرسله الفونسو إلى بلاط المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ليحصل جزيه تعهد بنو عباد بدفعها إلى ملك قشتالة فلبث هنالك حينا ، وحمل الجزية المطلوبة وطائفة كبيرة من التحف والهدايا إلى بلاط قشتالة ولكن جماعة من أعدائه وخاصة جارسيا اردونز أحد أمراء البيت المالك وشوا به الى الفونسو ، وكان الفونسو يحقد عليه منذ تحالفه مع أخيه عليه فنفاه من بلاطه وأراضيه فى سنة ١٠٨١

وهنا يبدأ الفصل الروائى حقاً فى حياة السد الكمبيادور ويخرج السد على الفروسية والتقاليد القومية والدينية ، فيؤجر نفسه وسيفه وصحبه تارة لأمراء المسلمين ، وتارة لأمراء النصارى ، ويندس إلى كل ثوره تنشب أو حرب تضطرم هنا وهنالك ، ويطلب الغنم والسلطان وحدهما اينما مثل . وكانت ظروف اسبانيا المسلمة وقتئذ مما يفسح الميدان لاطماع مغامر كالسد ، فقد كان ملوك الطوائف الذين ورثوا ملك الدولة الاموية وشادوا دولهم الصغيره فى المدن والثغور الاندلسية ، يمزق بعضهم بعضا ، ويدس كل منهم للآخر ، ويستعين على حربه بالمرتزقة من النصارى أو بمحالفة أمير من

أمراء الشمال . وكانت هذه الخصومة الطائشة يضطرم لظاها بوجه خاص بين الامارات الشمالية التى استقر فيها بنو هود فيما بين بلنسية وسرقسطة . فالى هذا الميدان المضطرم هبط السد وجيشه من المرتزقة والتحق بخدمة المقتدر بن هود أمير سرقسطة . وكان المقتدر يسعى منذ بعيد إلى سحق أخيه المظفر أمير لارده ، فاستعان على حربه بالنافاريين (البشكنس) والكاتلان حتى ظفر به أخيراً وسجنه ، فكان المظفر أسيراً وقت أن حل السد ببلاط المقتدر . ثم توفى المقتدر بعدئذ بقليل فى سنة ١٠٨١ بعد أن قسم أراضيه بين ولديه ، فخص المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وأخاه المنذر بدانية وطرطوشة ولاردة . ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الاخوين وثارت بينهما الحرب فاستعان المنذر بسانكو راميريز ملك أرجوان وكونت برشلونه ؛ وحارب السد الى جانب المؤتمن وعاث مراراً فى أراضى خصومه وهزمهم فى النهاية عند أسوار قلعة المنارة ، ثم عاد الى سرقسطة ، فاحتفى به أهلها أيما احتفاء وبالغ المؤتمن فى اكرامه وإثابته . وكان نفر من أنصار المظفر بن هود قد خرجوا على المؤتمن نصرة لأميرهم واستغاث المظفر فى سجنه بملك قشتالة فأغاثه وأرسل الجند لقتال المؤتمن ولكن المظفر مالبث ان توفى ى سجنه وهدأت الثورة . ثم نشبت الحرب ثانيه بين المنذر والمؤتمن فسار السد إلى قتال المنذر وحلفائه وهزمهم هزيمة شنيعة وعاد إلى سرقسطة مثقلا بالغنائم والاسلاب

ثم توفى المؤتمن سنة ١٠٨٥ فخلفه ابنه المستعين والتحق السد بخدمته أيضاً . ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال السد فى خدمة هذا الامير فى بضعة الاعوام التالية ولكن الذى نعرف هو ان السد عقد مع المستعين فى سنة ١٠٨٨ اتفاقا بغزو بلنسية ، وهنا تبدأ أهم مرحلة فى مخاطرات السد الكمبيادور وهى المرحلة التى جعلت منه بطلا قوميا لاسبانيا النصرانية

*
* *

وكانت بلنسية فى ذلك الحين فريسة الاضطراب والفوضى . وكانت منذ تصرم

سلطان بنى أمية مهبط المتغلبين والطامعين ، فاستولى عليها بادىء بدء حفيد للحاجب المنصور يسمى عبد العزيز المنصور . ثم خلفه ابنه المظفر ، ولكن صهره المأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة خلعه وأسره وضم بلنسية إلى أعمال طليطلة . وكان القدر خلف المأمون ضعيف العزم والارادة ، فخرج عليه حا كم بلنسية ابو بكر ابن عبد العزيز واستقل بحكمها واحتمى بالفونسو السادس وتعهد له بجزية سنوية ، ولكن الفونسو ما لبث ان تخلى عن حماية بلنسية وباعها للقادر، ولبث بمكره ودهائه يستلب أمواله ويدس له الدسائس حتى اضطر القادر أخيراً أن يسلمه طليطلة على أن يفتتح له الفونسو بلنسية ويسلمها اليه ، ودخل الفونسو السادس طليطلة حاضرة القوط القديمة فى ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ (المحرم سنة ٤٧٨ ﻫ)وذهبت دولة بنى ذى النون وانهارت لأول مرة دعامة وطيدة من دعائم اسبانيا المسلمة . وهنا بحث ابن عبدالعزيز صاحب بلنسية عن عضد يحتمى به فلم يجد سوى المؤتمن صاحب سرقسطه ففاوضه وقدم اليه ابنته عروساً لابنه المستعين فوافقه المؤتمن واحتفل بزواج ابنه فى حفلات شائقة كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء . ثم توفى بن عبد العزيز بعد ان حكم بلنسية زهاء عشرة أعوام ، فدب الخلاف بين ولديه وفيما بين البلنسيين أنفسهم ورأى القادر بن ذى النون الفرصة سانحة لتحقيق أمنيته ، فزحف على بلنسية فى جيش من النصارى أمده به الفونسو ، وخشى البلنسيون عاقبة الحرب فسلموا إليه المدينة دون قتال ، ودخل القادر بلنسية واستقر بها ومال على أهلها وأرهقهم بالمغارم واضطرب حبل النظام والامن ، وعاث النصارى فى المدينة وما يجاورها من الأراضى حتى اضطر كثير من أشرافها أن يغادروها إلى البلاد الأخرى

فى ذلك الحين جاز المرابطون بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس فى جيوش جرارة نصرة لأمراء الأندلس وحماية للاسلام الذى كاد يسحقه نصارى الشمال ، واضطر الفونسو أن يسير فى كل جنده ، فجلا القشتاليون عن بلنسية ، والتقت جيوش الاسلام والنصرانية فى الزلاقة ، فى يوم الجمعة ٢٣ اكتوبر سنة

١٠٨٦ (١٤ رجب سنة ٤٧٩ هـ) فدارت الدائرة على النصارى وخبت حماستهم حيناً بعد ذلك ، وانتعش ملوك الطوائف نوعا .

وما كاد يجلو النصارى عن بلنسية حتى ثار حكام القلاع على القادر ، وسار المنذر بن هود صاحب دانية لغزو بلنسية ، فاستغاث القادر بالمستعين صاحب سرقسطة ورأى المستعين الفرصة سانحة للاستيلاء على بلنسية ، فتعاهد سراً مع حليفه السد على أن يتعاونا على افتتاحها ، وأن تكون الاسلاب كلها من نصيب السد ، والمدينة ذاتها من نصيب المستعين . وكان جيش السد فى ذلك الحين يبلغ زهاء ثلاثة آلاف . فلما علم المنذر بذلك رفع الحصار عن بلنسية قبل أن يقدم اليها خصومه وعاد أدراجه

أما المستعين والسد فسارا إلى بلنسية . وهنا يكشف السد القناع عن حقيقة خلاله ، فنراه مغامراً لاذمام له يبيع العدو والصديق معاً . ذلك أنه تلقى من القادر فى الخفاء تحفاً ثمينة ، فماطل فى غزو المدينة بحجة أن القادر مستظل بحماية الفونسو وأن محاربته محاربة لألفونسو . ونصح القادر سراً بألا يسلم المدينة لأحد ، ووعد المستعين والقادر كل بمعزل عن الآخر انه سيعاونه على فتح بلنسية فى الفرصة الملائمة ثم أرسل فى نفس الوقت إلى الفونسو يؤكد له خضوعه واخلاصه ، ثم زار قشتالة وتفاهم مع ملكها فأقطعه بعض الحصون ، وأقره على ولاية كل ما يفتتحه من أراضى المسلمين لتكون ملكا له ولعقبه . على أنه ما لبث ان فقد هذه الحظوة عند ملك قشتالة لمطله فى اجابة دعواته بالسير معه إلى محاربة المرابطين ، وفقد منصبه فى نفس الوقت فى بلاط سرقسطة مذ ارتاب المستعين فى إخلاصه ومشاريعه

عندئذ أصبح السد قائد جيش من المرتزقة أو بالحرى رئيس عصابة ناهبة تجوب أنحاء الولايات الشرقية الشمالية طلباً للاغتنام والسلب . وتوترت العلائق بينه وبين جميع الأمراء والحكام فى تلك النواحى ، وأخذوا جميعاً يدبرون محاربته وسحقه ، وكان أنشطهم الى ذلك الكونت برنجر أمير برشلونة ، ولكن السد

هزمه وأسره مع نفر من بطانته ولم يطلقهم إلا مقابل فدية كبيرة ثم تحالفا بعد ذلك ، وكان السد قد غدا وقتئذ مثار الخوف والروعة فى هاتيك الأنحاء وفرض الاتاوة على معظم المدن والقلاع .

وكان الفونسو يتوق إلى معاقبة السد لمطله وخياناته المتعددة فلم ير خيرا من أن يفتتح بلنسية التى كان السد فى الواقع سيدها الحقيقى ، وبذلك ينزعه أثمن مصدر لسيادته ونفوذه ، فحاصرها من البر والبحر سنة ١٠٩٢ م ، ورأى السد أن خير وسيلة لارغامه على رفع الحصار ، هى أن يعيث فى أراضى قشتالة ذاتها ، فاجتاح منها منطقة شاسعة ، وانقض على مدنها وقلاعها انقضاض الصاعقة يمعن فيها قتلا وتخريباً حتى اضطر الفونسو أن يرفع الحصار وأن يعود ادراجه .

***

فى ذلك الحين اشتد الاضطراب فى بلنسية ، واعتزم البلنسيون أن يحطموا نير الاستعباد الذى فرضه السد على المدينة . وكان قاضى المدينة ابن جحاف يثير فى الجموع روح الثورة ، ويتطلع إلى انتزاع السلطة . وكان المرابطون قد اقتربوا من مقاطعة بلنسية باستيلائهم على دانية ومرسية ، ففاوض ابن جحاف قائد المرابطين ابن عائشة ووعده ببلنسية إذا ساعده على محاربة القادر والسد ، ووافقه ابن عائشة على ذلك ، وفى ذات يوم وفدت شرذمة من جند المرابطين على المدينة ، فاشتد بها الصياح والاضطراب ، وقاد ابن جحاف جموع الثائرين ، وقبض على ابن الفرج مندوب السد فى المدينة ، وبحث عن القادر الذى فر من قصره حتى عثر به وأمر بقتله فقتل ونهب قصره . وآلت السلطة بذلك إلى « الجماعة » واختير ابن جحاف رئيساً لها فتولى زمام الأمور وأخذ يحشد الجند ويحصن المدينة . وكان ذلك فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ .

وسرعان ما علم السد بذلك وولى شطر بلنيسة ، فاجتمع اليه أنصار الملك المقتول وفرض المغارم والأقوات على الحصون الواقعة فى طريقه . ووصل إلى ظاهر بلنسية

فى منتصف سنة ١٠٩٣ بعد أن أحرق ما حولها من الضياع والمروج ، ولم تمض أيام حتى استولى على معظم الأنحاء القريبة وانقض على المرابطين والبلنسيين فأمعن فيهم قتلا وجرحا ، واقتحم «الكدية» ضاحية المدينة ، واضطر أهلها إلى الاذعان والصلح ، ثم ضيق الحصار على المدينة ذاتها . فآثر البلنسيون الصلح ، وفاوض ابن جحاف السد وانتهى الأمر بعقد الصلح على أن يغادر المرابطون المدينة ، وأن تدفع إلى السد جزية شهرية قدرها الف دينار ، ولم يمانع المرابطون فى ذلك لما تولاهم من السأم فى بلد لا تهدأ له ثائرة . وعاد السد فرابط بجيشه فى قلعة كبولا غير أنه لبث يتردد على ضواحى المدينة ويرهق ابن جحاف بشروطه ، وابن جحاف يعانى فى نفس الوقت من الاضطراب الداخلى ومن خروج بنى طاهر أصحاب مرسية السابقين عليه الى أن بالغ السد فى مطالبه واشترط على ابن جحاف أن يسلمه كل موارد المدينة وأن يقدم ابنه رهينة . ولكن ابن جحاف أبى الاذعان وأغلق أبواب المدينة . وكتب إلى ملك سرقسطه يستصرخه للغوث . فأرسل اليه المستعين يعده خيرا ، واستغاث أيضاً بالفونسو السادس فوعده كذلك . واعتزم ابن جحاف مقاومة السد إلى آخر لحظة ، واستؤنفت الحرب . فضرب السد حول المدينة حصاراً صارما ، وعاث فى الأنحاء المجاورة ، ولم يأل وسيلة فى قطع الأقوات عن المدينة خوفا من أن تمتنع عليه حتى يدهمه المرابطون . ولبث الحصار على هذا النحو عشرين شهراً حتى ضاق البلنسيون ذرعاً ، وفتك الجوع بهم أيما فتك ، وغدوا كالأشباح هزالا . وهنا اجتمع أعيان المدينة وأرغموا ابن جحاف على أن يفاوض السد فى عقد الصلح فأذعن . وترك لهم أمر المفاوضة . فذهب وفد منهم لمفاوضة السد . وتم الاتفاق على ما يأتى : أن يبعث البلنسيون برسلهم إلى ملك سرقسطة وإلى ابن عائشة قائد المرابطين يستنجدونهما لغوث بلنسية فى ظرف خمسة عشر يوما ، فاذا لم يحضر أحدهما لنجدتها فى هذه المدة سلمت المدينة بالشروط الآتية : أن يبقى ابن جحاف حاكما للمدينة وأن يؤمن على نفسه وماله وأسرته ، وأن يتولى مندوب السد الاشراف على الضرائب

وأن تحتلها حامية من النصارى المستعر بين الذين يعيشون بين المسلمين ، وأن يرابط السد بجيشه فى كبولا ، وألا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها . وعلى ذلك عقدت الهدنة وسافر الرسل فى طلب النجدة . ولكن مضت الخمسة عشر يوما قبل أن يعود أحد منهم ، ففى الغداة خرج ابن جحاف ومعه أعيان المسلمين والنصارى ووقعوا عهداً بتسليم المدينة بالشروط المتقدمة . وفى ظهر هذا اليوم ، يوم ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤م (٤٨٧هـ)—فتحت بلنسية أبوابها للسد الكمبيادور وجنده القشتاليين فدخلوها واحتلوا أبراجها خلافا لشروط المعاهدة، وجمع السد أشراف المدينة وألقى فيهم خطاباً وعد فيه أن يسير شؤون المدينة بالعدل ، وأن يستمع لظلامات الأهالى ، وأن يحميهم ، وأن يرد إلى كل ذى حق حقه ، إلى غير ذلك من الوعود الخلابة . ومع ذلك فقد احتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها . ولم يستمع سامع إلى تذمر أو ظلامة ، وبدا السد فى ثوبه الحقيقى فأمر أشراف المدينة أن يسلموا اليه القاضى ابن جحاف ، فقبضوا عليه وعلى أفراد أسرته وقدموهم اليه فزجهم فى السجن. وجعل إقامته فى القصر السلطانى واحتل جنده القشتاليون كل حصون المدينة ، وبذلك نقض كل شروط المعاهدة . ثم عمد السد إلى تعذيب القاضى ابن جحاف، واستلب كل أمواله ، ثم أمر بحرقه فأحرق علناً مع نفر من أسرته ، وأحرق أيضاً الأديب أبا جعفر الباطى . ومال السد بعد ذلك على البلنسيين فأذلهم وأرهقهم بالمغارم وصنوف الاضطهاد ، فغادر بلنسية معظم أهلها المسلمين واحتل النصرى احياءهم وغدا السد الكمبيادور كأنه ملك متوج باستيلائه على ثغر من أعظم الثغور الاسبانية .

*

لم يطل ملك السد فى بلنسية ، فقد لبث بضعة أعوام يعيث بجيشه فى تلك الأنحاء ، وحالف بطرس الأول ملك أرجوان ، واستولى على بعض الحصون القريبة وأخذ يدبر المشاريع الضخمة ، ولكن المرابطين كانوا ساهرين يرقبون حركاته فعادوا إلى مرسية ، واعتزموا استعادة بلنسية واشتبكوا مع جيش السد فى عدة

معارك محلية وهزموه فى شاطبة . وكان السد قد اشتد عليه المرض فى ذلك الحين فتوفى غما وألما فى يوليه سنة ١٠٩٩ . وزحف المرابطون على بلنسية ، ولكن شمينا زوجة السد تولت مكانه الدفاع عن المدينة واستطاعت أن تنوم بذلك مدى عامين . ولكن جيشاً ضخماً من المرابطين بقيادة أميرهم المزدلى المرابطى أشرف على أسوار المدينة فى شهر اكتوبر سنة ١١٠١ فاضطرت شمينا وأصدقاؤها إلى مغادرة المدينة ولكن بعد أن أحرقوها وتركوها أطلالا دارسة ، وحملت شمينا معها جثة زوجها لتدفنها فى أرض نصرانية . وفى ٥ مايو سنة ١١٠٢ استعاد المرابطون بلنسية ووقفت بذلك مغامرات النصارى فى تلك الأنحاء حيناً

***

هذه هى قصة السد الكمبيادور ، قصة فارس جرىء مغامر يجمع فى خلاله كل رذائل عصره ، لا قصة بطل خارق وقديس . ولكن الآداب النصرانية ، والقشتالية بوجه خاص تحاول أن تصور منه مثلا أعلى للبطولة القومية ، وتحيط تاريخه بطائفة كبيرة من الأساطير العجيبة ، فيروى مثلا ان الأهالى كانوا يعتبرونه قديساً ويحجون إلى تابوته ليتبركوا بجثته التى حنطت وأودعت تابوتاً مفتوحاً فى كنيسة سان بيدرو دى كاردينا ، وأن يهودياً حاول مرة أن يمس الجثة فتحركت يدها اليمنى وقبضت على السيف الذى كانت تعتقله فسقط اليهودى مرتاعا . ثم دفنت الجثة بعد ذلك ونقلت مراراً إلى أماكن مختلفة . ويروى ان تابوت السد فتح فى أيام شارل الخامس سنة ١٥٤١ فانتشرت منه رائحة ذكية ووجدت الجثة ملفوفة فى رداء عربى ومعها سيف ورمح ، وكان الشرق عظيما فى تلك الآونة ، فما فتح التابوت حتى هطل مطر غزير روى جميع أرجاء قشتالة الى غير ذلك من الأحاديث الخرافية

***

نعطف بعد ذلك على الرواية العربية التى يرجع الفضل اليها فى تسجيل تاريخ

السد الحقيقى ، والتى بقيت ترجمتها القشتالية فى تاريخ الفونسو العام مصدراً أوحد لهذا التاريخ . هذه الرواية العربية التى أثبت المؤرخ المستشرق دوزى كما قدمنا أنها أصل للرواية القشتالية ، كتبها على ما يستفاد من سياقها كاتب بلنسى عاش أيام السد ، ووقف على سيره وأعماله . ولما كانت هذه الرواية تقف عند دخول السد بلنسية فان دوزى يرتاب فى أن كاتب السيرة قد لقى حتفه فى الاضطرابات التى وقعت عندئذ ، بل يرتاب فى أنه قد يكون الأديب أبا جعفر الباطى الذى أحرقه السد مع من أحرق من أعلام بلنسية عقب افتتاحها . وقد فقدت هذه الرواية العربية ولم تبق منها إلا ترجمتها القشتالية التى يشهد روحها وأسلوبها بأصلها العربى . ولكن بقيت لدينا رسالة ابن بسام التى وردت فى كتابه « الذخيرة » وأتى فيها على لمحة من سيرة السد وأعماله وصفاته وخصوصاً أيام ثورة ابن جحاف . وأول مايذكر ابن بسام السد الكمبيادور فى هذه العبارة : « ومد لأبى عبد الرحمن بن طاهر هذا فى البقاء حتى تجاوز مصارع جماعة الرؤساء وشهد محنة المسلمين ببلنسية على يدى الطاغية الكنبيطور قصمه الله ، وجعل بذلك الثغر فى قبضته سنة ٨٨ » ثم يستطرد ابن بسام بعد ذلك إلى ذكر سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس ، وسقوط بلنسية فى يد السد فى عبارة مسجعة ولكن قوية بليغة . ويبدأ بذكر التحاق السد بخدمة ابن هود ويصفه فى هذه العبارة : « ولما أحس أحمد بن يوسف ابن هود المنترى إلى وقتنا هذا على سرقسطة بعساكر أمير المسلمين (يشير إلى المرابطين) تقبل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلباً من أكلب الجلالقة يسمى برذريق ويدعى بالكنبيطور . وكان عقالا ، وداء عضالا ، له فى الجزيرة وقائع على طوائفها بضروب المكروه اطلاعات ومطالع . وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه من الخمول مستظهرين به على بغيهم الطويل ، وسعيهم المذموم المخذول ، وسلطوه على أقطار الجزيرة يضع قدمه على صفحات أمجادها ، ويركز علمه فى أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها وأدانيها شره ..» ثم يصف

افتتاح السد لبلنسية فى قوله : « وقوى طمع رذريق فى ملك بلنسية فلزمها ملازمة الغريم ، وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم ، ينسف أقواتها ، ويقتل حماتها ، ويسوق اليها كل منية ، ويطلع عليها من كل ثنية . فرب ذروة عز قد طالما بلدت الأمانى والنفوس دونها ، ويئست الأقمار والشموس من أن تكونها ،قد ورد لذلك الطاغية يومئذ معينها ... وتم للطاغية مراده الذميم من دخول بلنسية سنة ٨٨ على وجه من وجوه غدره ، و بعد اذعان من القاضى المذكور (يشير إلى ابن جحاف) لسطوة كبره ، ودخوله طائعاً فى أمره ، على وسائل اتخذها وعهود ومواثيق بزعمه أخذها لم يمتد لها أمد ولا كبر لأيامها عدد » ثم يلخص خلال السد فى هذه العبارة القوية « وكان هذا البائقة وقته فى درب شهامته ، واجتماع حزامته ، وتناهى صرامته ، آية من آيات ربه » . ويستطرد ابن بسام بعد ذلك إلى ذكر افتتاح المرابطين لبلنسية طبقاً لما فصلنا . وترى مما تقدم أن عبارته المسجعة المنمقة لم تمنع من دقته فى ترتيب الوقائع التاريخية وضبطها

نستطيع إذن أن نرجع فى هذا القسم من تاريخ اسبانيا النصرانية إلى مصدر عربى ثقة هو المصدر الوحيد كما رأينا لتاريخ الكمبيادور . وقد رأيت أن ظروف اسبانيا المسلمة ، وما دهاها يومئذ من الخصومات والحروب الأهلية هى التى مهدت سبيل الظفر والفخار للفارس القشتالى ، فاستطاع بجرأته ودهائه أن يستثمر هذه الخصومة إلى الذروة وأن يجنى من المغامرة والخيانة والدس مالم تجنه الجيوش الجرارة

الفصل الثالث عشر

الفروسية الاسلامية يوم مصرع غرناطة

موسى بن أبي الغزان فارس الأندلس القومى

قد لاتجد فى صفحة من صفحات التاريخ الاسلامى ماتجد من جمال وأسى فى حوادث سقوط غرناطة الأندلسية ، ففى تلك الحوادث المشجية ضروب روائع من البسالة ، وتقديس الحرية والكرامة القومية ، والتفانى فى الذود عن الوطن ، :قصة شعب نبيل ، تالد ، شاد صروح عظمته وحضارته فى تلك المهاد قرونا ، ولبس أحقابا سيد الجزيرة يجوس خلالها فى كبرياء وعزة ، فاذا به ذات يوم يضعف أمام عدوه، ثم يفقد قواعده الزاهرة واحدة فأخرى ، ثم يصبح فلا يجد من نفسه إلا بقية ممزقة دامية ، تمتنع بين أسوار آخر معقل اسلامى هو غرناطة

ومن ثم كان جمال المعركة وكانت روعتها : غرناطة التى لبثت قروناً سيدة الأندلس ، تشرف من حمرائها على مصاير شعب عظيم عزيز الجانب ، وترسل من معاهدها ومدارسها ضوء العلوم والفنون إلى جنبات الجزيرة والى جنوب أوربا ، وفيها للاسلام دولة، تجد نفسها فى سنة ١٤٩١ ، فريدة منبوذة من كل ناصر تحيط بها جيوش النصرانية من كل صوب ظمئة إلى حرياتها ، متطلعة إلى حمرائها،فتشهد بذلك معركة الفصل ، ومصرع الاسلام فى ديار الأندلس ، ويكتب عليها أن تكون قبراً لهذه الأندلس وحضارتها الزاهرة ، وفنونها وعلومها ، وكل أسباب مجدها وعظمتها

ولكن غرناطة لم تستسلم لهذا القدر القاهر قبل أن تستنفد فى اجتنابه كل وسيلة بشرية . ومن ثم كان دفاعها من أمجد ماعرف تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة . وأجمل مافى هذه السيرة قصة فروسيتها التى لبثت أشهراً تزعج العدو والمحاصر فى مرابطه ، وتفسد عليه خططه وتدابيره : اولئك الأمجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسية الأندلسية التى لبثت قرونا زهرة الفروسيات فى العصور الوسطى .

وكان روح الفروسية المسلمة فى تلك الآونة العصيبة فارساً رفيع المنبت والخلال، وافر البراعة والشهامة ، هو موسى بن أبى الغزان . وكان ينتمى إلى أحد الفروع الملكية ، إلى أحد هذه الأصول القديمة التى عرفت برائع فروسيتها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتى كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن تصبح غرناطة الغراء الزاهرة مهاداً للكفر . ولم يكن بين أمجاد غرناطة يومئذ من هو أبرع من موسى فى الطعان وركوب الخيل . وكان جماله وظرفه و براعته موضعاً لاعجاب سيدات الأندلس . وكان منذ اعتلى أبو عبد الله محمد عرش غرناطة ينقم منه استسلامه وخضوعه لملك قشتالة (فرديناند الخامس) و يعمل على إذكاء الروح الحربى فى غرناطة باقامة المباريات والحفلات العامة ، وقيادة السريات إلى أراضى العدو ، ومفاجأة قلاعه وحامياته فى الانحاء المجاورة . وكان وقت أن أشرف فرديناند الخامس بجموعه على وديان غرناطة وأرسل إلى أبى عبد الله يدعوه إلى التسليم ، معبود الفروسية الغرناطية ، التى تأثرت بحميته وحماسته ، واتخذته لها مثلا أعلى . عندئذ كانت صرخة موسى : « ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح، فاذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية . أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة، فى المكان الذى أموت مدافعاً عنه ، من أفخم قصور تغنمها بالخضوع لاعداء الدين» وسرعان ماضج الشعب حماسة ، وسرت إلى غرناطة روح الحرب مرة أخرى وتأثر المجلس بالحماسة العامة فأرسل إلى ملك النصارى يخبره بأنهم يؤثرون الموت على تسليم المدينة

دوت غرناطة بجلبة الحرب ، وتولى موسى قيادة الفروسية التى دربها دربة بديعة، وقادها مراراً إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة حتى غدا اسمه مثار الرعب على الحدود ، وكانت عوداته الظافرة تثير فى العامة أيما حماسة . وكان فرديناند قد بدأ يرسل سرياته لاتلاف ماحول المدينة من مزارع وحدائق تمهيداً للحصار ، فكان موسى ينظم السريات لازعاج قواته ، وقطع مواصلاته ، وانتزاع مؤنه ، ولكن جيوش النصارى مالبثت أن ملأت وديان شنيل (النهر الذى تقع عليه غرناطة) واعتزم فرديناند الخامس ألا يدخر وسعاً، وألا يرفع الحصار حتى تسلم آخر المدن المسلمة . وكان موقف غرناطة حرجا جداً ، فان جميع المدن الأخرى التى كانت تؤلف قصبتها مثل مالقه وبازة وقعت فى قبضة النصارى وسلم مولاى عبد الله « الزغل » (عم ملك غرناطة) ملك البشرات ووادى آش جميع أراضيه ، وقطعت علائق غرناطة مع البر والبحر من كل ناحية . ورابطت سفن النصارى فى مضيق جبل طارق وما حوله لتحول دون وصول أى مدد من مسلمى أفريقية . ومع ذلك فقد أوصدت المدينة المسلمة أبوابها ولبثت اشهراً تعانى مصائب الحصار صابرة جلدة حتى تقدم حاكمها (أبو القاسم عبد الملك) ذات يوم إلى المجلس وقرر إن المؤن الباقية لاتكفى إلا لبضعة أشهر، وإن اليأس قد دب الى قلوب الجند والعامة. وان الدفاع عبث لايجدى . ولكن ابن أبي الغزان اعترض كعادته بشدة وقرر إن الدفاع ممكن وواجب و بث بادرة جديدة من الحماسة فى الرؤساء والقاده ، فاستسلم أبو عبد الله إلى تلك الروح ، وسلم إلى القادة أمر الدفاع . وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ، وكان من مساعديه نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة وهما من أنجاد عصرهما ، ثم أمر بفتح الأبواب وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فاذا اقتربت سرية من النصارى ،داهمها بفرسانه فى لمح البرق وكثيراً ما كان يمزق على هذا النحو سريات برمتها من النصارى، ويفتك بها شر فتك، وكان يقول لفرسانه . « لم يبق لنا إلا الأرض التى نقف عليها ، فاذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن »

ثم رأى فرديناند الخامس ذات يوم أن يزحف بقواته على أسوار المدينة فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم أبو عبدالله وموسى، ونشبت بين الفريقين فى البساتين الواقعة فى ظاهر غرناطة عدة معارك محلية هائلة. وكان الفرسان كالعادة روح المعركة ، وكان موسى يثب هنا وهنالك ليحيي جنده ويشجعهم . وكان أبو عبدالله يقود الحرس الملكى ، وكان القتال رائعاً خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين ولكن مشاة المسلمين كانوا ضعافا لا يعتمد عليهم ، فسرعان ما مزقوا وفروا هنا وهنالك ،وتبعهم فرسان الحرس الملكى إلى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبو عبدالله ، وعبثا حاول ابن أبى الغزان أن يقف المشاة وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ما هو مقدس لديهم . بل ألفى نفسه وحيداً فى الميدان مع فرسانه المخلصين وقد تضاءل عددهم ، وأثخن الباقون منهم جراحا .فاضطر عندئذ أن يرتد إلى المدينة وصدره يرتجف غضباً ويأساً .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة ، وتمنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين . وأبدى النصارى وطيد عزمهم على متابعة الحصار بانشاء منازل للجند فى المعسكر أمام المدينة المحصورة ، وشددوا فى قطع مواصلاتها شدة متناهية . ثم جاء الخريف فلم يحصد المسلمون شيئاً من الحقول المجدبة التى سودها النصارى بالنار والسيف فقلت لديهم المؤن قلة مخيفة وكشر لهم شبح الجوع عن أنيابه المروعة ،ودب اليأس إلى قلوب الناس جميعاً . فدعا أبو عبدالله مجلساً من كبار الضباط والفقهاء والأعيان فاجتمعوا فى بهو الحمراء الكبير ، واليأس ماثل فى وجوههم ، وشرح لهم أبوالقاسم عبد الملك حاكم المدينة حالتها التعيسة ونضوب مؤنها وفاقة أهلها ، وصرح الجماعة بأن الشعب لا يقوى بعد على تحمل مصائب الدفاع ، وأن ليس لهم إلا التسليم أو الموت، وأجمعوا على طلب التسليم . ولكن موسى ابن أبى الغزان انفرد كعادته بالمعارضة وقال : لم يحن الوقت بعد للكلام عن التسليم فلم تنضب كل مواردنا بل ما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات ، ذلك هو يأسنا . فلنعمل

على اثارة الشعب ، ولنضع السلاح فى يده ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، و إنه لخير لى أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها ! »

على أن كلماته لم تؤثر فى تلك المرة ، فقد كان يخاطب رجالا نضب الأمل من قلوبهم ، وغاضت فيهم كل حماسة ، ووصلوا إلى حالة من اليأس لا تنجح فيها البطولة ولا يحسب فيها للابطال حساب ، بل يعلو نصح الشيوخ و يغلب ، وهكذا حدث فان أبا عبدالله أصغى الى رأى الجماعة واعتزم التسليم ، وأرسل أبا القاسم عبد الملك الى ملك النصارى ليفاوضه فى الشروط . فاستقبله فرديناند الخامس بحفاوة ، ولبثت غرناطة ترتجف من أقصاها إلى أقصاها حتى عاد الوزير يحمل آخر الشروط التى رضيها ملك النصارى وخلاصتها : هو أن يقف القتال بين الفريقين سبعين يوما اذا لم تصل خلالها امداد الى المسلمين سلمت غرناطة ، وأن يطلق سراح كل الأسرى من النصارى بلا فدية وأن يقسم أبو عبد الله وكبار الضباط يمين الطاعة لملك قشتالة وأن يوهب لملك المسلمين بعض ضياع فى البشرات يعيش من دخلها ، وأن يغدو مسلمو غرناطة رعايا لملك قشتالة محتفظين بأملاكهم وسلاحهم وخيلهم ، وألا يسلموا منها شيئا سوى المدفعية ، وأن يكونوا أحراراً فى اقامة شعائرهم والاحتكام الى شريعتهم وقضاتهم تحت سلطة حكام يعينهم ملك النصارى ، وأن يسمح لمن شاء منهم العبور الى أفريقية فى ظرف ثلاثة أعوام ، وأن يقدم أربعمائة من أعيان المدينة وصفوة أبنائها كفالة بتنفيذ هذه الشروط

هذه هى خلاصة الشروط التى قدمها النصارى الى المسلمين . وهى فى الواقع شروط حسنة لولم تثبت الحوادث بعد انها لم تكن سوى شرك للظفر بغرناطة وخديعة شائنة للتنكيل بمن بقى من مسلمى الأندلس ، اذ يعرف الناس جميعاً أن ملك النصارى لم يف بشرط واحد منها ، وأنه أسلم أعناق المسلمين وأملاكهم وحرياتهم الى عسف مجلس التحقيق وشهواته الوضيعة ، وأنه لم تمض أعوام قليلة بعد التسليم

حتى أرغم المسلمون على نبذ دينهم ، وحرقوا ، وقتلوا ، وعذبوا ، وشردوا . وهذا ما تنبأ به موسى بن ابى الغزان حينما اجتمع الكبراء فى الساعة العصيبة التى أتوا ليوقعوا فيها قرار التسليم وليحكموا على دولتهم بالذهاب ، وأمتهم بالمحو . عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل . ولكن موسى لبث وحده ، هادئاً ، صامتاً عابساً ، وقال : « أتركوا أيها السادة العويل للنساء والأطفال . نحنْ رجال لنا قلوب لم تخلق لارسال الدمع ولكن لتقطر الدماء . وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ الدولة . ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة — ذلك هو موت مجيد ! فلنمت دفاعا عن حريتنا ، وانتقاماً لمصائب غرناطة . وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته فانه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشالله ان يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعا عنها ! »

ثم صمت موسى ، وساد المجلس سكون كسكون الموت ، وسرح أبو عبدالله البصر حوله ، فاذا به يرى اليأس ماثلا فى تلك الوجوه التى أضناها العناء ، ويشعر بأن كل حماسة قد غاضت فى تلك القلوب الكسيرة الدامية . عندئذ صاح « الله أكبر ، لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، ولاراد لقضاء الله . تالله لقد كتب على أن أكون شقيا ، وأن يذهب الملك على يدى » وصاح الكبراء على أثره « الله أكبر ! ولاراد لقضاء الله ! » وكرروا جميعاً انها ارادة الله ولتكن ، وإن لا مفر من قضائه ولا مهرب ، وإن شروط ملك النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى ابن أبى العزان انهم هموا بتوقيع صك التسليم نهض مغضباً وصاح : « لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم،ولا تركنوا الى شهامة ملكهم . إن الموت أقل ما نخشى . فامامنا نهب مدينتنا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وخراب بيوتنا ، وهتك نسائنا و بناتنا:وأمامنا الجور الفاحش والتعصب الوحشى ، والسياط والاغلال ، وأمامنا السجون ، والانطاع ، والمحارق:

هذا ما سوف نعانى من مصائب وعسف ، وهذا ما سوف تراه على الأقل هذه النفوس الوضيعة التى تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا فوالله لن أراه ! » ثم غادر بهو المجلس ، واخترق « بهو الاسود » عابساً حزينا ، ثم جاز الى أبهاء الحمراء الخارجية دون ان ينظر الى الحراس والحشم أو ينبس ببنت شفة . ثم ذهب الى داره ودجج نفسه سلاحاً ، واقتعد غارب جواده المحبوب، واخترق شوارع غرناطة حتى غادرها من باب ألبيرة ولم يره انسان أو يسمع به بعد ذلك قط .

هذا ماتقوله الرواية العربية عن نهاية موسى بن أبى الغزان، ولكن مؤرخا اسبانيا قديماً هو القس انطونيو أجابيدا يحاول أن يلقى ضياء على مصيره فيقول إن كوكبة من الفرسان الاسبان تبلغ زهاء الخمسة عشر ، كانت تسير فى ذلك المساء بعينه على ضفة نهر «شنيل» فرأوا على ضوء الشفق فارساً مسلماً يدنو وقد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه . وكان معلقا خوذته ، شاهراً رمحه . وكان جواده القوى غارقا مثلة فى رداء من الصلب . فلما رأوه يعدو على ذلك النحو طلبوا اليه أن يقف وأن يعرف بنفسه . فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم ، وطعن أحدهم برمحه وانتزعه من سرجه فألقاه الى الأرض ، ثم انقض على الباقين . وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح ، ولم يرد الا أن يقتل وان يسيل الدم ، وكأنه انما يقاتل للانتقام فقط ، وكأنما يتوق الى أن يقتل دون رغبة فى أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان حتى أفنى أكثر من نصفهم . غير انه جرح فى النهاية جرحا خطراً ثم سقط جواده من تحته قتيلا بطعنة أخرى ، فسقط على الأرض ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره وأخذ يناضل عن نفسه غير انه لما رأى قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيراً فى يد خصومه ارتد الى ورائه بوثبة أخيرة ، وألقى بنفسه الى مياه النهر ، فابتلعه لفوره ، وحمله سلاحه الثقيل الى أعماق النهر

يقول الراوية المذكور ، إن هذا الفارس هو موسى بن أبى الغزان وإن بعض

العرب المتنصرين فى المعسكر الاسبانى عرفوا جواده المقتول . وفى ايضاحه مسحة من الرجاحة غير أن الحقيقة لم تعرف قط .

***

هذه قصة موسى بن أبى الغزان ،قصة فارس مسلم ،يمثل أسمى ضروب الفروسية والبراعة ، وأجمل معانى التضحية والاخلاص والاباء ، والشهامة ، واذا كانت الأساطير الاسبانية قد صورت السيد الكنبيطور (السد الكمبيادور) مثلا أعلى للبطولة والفروسية النصرانية وجعلت منه فارس اسبانيا القومى ، فان فى سيرة الفارس الغرناطى المؤسية ، وفى خلاله الرفيعة ما يجعله بحق مثلا أعلى للفروسية الاسلامية ، ومن ثم مايجعله فارس الأندلس القومى

الفصل الرابع عشر

قصة الموريسكو

ومصرع الحضارة الأندلسية

ثمانية قرون كاملة من نضال يذكو أواره بين الاسبان والعرب ، وصراع مضطرم بين الاسلام والنصرانية ، وفورات متعاقبة فى سبيل السيادة والملك ، ودول وأمارات متوالية كبرى وصغرى تتنازع ميراث الدولة الأموية ، وجهاد مستمر لاستخلاص الحريات القومية من الفاتح المغير ، واستبسال الفاتح فى الحرص على غنمه ، والذود عن دينه ومدنيته : هذه هى أدوار المأساة الاسبانية فى عهد سيادة العرب والاسلام فى اسبانيا وازدهار الحضارة الأندلسية التى كان ضوؤها يبهر أمم النصرانية فى العصور الوسطى

وإذا كان لنا أن نعجب بذلك الجهاد المستمر الذى شهرته اسبانيا النصرانية على اسبانيا المسلمة ، وتقدمها خلال القرون فى سبيل استرداد أوطانها وسيادتها بخطوات ثابتة ، وان بطيئة ، ومهارتها فى الاستفادة من كل تفرق وخلاف يعصف بالدولة الاسلامية ، واتحاد أمرائها و إماراتها على مقاومة كل وثبة جديدة للأندلس ونبذهم كل نزاع داخلى كلما أنذرهم خطر مشترك ، أو دهمتهم مصيبة عامة — إذا كان لنا أن نعجب بكل ذلك ، فان لنا أيضاً أن نسجل على اسبانيا المستردة لاوطانها ، الظافرة بعدوها ، أخطاء فادحة يعتبرها التاريخ وصمات شنيعة ، بل جرائم ، كان لها من الآثار العميقة الهادمة فى تاريخ الأمة الاسبانية مالم تستطع أن تغالبه وتتلافاه عظمة اسبانيا فى عصرها الذهبى

كانت اسبانيا النصرانية عظيمة فى الهزيمة ولم تكن عظيمة فى النصر، وكانت أبية فى الشدائد ولم تكن أبية فى النعماء. عظيمة فى الهزيمة لأن شرذمة من القوط الذين سحقهم طارق بن زياد فى موقعة شريش، وطاردهم موسى بن صير حتى هضاب البرنيه هى التى وضعت أسس تلك الأمارات النصرانية التى ااستخفت بأمرها الدولة العربية بادىء بدء ولم يمض قرنان حتى غدت فى عهد الناصر لدين الله (٩١٠ — ٩٦١م) (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) قوية شديدة البأس، تستطيع أن تناهض الدولة الاسلامية، وأن تثخن فى أقطارها، بل غدت فى أواخر أيام الدولة الأموية خطراً عظيما على وجود الدولة الاسلامية ذاتها. كذلك كانت اسبانيا النصرانية فى أوقات الخطر العام قدوة حسنة فى الذود عن دينها و تمسك بالوحدة القومية، بل كانت فى ذلك أشد حماسة، وأشد عزماً من اسبانيا المسلمة. ففى الوقت الذى تحرك فيه الحاجب المنصور (٩٧٦ — ١٠٠١ م)، واعتزم أن يسحق نصارى الشمال والغرب، وأن يقضى على استقلالهم القومى أتم قضاء مخالفاً فى ذلك سنة من تقدمه من غزاة المسلمين، ألفى اسبانيا النصرانية كتلة واحدة ولم يصل إلى تحقيق غايته البعيدة المدى وان كان قد استطاع أن يمزق جيوش الأمارات النصرانية وأن يقتحم أمنع قلاعها وأنأى ثغورها. وفى الوقت الذى انفجر فيه بركان الثورة فى الدولة الاسلامية واجتاحتها ريح الخلاف والتفرق، وتواثب على أشلائها ملوك الطوائف، استطاعت اسبانيا النصرانية أن تستثمر عناصر الاضطراب والفوضى وأن تجعل من سواد الزعماء المسلمين آلات فى يدها تسيرهم طبق غاياتها، وأن تبدو فى ثوب مخيف من اتحاد الرأى والقوى. ولما نبذ ملوك الطوائف خلافهم مدى لحظة واعتزموا أن يجعلوا من أماراتهم جبهة موحدة بزعامة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، كانت اسبانيا النصرانية أسبق إلى جمع كلمتها وإدغام وحدتها. واجتمعت جيوش الامارات النصرانية كلها فى سهول الزلاقة (٤٧٩، أو ٤٨١هـ) بقيادة أكبر أمرائها الفونسو السادس، واجتمعت جيوش الطوائف والمرابطين

بقيادة يوسف بن تاشفين . وهزمت اسبانيا النصرانية فى الزلاقة ، ولـكن الهزيمه لم تزدها إلا عزما واتحاداً . ولسنا نريد أن تقول إن اسبانيا النصرانية لم تعرف أسباب الخلاف الداخلى ، فقد عرفته فى أطوار كثيرة وكان خطره عليها عظيما فى بعض المآزق ، ولـكنا نريد أن نقول انها لم تنس قط ساعة الخطر العام أن تخمد نزاعها الداخلى وجدلها الشخصى ، وهو مبدأ لم تعن الأمارات الاسلامية كثيراً بمراعاته والحرص على تطبيقه

***

على أن اسبانيا النصرانية لم تـكن عظيمة فى النصر . ذلك لأنها ما كادت تظفر بالغاية التى جاهدت من أجلها مدى القرون ، وما كادت تظفر بآخر معقل اسلامى حتى غلبت التطرف على الاعتدال ، والتعصب على الايمان ، والشهوات الوضيعة على المثل الحـكيمة ، فأقدمت باصرار وعمد على هدم هذا الصرح الفكرى الباذخ الذى أودعه المسلمون ضروباً رائعة من العلوم والمعارف والفنون ، واعتقدت انها بهدمه تمحو الذكريات الأخيرة لاستعباد ذاهب ، وتمحو أثر العدو المغتصب وتطهر النصرانية مما أصابها من الانتهاك والدنس . ولم تشفق على عظمة اسبانيا أن تذوى بذوى حضارة الأندلس وعظمتها الفـكرية ، ولم تقدر خطورة سياسة الهدم الشائن الذى ارتسمته لتبديد التركة الباهرة التى خلفها المسلمون للغرب

سلم المسلمون غرناطة آخر معاقلهم إلى العدو القاهر بعد ان استنفدوا كل وسائل الدفاع ، وقطع فرديناند الخامس على نفسه كل ما طلبوا من العهود التى تـكفل لهم الأمن والطمأنينة على حياتهم وأموالهم وأعراضهم وضمائرهم وشعائرهم فى ظل الحـكم الجديد ، غير ان فرديناند الذى لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلا لتحقيق مآربه وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين أو يحوطها ببهاء ظفره الحربى لم يعتبر نفسه قط ملزما بعهد يقطعه أو معاهدة يبرمها متى أصبحت تعارض سياسته وغاياته . وكان اليهود أول ضحايا سياسة

الارهاق والعسف التى رسمها منشىء أسبانيا الجديدة : ذلك أنهم كانوا فى ظل الحكم الاسلامى يتمتعون بكل صنوف الحرية ، ويقبضون على ناصية التجارة والشؤون المالية ، ولكنهم ما كادوا ينتقلون إلى الحكم الجديد حتى أمروا بترك دينهم ومعتقداتهم واعتناق النصرانية ؛ وفرض النفى ومصادرة الثروة على المخالفين ، فأذعن البعض إشفاقاً على وطنهم وثرواتهم ، وألقى المخالفون إلى نيران مجالس التحقيق أو شتتوا فى مختلف الأقطار بعد التجريد والحرمان ، بل لم ينج المتنصرون من المطاردة والارهاق كلما هبت عليهم ريح شبهة فاتهموا بالزيغ أو التذمر . وكان هذا المثل السيىء داعياً إلى جزع المسلمين وحزنهم ، واشفاقهم أن تستلب العهود التى قطعت لهم ، وأن يتحول تيار الارهاق والمطاردة إليهم . ودوت فى آذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوءة الصادقة التى ألقاها عليهم موسى بن أبى الغزان أشجع فرسان غرناطة يوم أن اعتزموا التسليم للعدو : « أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم؟ وان يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ماله من حسن الطالع ؟ لشد ما تخطئون. انهم جميعاً ظمئون إلى دمنا ، والموت خير ما تلقون منهم . ان ماينتظركم شر الاهانات ، والانتهاك ، والرق ، ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم، وتدنيس مساجدكم ، ينتظركم الجور والارهاق ، تنتظركم المحارق الملتهبة (١) لتجعل منكم حطاماً هشيما ! »

وقد صدقت هذه النبوءة ، وتحققت مخاوف المسلمين إذ سرعان مابدأ الاسبان بتحوير المعاهدة وتعديل نصوصها ، ثم تفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصاً فنصاً ، واستلاب الحقوق الممنوحة واحداً فواحداً . فحظر عليهم إقامة سعائرهم فى المساجد . وكان قبس من الحماسة مازال يضطرم بين سكان المناطق الجبلية، فرفعوا أصواتهم بالتذمر والشكوى وثارت الأنفس وهاجت الخواطر ، وكان مجلس الدولة

---

(١) كانت محارق مجالس التحقيق فى اشبيلية تقام منذ سنة ١٤٨٠ أى قبل العهد الذى نتحدث عنه بخمس عشرة سنة

يرقب فرصة لالغاء المعاهـدة والنـكث المطلق ، فاتخذ من التذمر حجة ومن خطر الهياج سنداً ! واعتزم ان ينفذ فكرة مشئومة كانت تجول بخاطره منذ أمد بعيد هى تشريد المسلمين وإبادتهم . ولم تكن الحجة تعوز السياسة ، ألم يفاوض المسلمون اخوانهم فى المغرب ومصر والقسطنطينية ؟ ألم يلتمسوا منهم المال والرجال للثورة والانتقام ؟ أليس فى وجودهم خطر على الدولة والدين ؟ بيد أن مجلس الدولة جنح إلى التوسل بحماية الدين وأصدر قراره بوجوب اعتناق المسلمين النصرانية « ونفى » المخالفين منهم ، ذلك لانه يعلم شدة تمسك المسلمين بدينهم وانهم يؤثرون التشريد والنفى . وما ذاع قرار المجلس حتى ذكا الهياج فى كل ناحية ، فى غرناطة والبشرات والبيازين ، وحاول المسلمون المقاومة ولـكنهم كانوا عزلا ، وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطأة على الخارجين فمزقتهم بلا رأفة . وحمل التعلق بالوطن ، وخوف الفاقة ، وهموم الأسرة بعض المسلمين على الاذعان والتسليم ، فتنصروا . ولـكن فكرة الابادة كانت تجثم وراء السياسة الاسبانية، فكانوا فى نظرها حتى بعد التنصر خونة مارقين ، وكانوا أعداء للدين فى سريرتهم ، وكانت حركاتهم وتصرفاتهم مثاراً للريب والظنة . أما سكان المناطق الجبلية فاستطاعوا المقاومة حيناً. ولـكن فرديناند جرد عليهم جموعا عظيمة ، فآثروا النفى وطلبوا الاجازة إلى افريقية ، فخيرتهم حكومة قشتالة بين أن يعتنقوا النصرانية فى ظرف ثلاثة أشهر و بين أن يغادروا اسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فهاجرت جموع كبيرة منهم إلى فاس ووهران و بجاية وتونس وطرابلس وغيرها من ثغور افريقية . و بقى الذين استسلموا إلى الردة والتنصر موضعاً للارهاق المستمر ، يروعهم شبح السجن والتعذيب والاحراق لاتفه حجة وأقل بادرة

فلما ارتقى شارل الخامس (شارلـكان) عرش اسبانيا بعد ذلك بأعوام قليلة التمس المسلمون عدله واستغاثوا به من سياسة الخسف والارهاق على يد وفد بعثوه اليه ليشرح ظلاماتهم وآلامهم (سنة ١٥٢٦) فعرضت مطالبهم على محكمة من رجال الدين وقضاة التحقيق والأحبار ، وكان أهم ماعنيت به هو هل يعتبر التنصير الذى فرضه

الأمر الملكى وتم بفعله ملزماً بمعنى أنه يحتم اعدام المخالف بالاحراق ؟ وقد أجابت المحكمة على ذلك بالايجاب وأعتبرت « التنصير الذى فرضه القوى على الضعيف والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشئاً صفة لايمكن لارادة معارضة أن تزيلها » ، هكذا يصف المؤرخ كوندى (١) وهو اسبانى نصرانى قرار المحكمة . اعتبر قرار التنصير ملزماً إذن وحتم على الموريسكو (وهو الاسم الذى أطلق حينئذ على العرب المتنصرين) أن يعتنقوا النصرانية أو يغادروا أوطانهم فى أجل قصير ، وإلا كان جزاؤهم الموت والتقلب فى محارق مجالس التحقيق ، والتكفير عن أثمهم « بأعمال الايمان » (الاوتودافى) Auto-da-fée ، (حفلات الاحراق) التى ابتكرها المجلس المقدس لاعدام فرائسه ترفعاً عن سفك الدماء

ولم يقف العسف والارهاق عند هذا الحد ، فقد حصل أسقف اشبيلية فى العام التالى على أمر يحتم على الموريسكو فى غرناطة أن يغيروا فى ظرف يوم واحد ملابسهم ولغتهم ، وعاداتهم وأخلاقهم ، كأنما الثورة المفروضة فى المظاهر الخارجية تفوز بنزع ميراث القرون من مشاعر وتقاليد وأخلاق . وأحيط تنفيذ هذا الأمر بكل مظاهر الشدة ، وخول لكل نصرانى اسبانى حق الرقابة على تنفيذه ، وأنشئت فى غرناطة محكمة تحقيق لمعاقبة المخالفين ، وهبت على الغرناطيين ريح عاتية من السفك والتعذيب والارهاق ، واشتدت المطاردة فى جميع الأنحاء ، وعمت الوشاية والسعاية ، ووثبت جماعة من النصارى المتحمسين على الموريسكو فى بلنسية ، فأثخنت فيهم قتلاونهباً ، وتعذيباً وتشريداً . يقول كوندى : « فغدوا ازاء الارهاب الذى يخضعهم لصولة مرهقيهم وما منهم إلا مسكين ومنكود . وكان منظر المحارق فى غرناطة وقرطبة واشبيلية ، وأنين الفرائس تلتهمها النيران تباعاً ، ومناظر المصادرة والنفى والتعذيب المستمر ، تملأ نفوسهم رعباً يحول دون إبدائهم التذمر بالقول بل بالاشارة إذ قد

---

(١) تاريخ دولة المسلمين فى اسبانيا

يعتبر هذا دعوة إلى الثورة على أنهم نجوا أعواماً من نظرية التفسير التى يرى فيها العسف ملاذه ، والتى تريد أن تقضى بإدانة اولئك الذين تعجز عن تقديم الأدلة على جرائمهم» (١)

ثار الغرناطيون ، ولكن حطمتهم جنود الملك ، ولم تقنع أسبانيا النصرانية بتجريدهم من كل امتياز وحق ، ونهب أملاكهم وأرزاقهم ، « والباسهم ثياب الرق فى البلد الذى كان يدين لسلطانهم ، وجعلهم غرباء فى أوطانهم بل أرادت أن تستأصلهم ، وأن تسحق جنسهم ، وأن تبيد حتى ذكرى حياتهم المجيدة ». وكان فيليب الثانى حينئذ ملكا ، وكان يضطرم تعصباً للكنيسة والكثلكة ، ويجعل من الدين قناعاً يستر به مآرب السياسة. عندئذ كررت التهم القديمة فقيل إن الموريسكو يفاوضون مسلمى افريقية وسلطان الدولة العثمانية ، وقال أسقف غرناطة بأنهم ليسوا نصارى فى سرائرهم ، فهم مازالوا يتكلمون العربية ، ويكثرون من الاستحمام اتباعاً لشعائر الاسلام ، وما زال نساؤهم يخرجن محجبات ! ألفت محكمة ثانية من الاحبار والعلماء وقضاة التحقيق . وكيف يرى أن التكلم بالعربية ، والاستحمام ، وحجاب المرأة من المظاهر غير البريئة ؟ وحاول الموريسكو الدفاع عن أنفسهم فلم يصغ اليهم أحد. قالوا ان الازياء والاستحمام واللغة والاخلاق والرقص كلها تقاليد للتربية والعرف لا علاقة لها بالمبادئ الدينية ، وان ترك ثياب الآباء أمر صعب : وإن الاستحمام ضرورى للصحة فى الأقليم الحار ، وإن الرقص ذائع فى كل الأمم وان تحجب النساء يرجع إلى مبدأ العفاف والحشمة ، وأن ليس من السهل على أناس تكلموا العربية منذ المهد أن يدرسوا اللغة القشتالية ، وأن يجردوا أنفسهم فجأة من كل وسيلة للتفاهم والتخاطب . ولكن هذا المنطق البسيط لم يقنع ولاة الأمور وأحبار المجلس المقدس فاذا امرأة بدت محجبة نزع حجابها ، واذا عربى تكلم العربية زج به الى السجن ، بل فعلت حكومة فيليب الثانى ما هو شر وأنكى إذا نزعت من الموريسكو أطفالهم

---

(١) يوسف كوندى فى كتابه السالف الذكر

ذكوراً وأناثاً ،وألقتهم أكداساً فى المعاهدوالمدارس العامة . عندئذضاق الموريسكو ذرعاً ، وألفوا ملاذاً فى الخروج واليأس ، فاجتمعوا فى السهل سراً ، وأئتمروا على الثورة والدفاع عن أنفسهم ازاء العسف والجور ، وأوفدوا بعض زعمائهم سراً الى افريقية ، وطاف الآخرون جبال البشرات لبث الدعوة و إحكام المؤامرة . ولكن ضبطت لسوء طالعم بعض الكتب التى تبادلوها مع سلاطين افريقية ، وظهر منها أن حكومات افريقية قد لبت داعى الغوث واعتزمت أن تبعث الجند والذخيرالى شواطىء ماربلة والمرية ، فعززت الثغور وشددت المراقبة على الشواطىء ولكن نشاط المتآمرين لم يفتر ، بل اجتمعوا فى ضاحية غرناطة سراًواختاروالهم زعيما شجاعاً جريئاًهو محمد بن أمية الذى نصر باسم فرديناندى فالور ، ونزحوا الى جبال البشرات ورفعوا هنالك لواء الثورة ، وانضم اليهم سكان تلك المنطقة ومزقوا جند الحكومة بادىء بدء واقتحموا الكنائس والاديرة ، وقتلوا القسس وعمال الحكومة .واستحفل امر الثورة ، واستطالت معاركها حتى جردت الحكومة على البشرات قوات كبيرة أحاطت بها من كل ناحية ونفذت الى مراكز الثوار بعد معارك شديدة (سنة ١٥٦٩) فتحصن الثوار بالجبال . وقدمت إليهم بعض نجدات صغيرة من افريقية استطاعت أن تجوز الشواطىء رغم كل رقابة ، ولبث القتال سجالا بين الفريقين حتى اضطرت حكومة فيليب الثانى أن توفد من إشبيلية جيشاً كبيراً بقيادة القائد الشهير الدون جوان فسارعت البيازين وغيرها الى تقديم فروض الطاعة ، ولكن الثوار اعتزموا القتال الى النهاية

وكان محمد بن أمية أو فرديناندى فالور قد قتل غيلة أثناء ذلك ، قتله بعض أنصاره بتهمة الخيانة ، فانتخب الثوار مكانه مولاى عبد الله ، واستمرت الحرب طول الشتاء سجالا بين الفريقين . ولما رأى الدون جوان استبسال الثوار وفداحة المهمة ، لجأ الى المفاوضة وأذاع منشوراً بالعفو العام وعد فيه بأن يمنح الموريسكو شروطاً حسنة ، وان يقمع الخارجين بلا رأفة ، فجنح بعض من أضناهم النضال الى المسالمة ،

وأباها أولئك الذين عرفوا غدر القشتاليين ، وارتد كثيرون بأسرهم الى افريقية خيفة الفشل والانتقام ، فاضطر مولاى عبد الله عندئذ الى الخضوع والمسالمة ، بيد أنه أذعن مؤقتاً . وما كاد الدون جوان يرتد بجيشه حتى جمع فلوله ، وطاف بأبناء جنسه يحثهم على القتال والنضال . فاستشاط فيليب سخطاً وأمر بأن يطارد مولاى عبد الله وجنده ، وان يؤخذوا أحياء أو موتى ، وان ينفى جمع الموريسكو من غرناطة. فطورد مولاى عبد الله من صخرة الى صخره حتى مزق جنده ، وقتله أنصاره فى النهاية افتداء لسلامتهم، وحملت جثته حيث عرضت فى غرناطة ومثل بها ! وانتزع الموريسكو من دورهم بلا رأفة، وشردوا فى جبال أوستورياس وجليقية ، ووضعوا تحت الرقابة الصارمة

وفى عهد فيليب الثالث ، اتخذت أسبانيا النصرانية خطوتها الحاسمة . وكان التنصر قد عم الموريسكو ، وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والارهاق نصارى وقشتاليين ، يشهدون القداس فى الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ، غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل ، وأبت أسبانيا النصرانية بعد ان فرضت عليهم دينها ومدنيتها أن تضمهم الى حظيرتها . وكان ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية ، وكان فيليب الثالث ملكا ضعيفاً جباناً ، كان يخشى الموريسكو ! أولئك الذين يعيشون منذ نحو قرن فى ظل العبودية ، ويحملون أغلال الذلة دون مقاومة أو تذمر ، فأمر باخراجهم جميعاً نهائياً ونفيهم من الاراضى الاسبانية ،وحشد السفن لنقل من كان منهم فى الثغور إلى افريقية ، ونزح سكان الشمال منهم الى فرنسا حيث استقروا فى لانجودوك وجويان ، وبذلك انتهى الفصل الأخير من مأساة الموريسكو، وطويت صفحة شعب من أمجد شعوب التاريخ،وحضارة من أعرق حضاراته

***

لسنا نعلق نحن بشىء على آثار تلك الجريمة الشائنة التى ارتكبتها اسبانيا النصرانية فى حق المدنية والانسانية بل فى حق نفسها بابادة الحضارة الاندلسية. وانما نستعير لهذا التعليق أقوال يوسف كوندى حجة مؤرخى اسبانيا المسلمة من الاسبان.

يقول كوندى فى خاتمة تاريخه :

« وهكذا اختفى من الارض الاسبانية الى الابد ، ذلك الشعب الباسل ، اليقظ ، الذكى ، المستنير الذى أحيت صناعته النشطة الارض الذى اسلمتها كبرياء القوط الخاملة الى الجدب ، فأدر عليها الرخاء والفيض ، واحتفر لها عديد القنوات ، ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته العظيمة فى السعود والشدائد معاًعرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس فى مدنه صرحاً خالداً من الانوار التى كان ضوؤها المنبعث ينير أوربا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ، والذى كان روحه الشهم يطبع كل اعماله بطابع لانظير له من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه فى نظر الخلف لوناً غامضاً من العظمة الخارقة ،ودهاناً سحرياً من البطولة يذكرنا بعصورهومير السحرية ، ويقدم لنا فيهم انصاف آلهةاليونان»

« ولكن لايدوم شئ فى هذا العالم ، فان هذا الشعب ، قاهر القوط ، الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون إلى أقصى الاجيال ، قد ذهب ذهاب الاشباح . وعبثاً يسائل اليوم السائح المنفرد قفار الاندلس المحزنة التى كان يعمرها من قبل شعب غنى منعم . ظهر العرب فجأة فى اسبانيا كالقبس الذى يشق عباب الهواء بضوئه وينشر لهيبه فى جنبات الافق ثم يغيض سريعاً فى عالم العدم — ظهروا فى اسبانيا فملأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم ، وأظلها كوكب من المجد شملها من البرنيه الى صخرة طارق ، ومن المحيط إلى شواطىء برشلونة . ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاستقلال ،وخلقاً متقلباً يميل إلى الخفةوالمرح ، ونسيانالفضائل القديمة ، وميل نكد الى التمرد والثورة ينيره دائما خيال ملتهب ، وشهوات واطماع عنيفة ، ونزعة إلى التغلب ، وغيرها من عوامل الاضمحلال قد عملت شيئاً فشيئاً على هدم ذلك الصرح العتيد الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ، ومحمد بن الاحمر ، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية فلت من بأسهم وحملتهم الى هاوية الفناء . . . »

« خرج ملايين العرب من اسبانيا حاملين أموالهم وفنونهم — ثروات الدولة، فماذا أنشأ الاسبان مكنهم ؟ لانستطيع أن نجيب بشىء إلا أن حزناً خالداً يغمر هذه الارض التى كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع . ان ثمة بعض الآثار المشوهة مازالت تشرف على هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الآثار ، ومن صميم هذه الاطلال الدارسة: الشرف والمجد للعربى المغلوب ! والتدهور والبأساء للاسبانى الظافر ! »

وما كلمات الاستاد لاين بول بأقل بلاغة اذ يقول فى مقدمة كتابه عن العرب فى اسبانيا « لبثت اسبانيا فى يد المسلمين ثمانية قرون وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوربا ، وازهرات بقاعها الخصيبة بجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد سوى الاسماء — الاسماء فقط — وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون دون سائر الاقطار الاوربية، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفلكية والنباتية والتاريخ والفلسفة والتشريع إلا فى اسبانيا العربية ، فكل مايدعو إلى عظمة أمة وسعادتها ، وكل مايؤدى إلى رقى باهر وحضارة سامية فاز به مسلمو أسبانيا

« . . ذوت عظمة أسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية فوق الارض التى كان ينعشها بحرارته . ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وايزابيلا وشارل الخامس وفيليب الثانى وكلومبس وكورتيز و بيزارو لتموت بموتها دولة عظيمة ، ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة مجلس التحقيق ، وسادت بعد ذلك فى اسبانيا ظلمة حالكة ، فأصبح لايعرف الاطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور . . . وقضى على فنون اشبيلية وطليطلة والمرية وعفت صناعاتها ، وسحقت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الاسلام ، وخربت المدن الكبيرة ، وذوت نضارة الوديان الخصيبة فحل البؤساء والدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان . ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد اقصائها العرب، وهكذا

يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها ! . »

هذا مثل مما علق به أعلام مؤرخى الافرنج على قتل اسبانيا الحضارة الاندلسية وفيه مايكفى لتصوير ماقد يجيش بصدر المؤرخ الشرقى من أسف وسخط ، بل من نقد برىء صادق قد يستشف القارىء الغربى منه نعرة الجنس أو الدين ، وفيه مايرضى كبرياءه ، وما يغنيه بعد بيان الحقائق عن تعليلها والتدليل عليها . ومن ثم كان امتناعنا عن التعليق . ولعل فى قول أبى البقاء مرثى الاندلس تفسيرا لتلك المأساة التى تجوزها الدول والعروش والمدنيات على كر العصور :

لكل شىء إذا ماتم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان

هى الامور كما شاهدتها دول   من سره زمن ساءته أزمان

الفصل الخامس عشر

تراث الاندلس الفكرى

فى مكتبة الاسكوريال

كانت حضارة العرب فى اسبانيا مصدر استنارة عالمية فى العصور الوسطى ، وكان للتفكير فى الأندلس دولة باذخة ، بينما كانت أوربا تجوز غمر البداوة والجهالة ، ويبلى تراث التفكير الرومانى فى ظلمات الأديار وكانت معاهد قرطبة ترسل أضواءها إلى أقاصى الشمال والعرب . وفى قرطبة بلغ التفكير الاسلامى أرفع ذرواته ، وبلغ تراثه أنفس مراحله وأعظمها . ولكن عواصف السياسة ومصائب الحروب ، وخطوب الزمن ، نكبت هذا الصرح غير مرة ، فقوضت من دعائمه وبددت من كنوزه أثناء قيام الدولة الاسلامية ذاتها . ثم طويت صفحة الاسلام فى اسبانيا وورثت اسبانيا الحديثة ملك الأندلس ، ولكنها لم ترث ثقافتها الباهرة وتفكيرها التالد . ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على طائفة صغيرة من الكتب العربية ، قبرت فى أروقة الاسكوريال المظلمة وفى بعض المكاتب العامة .

وكانت المخطوطات العربية فى مكتبة الاسكوريال تبلغ مع ذلك عدة آلاف حتى أواسط القرن السابع عشر . وكانت أنفس مجموعة من نوعها ، ولكن حريقاً حدث فى الاسكوريال سنة ١٦٧١ التهم ثلاثة أرباع هذا الكنز الفريد ، وكانت الحكومة الاسبانية إلى ذلك الحين تحرص كل الحرص على إخفاء المخطوطات العربية عن نظر كل باحث ومتطلع . وكان الكتاب الاسبان أنفسهم متأثرين بنزعة الدين والجنسية ، ، يتجنبون التنقيب فى هذه المصادر النفيسة التى تلقى ضوءاً

كبيراً على تاريخ اسبانيا وحضارتها وثقافتها أيام الدولة الاسلامية ، ولا يرجعون فى ذلك القسم من تاريخ بلادهم إلا إلى المصادر القومية . ومن ثم كانت كتاباتهم تفيض بعوامل التحامل والتشيع . ولم تفق الحكومة الاسبانية من سباتها إلا بعد نكبة سنة ١٦١١ بمدة طويلة فانتدبت العلامة المستشرق « كازيرى » ليضع فهرساً للبقية الباقية من المخطوطات العربية ، وعددها ألف وثمانمائة وخمسون . وكانت ثمرة جهود العلامة « كازيرى » مدى أعوام طويلة معجمه الضخم المسمى « المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال » Bibliotheca Aıabico- Hispana Escuıialensis

وفيه استعرض فى اسهاب وافاضة محتويات المجموعة العربية، وخلاصة مايحتويه كل مؤلف منها ، وعلق عليها وشرح غوامضها . وظهر هذا المعجم النفيس بين سنتى ١٧٦٠ و ١٧٧٠ . وقد نقده بعض المستشرقين المتأخرين ، وذهبوا إلى انه خلو من التعمق ، ولكن الرأى الغالب أن مؤلف « كازيرى » هو أنفس وأغزر بيان عن محتويات المجموعة العربية فى الاسكوريال ، وأنه عرض بديع لثمرات التفكير العربى .

وكان أهم ما اتجهت اليه الانظار بعد ظهور معجم « كازيرى » هو التنقيب فى مجموعة الاسكوريال عن الروايات العربية التى تتعلق بتاريخ العرب فى اسبانيا وسياسة الحكومات المسلمة ، وخواص المجتمع الاسلامى . فعنى طائفة من الباحثين ومنهم أندريس وما سدى ، ببحث تاريخ الآداب والعلوم العربية. وأخرج ماسدى مؤلفه الضخم « التاريخ النقدى لاسبانيا والحضارة الاسبانية »

Historıa critica de Espana y de la cultura espanola ما بين سنتى ١٧٨٣ و ١٨٠٥

وهو من أجل المصادر فى تاريخ الحضارة الاندلسية وفيه نبذ وروايات شائقة عن خواص المجتمع الاسلامى فى اسبانيا ، ونواحى التفكير الاسلامية . ويفسح ما سدى للمراجع العربية فى مؤلفه مجالا شاسعاً ، ولكن تاريخ العرب السياسى كما تعرضه المصادر العربية ، لبث منسياً ، حتى جاء العلامة المستشرق يوسف كوندى

أمين مكتبة أكاديمية مدريد ، فدرس المصادر العربية من هذه الناحية درساً مستفيضا ، وأنفق أعواما طويلة فى التنقيب فى مخطوطات الاسكوريال ، وأخرج للناس مؤلفه الشهير « تاريخ دولة العرب فى اسبانيا »

Historia de la Dominacion de los Arabos en Espana

وظهر الجزء الأول من هذا التاريخ فى سنة ١٨٢٠ ولكن كوندى توفى فى نفس هذا العام . فنشر الجزآن الباقيان من مخطوطاته فى العام التالى دون أن تشملهما رعايته التى تظهر آثارها جلية فى القسم الأول من تاريخه . وهو الذى يتناول تاريخ العرب فى اسبانيا من الفتح حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦م) . وأما القسم الثانى فيشمل تاريخ الدولة العامرية وملوك الطوائف حتى ظهور مملكة غرناطة . ويشمل القسم الثالث تاريخ مملكة غرناطة حتى سقوطها فى سنة ١٤٩٢ م وفى هذين القسمين بعض عثرات ترجع بلا ريب إلى حرمانهما من نظرة مؤلفهما الأخيرة ، ولكنهما يحتويان كثيراً من ملاحظات كوندى النفيسة ونقده البديع . ويمتاز كوندى بالأخص بالصراحة الجمة فى عرض آرائه وملاحظاته حتى أنه يذهب أحياناً إلى اصدار أشد الاحكام على أمته ومواطنيه خصوصاً فى الحوادث التى اقترنت بسقوط غرناطة واصطهاد الاسبان للعرب ومطاردتهم وتنصيرهم ثم إخراجهم بعد ذلك من أوطان آبائهم وأجدادهم فى سيل من الفظائع والدماء . وقد يرجع ذلك إلى أن كوندى تأثر بالمراجع والروح العربية . وهو ما يقرره فى مقدمته إذ يقول : إنه ذهب فى اتباع المصادر والروايات العربية إلى حد « أن القارىء الاوربى قد يشعر أنه يتلو مؤرخا عربياً » . ولعل هذه أعظم ميزة فى مؤلف كوندى من وجهة النظر العربية فلأول مرة تعرض قضية العرب فى اسبانيا من الناحية العربية ، ولأول مرة يقف العالم الغربى على دفاع العرب ، وعلى وجهات نظرهم ، ومرامى سياستهم .

ولكن العلامة المستشرق الهولندى رينهارت دوزى الذى أنفق شطراً كبيراً من حياته فى درس التاريخ الأندلسى يهاجم كوندى ومؤلفه بشدة ، وينعته بأنه

مدع لا يفقه شيئاً فى العربية وأصولها . ويقول عنه فى كتابه « مباحث فى تاريخ اسبانيا السياسى والأدبى فى العصور الوسطى » : « انه أى كوندى لا يعرف من اللغة غير الحروف التى كتبت بها سوى القليل . وأنه يستعيض عن أقل المعارف الابتدائية بخيال وافر الخصوبة ، وقحة لا مثيل لها . فيزيف مئات التواريخ . وآلاف الحوادث . ويزعم فى نفس الوقت أنه ينقل النصوص العربية نقلا صادقا» ودوزى مستشرق قدير ، ومؤرخ بارع للأندلس . ولكنه يذهب بعيداً فى حكمه على كوندى وعلى مجهوده . وقد يكون الحكم على كوندى من الناحية التى يشير اليها ناقده من حق الباحثين من أبناء العربية أنفسهم. وعندى أن كوندى يدلل فى كثير من المواقف على تمكنه من اللغة التى ينكر عليه دوزى معارفها الابتدائيه، وينقل بعض الأقوال والروايات العربية المعروفة بدقة وحسن بيان . أما الاخطاء التى وردت فى مؤلف كوندى سواء من حيث التواريخ أو الوقائع فترجع الى حد كبير الى أنه، كما قدمنا ، توفى قبل أن يراجع مؤلفه والى أنه اعتمد فى النقل على كثير من المصادر العربية المتضاربة دون التمحيص والترجيح . ولكن كوندى يبقى مع ذلك مصدرا نفيسا للتاريخ الاندلسى ولا سيا فى قسمه الأول وفى تاريخ الطوائف . وأما رواية دوزى فهى تقف كما نعلم عند فتح المرابطين .

وقد حذا كاردون فى مؤلفه « تاريخ أفريقية واسبانيا » حذو كوندى فى النقل من المخطوطات العربيـة المحفوظة بمكتبة باريس . ولكنه نقل أيضا عن المؤلفين الاسبان ، كما نقل عن المصادر الأخرى. ولم يتبع الرواية العربية فى جوهرها كما فعل كوندى إلا فى الفصول الأخيرة التى تتناول سقوط غرناطة ، والتى يقول كاردون نه نقلها برمتها من مخطوط عربى

ولكن معجم « كازيرى » يبقى بعد كل ذلك مجهودا فريدا من نوعه فهو فوق كونه خلاصة وافية لكل ما بقى من تراث الاندلس الفكرى يعرض كثيرا من الادلة على تفوق الحضارة الاندلسية ، ومبلغ ماوصلت اليه من رقى وازدهار ،

مثال ذلك أن « كازيرى » عثر أثناء مباحثه على مخطوطات عربية ترجع إلى سنة ١٠٠٩ م كتبت على ورق من القطن ، وعثر على أخرى ترجع إلى سنة ١١٠٦ م. كتبت على ورق من الكتان مما يشهد لعرب الاندلس بفضل السبق والبراعة فى هذه الصناعة ، ثم على طائفة من المخطوطات التاريخية تدلى بأن العرب كانوا أول من استعمل الديناميت فى الحرب ، وغير ذلك مما يلقى كثيراً من الضياء على حقائق لبثت قروناً تحتضر فى ظلمات الاسكوريال

الفصل السادس عشر

رحلات مركو بولو البندقى

وثيقة نفيسة فى التاريخ الاسيوى

رحالتان شهيران هما أول من كشف للعالم أسرار المجتمعات الاسيوية وفخامة المشرق فى العصور الوسطى، وبهاء قصوره ، وبذخ امرائه وسادته . ذان هما مركو بولو البندقى ، وابن بطوطة الطنجى . وقد سبق الرحالة الفرنجى خلفه العربى فى اختراق القارة الشاسعة ، وفرغ من تدوين مشاهداته فى الوقت الذى ولد فيه الرحالة المسلم ، واجتاز الاول القارة من أواسطها واجتازها الثانى من الجنوب ، فجاء مجهوده متمما لمجهود سلفه . وقد سلخ كل منهما شرخ شبابه فى تعرف أحوال الامكنة والمجتمعات التى ألقت به إليها أقدار رحلته ، واذا كان للرحالة الفرنجى فضل السبق فى كشف ما كشف من مجاهل المجتمعات الاسيوية فانما تدين بهذا الفضل إليه أمم الغرب التى كانت يومئذ أقلية فى العالم المتمدن ، وانما يرجع الفضل الى الرحالة المسلم فى تعريف الامم الاسلامية بعضها بأحوال بعض وأحوال ما يشوق من أسرار المجتمعات الاخرى التى كان ذكرها يجرى يومئذ مجرى الاساطير والقصص الرائعة ، بل إن مشاهدات مركو بولو لم تكن عرفت ولا ذاعت بعد يوم بدأ ابن بطوطة جولته من مغرب الارض الى مشرقها . هذا الى أن الرحالة المسلم يمتاز عن سلفه الفرنجى باجتيازه مجاهل إفريقية الشرقية ، وكثيراً من الاقطار والجزائر الاسيوية الجنوبية ويمتاز عنه بما هو أهم من ذلك ، أعنى دقة البيانات والملاحظات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ،

ويرجع ذلك إلى أن الرحالة المسلم كان بتربيته وظروف المجتمع الذى نشأ فيه أقرب من سلفه إلى تفهم أحوال الدول والمجتمعات التى أتيح له أن يتجول فيها

ومع ذلك فان مشاهدات مركو بولو صفحة من أنفس صفحات التاريخ الاسيوى وتاريخ التتار والترك السلاجقة بوجه خاص . وهى مازالت وثيقة يرجع اليها فى تحقيق كثير من الحوادث التى تقترن بسيرة هذه الدول المغولية التى كانت تبسط سلطانها من شواطىء المحيط الهادىء إلى ما وراء الفولجا

***

وقد نشأ مركو بولو رحالة بالمصادفة . ولذلك قصة شائقة طريفة : ففى القرن الثالث عشر كانت البندقية (فينيزيا أوفينيديج) أهم بلد تجارى فى بحر الروم وكانت سفنها التجارية تجوس خلال الثغور الشرقية حتى بلاد القرم ، وتجارها يجوبون آفاق المشرق كله . وكان من هؤلاء والد الرحالة نيكولوبولو وهو بندقى من أسرة نبيلة وصاحب بيت تجارى يعمل فى القسطنطينية مابين البندقية والمشرق . ففى سنة ١٢٦٠ ركب نيكولوبولو البحر فى مركب خاصة ، محملة بنفيس السلع ومعه أخوه وشريكه مافيو الى بيزنطية (القسطنطينية) فوصلاها بسلام . وكان ذلك فى عهد بلدوين الثانى آخر ملوكها من الصليبيين . وبعد أن لبثا يتاجران حينا اعتزما أن يتابعا الجولة إلى ثغور البحر الاسود فقصدا سولدانيا (سوداق) من ثغور القرم. ثم سافرا بمتاعهما على ظهور الخيل حتى وصلا إلى (بلغارا) ونزلا ببلاط أمير تترى يحكم تلك الانحاء فرحب بهما وأكرم مثواهما فرأيا أن يثيباه عن حسن اللقيا بان قدما اليه مامعهما من الجواهر الغالية هدية خالصة فأعجب الامير بكرمهما وأمر بأن يدفع اليهما ثمن الجواهر مضاعفا وان تقدم اليهما طائفة من الهدايا والتحف

وبعد أن أقام الاخوان عاما فى أرض الامير أرادا العودة الى وطنهما ، ولكن الحرب نشبت بين هذا الامير وبين « الاوؤ » وهو أمير تترى آخر يحكم الولايات الشرقية فقطعت السبل وأضحى من المستحيل على نيكولو وأخيه أن يعودا الى بيزنطية

من حيث قدما فسلكا طريقا غير مطروقة وسافرا شرقا الى بخارى وكانت يومئذ تابعة لحكومة فارس وفيها اضطرابحكم الظروف الى الصبر والانتظار وهنالك تعرفا بكبير من كبار التركان قد أوفده « الأوو » سفيراً الى الملك الأكبر « كو بلاى خان » أمبراطور التتار جميعا ، وكان بلاطه يومئذ « فى نهاية القارة فيما بين الشرق والشمال الشرقى » فأعجب هذا السفير بذكاء الايطاليين وخلالهما الحسنة ولم يكن رأى فرنجيا من قبل . وكانا قد درسا اللغة التتارية فاقترح عليهما أن يصحباه الى «الخان » (الملك) الأكبر فيسر بمرآهما ويغدق عليهما عطفه وكرمه ولما كانا قد يئسا مؤقتا من العودة الى البندقية فقد قبلا دعوته وسارا معه سنة كاملة حتى وصلا الى بلاط الملك الأكبر فاستقبلهما بأدب واحتفى بهما ؛ وكانا أول من وفد على بلاطه من الفرنج . وسألهما عن ملوك النصرانية وأمبراطور الروم وأحوال ديارهم ومدى أقطارهم وطرق اجراء العدل لديهم وأساليبهم فى الحرب الى غير ذلك وسأل بالاخص عن البابا وعن دين النصرانية فأجاباه بالتتارية عن كل ماسأل إجابات حسنة شافية سر منهما فقربهما اليه واعتزم أن يبعث بهما سفيرين مع أحد رسله الى رومة ليطلبا إلى قداسة البابا أن يبعث اليه بمائة رجل من ذوى العلم والتقى ليذيعوا فى أقطاره دعوة النصرانية وأن يحملا إليه قدرا من الزيت المقدس الذى يحرق فى قبر السيد المسيح فى بيت المقدس

فلما سمعا هذه الأوامر من الخان الأكبر سجدا أمامه وأعلنا أهبتهما لتنفيذ ما طلب، فزودهما بالرسائل والجوازات وانتدب رسولا من قبله معهما يدعى «خوجاتان» ولكن رسول الخان ما لبث أن مرض بعد أسابيع قلائل من السير فتركاه بأذنه وأمره فى مدينة « ألاو » وجدا فى السير والجوازات الملكية تفتح لهما كل طريق وتذلل كل صعب حتى وصلا بعد ثلاثة أعوام إلى ثغر لويسوس فى جنوب الاناضول وسافرا من هنالك إلى عكا فوصلاها فى شهر ابريل سنة ١٢٦٩ وعلما هنالك أن البابا كليمنضوس الرابع قد توفى . وكان يقيم فى عكا سفير رسولى يدعى

تيالدو دى بياشنزا فأبلغاه رسالة الخان فنصح اليهما أن ينتظرا حتى ينتخب البابا الجديدو يبلغاه الرسالة فعملا بنصحه وسارا إلى البندقية وهنالك الفى نيكولو بولو أن زوجه قد توفيت بعد أن تركت له طفلا كانت تحمل به حين سفره يدعى (مركو) وكان يومئذ فى الخامسة عشرة من عمره وهو الرحالة المستقبل الذى كان أول من كشف للمجتمع الاوربى أسرار الشرق الاقصى

ولسنا نعرف شيئًا عن طفولة « مركوبولو » ولكن الظاهر أنه قضى أعوامه الأولى فى منزل أحد أعمامه فى البندقية . وقضى نيكولو وأخوه مافيو عامين فى البندقية انتظاراً لانتخاب البابا الجديد فلما يئسا من ذلك اعتزما العودة إلى الخان الأكبر ليبلغاه بما كان من أمر رسالته وكيف أخفقا فى مهمتهما . فركبا البحر فى سنة ١٢٧١ ومعهما « مركو » وكان عندئذ فتى فى السابعة عشرة . فلما وصلا إلى عكا أخذا من السفير الرسولى خطابا للخان شرح فيه حقيقة الحال وحملا للخان شيئًا من الزيت المقدس. ثم تابعا السير نحو الشمال غير أنهما لم يبتعدا كثيراً حتى أرسل السفير الرسولى فى أثرهما ينبئهما بأنه انتخب خليفة للكرسى المقدس واتخذ اسم البابا جريجورى العاشر ، وانه يستطيع الآن أن يحقق أمنية الخان . فعادا مسرعين إلى عكا فى سفينة مسلحة قدمها إليهما ملك آرمينيه . فاستقبلهما قداسته بترحاب ؛ وزودهما بعدة رسائل بابوية للخان . وأوفد معهما قسيسين ليقوما فى البلاط التترى بمهمة الوعظ وسائر الاجراءات الدينية ومعهما من لدنه عدة تحف مقدسة للخان باركها بنفسه . ثم ركب الجميع البحر ثانية إلى ثغر لاياسوس . وما كادوا يتوغلون فى الاراضى الارمينية حتى نما اليهم أن الحرب تضطرم فى تلك الأنحاء وان جيوش سلطان مصر الظاهر بيبرس « البندقدارى » تمعن فيها قتلا وتخريبا فارتاع القسيسان واعتزما العودة وسلما مامعهما من الرسائل والتحف الى الاخوين، واستمر نيكولو ومافيو ومركو فى طريقهم حتى عبروا حدود أرمينيا سالمين. ثم جازوا عدة صحارى قفرة ومفاوز وعرة وتوغلوا فى الشمال الشرقى حتى علموا أن الخان

الاكبر يقيم يومئذ فى مدينة فخمة كبيرة تسمى « كلمنفو » فقصدوها ووصلوها بسلام بعد رحلة شاقة دامت أكثر من ثلاثة أعوام واستقبلهم كوبلاى خان فى مجلس حافل فقصوا عليه ما آلت اليه سفارته وقدموا اليه خطابات البابا وهداياه والزيت المقدس ثم استفهم من نيكولو عن ذلك الفتى الذى رآه لاول مرة فأجابه «إن عبدك ولدى» فسر الخان بذلك وأمر بأن يلحق « مركوبولو » بغلمانه، وسرعان ماشق الفتى طريقه فى البلاط وأعجبت بطانة الخان بظرفه وخلاله . ودرس مركو اللغة التتارية واعتنق عادات التتار بسرعة . فقربه الخان وأحبه لذكائه وحسن مواهبه وأرسله فى عدة مهام فى بعض أقطاره النائية . فكان يؤديها على أكمل وجه ويطرب الخان بما يقصه عليه من انباء الرحلات وأحوال الرعية .

وطالت إقامة مركو وأبيه وعمه فى بلاط كوبلاى خان زهاء سبعة عشر عاما قام مركو خلالها بكثير من المهام السياسية والادارية فى جميع أقطار الدولة المغولية الشاسعة . وتوغل فى أقصى جنباتها ، ودرس أحوالها ومواقعها واستطاع أن يقف على كثير من الامور والشئون سواء مما شاهد بنفسة أو مما سمعه من الثقات ، وكان يدون كل مارأى وسمع . وكان البنادقة بعد طول البعاد يضطرمون حنينا إلى الاهل والوطن ويخشون أن يموت كوبلاى خان الذى شاخ وضعف قبل أن يمهد لهم سبيل العودة . ولكن الخان لم يأذن لهم وأصر على استبقائهم فصبروا مكرهين حتى سنحت فرصة رأوها صالحة لتدبير العودة . وذلك أن الملكة بلغان زوج أرجون خان ملك فارس وخراسان توفيت . وكانت من البيت التتارى الملكى . فبعث أرجون إلى الخان الاكبر فى كاثاى يلتمس اليه أن يبعث اليه بزوج جديدة من أسرة الملكة المتوفاة . والتقى رسله هنالك بالبنادقة، واهتم الخان الاكبر بالتماس أرجون واختار له فتاة حسناء رفيعة التربية والخلال تدعى كوجاتين وأعد لها أسباب الرحيل مع رسل ارجون . وسار الركب الملكى مدى ثمانية أشهر فى وهاد ومفاوز شاقة حتى اعترضته الانباء بأن حروبا جديدة نشبت فى الغرب بين الامراء التتار وأن السبل إلى فارس خطرة

مقطوعة . فارتد مرغماً إلى بلاط الخان الأكبر . وكان مركوبولو قد عاد وقتئذ من رحلة بحرية قام بها فى البحار الجنوبية إلى جزائر الهند الشرقية ، وروى للخان إن الملاحة فى هذه البحار آمنة جداً . فاهتم رسل أرجون لقوله ، واجتمعوا بالبنادقة واتفق الفريقان أن يلتمس الرسل من الخان أن يعودوا بالملكة إلى بلادهم من طريق البحر الآمن طبقا لقول مركوبولو وأن يلتمسوا إليه فى نفس الوقت أن يأذن بأن يصحبهم البنادقة فى رحلتهم لانهم قوم مهرة فى الملاحة . وعلى ذلك تقدم الرسل إلى الخان بهذا الالتماس المزدوج فأذن به مكرها . ودعا البنادقة وخاطبهم فى رفق وعطف وطلب إليهم أن يقطعوا على أنفسهم عهدا بالعودة إليه بعد أن يروا أهلهم وأوطانهم . ثم زودهم بالجواز الامبراطورى وعهد إليهم أن يكونوا سفراء إلى ملوك فرنسا واسبانيا وغيرهم من ملوك النصرانية . وأعد الخان للركب أربع عشرة سفينة كبيرة ووهب البنادقة طائفة من الحلى والاحجار النفيسة . وركب الجميع البحر ومعهم الاميرة الفتاة فوصلوا إلى جاوه بعد ثلاثة أشهر ، ثم جازوا البحار الهندية فوصلوا إلى ثغور الملك أرجون بعد ثمانية عشر شهراً مات فى خلالها مئات من البحارة واثنان من رسل الملك فلم يبق سوى الثالث . فلما رسوا عرفوا أن الملك أرجون قد توفى ، وان أخاه كيا كاتو يحكم مكانه بالنيابة عن ولده كاسان الذى كان صبيا بعد ، وعندئذ تقرر أن تزوج الأميرة الفتاة من كاسان واستراح البنادقة هنالك عدة أشهر ثم منحهم كيا كاتو الجوازات الملكية وأمران يزودوا أينما ساروا بالحرس والمؤن ، وأن يذلل فى سبيلهم كل صعب حتى يخرجوا من أراضيه . فاستأنفوا سيرهم ، وعلموا أثناء الطريق بموت الخان الأكبر كوبلاى ، حتى وصلوا إلى ثغر طرابزون ، ومن ثم ساروا إلى القسطنطينية ، ثم إلى نجروبنت . وأخيراً وصلوا إلى البندقية فى أمن وسلام فى سنة ١٢٩٥ . وقد رويت عن مقدمهم قصص غريبة من ذلك ان أقاربهم لم يعرفوهم حين وفدوا عليهم فى ثياب تتاريه خلقة لايكادون ينطقون بلسانهم القومى ولم يعرفوهم حتى انتزعوا تلك الأطمار البالية ، وأخرجوا من بطانتها أنفس الجواهر . على أن

ماركو بولو لم يمكث طويلا بين أسرته ، فقد كانت الحرب ناشبة بين البندقية وجنوه ، ولما كان آل بولو من النبلاء الأغنياء فقد دعوا إلى تجهيز مركب . وقاد مركو مركب أسرته فى أسطول أندريادا ندولو صاحب البندقية ، فهزم البنادقة فى مياه كرسولا فى ٧ سبتمبر سنة ١٢٩٧ ، وأسر مركو بولو ، وحمل سجينا إلى جنوه حيث بقى زهاء ثلاثة أعوام رغم ما بذل لافتدائه . والغالب أنه أنشأ سيرة رحلاته فى تلك الفترة وأملاها بفرنسية رديئة على رفيق أسير . ثم عاد إلى الندقية فى سنة ١٢٩٩ ، وتزوج بعدئذ بقليل . ولسنا نعرف كثيراً عنه بعد عودته من الأسر وخلاصة ما نعرف أنه عاش غنياً شهيراً ، وأنه كان يسمى « المليونى » أعنى صاحب الملايين لما كان يذيعه من القصص الرائعة عن بذخ كو بلاى خان . ومرض الرحالة فى سنة ١٣٢٤ مرضاً أشعره بدنو أجله فكتب وصيته وتوفى بعد تنفيذها بقليل ودفن فى كنيسة القديس لورنزو ، ولكن موقع قبره الحقيقى غير معروف .

***

تلك هى السيرة العجيبة التى تخرج فى حوادثها الشائقة أول رحالة كشف للعالم عظمة المشرق وأسباب روعته وبهائه . بيد أن المجتمع الذى أفضى اليه مركو بولو بمشاهداته ومباحثه كان ضنينا فى تأييده والايمان به ، فلم تلق روايات الرحالة يومئذ كبير ثقة . بل لعل مركو بولو قد تأثر بتلك العاطفة ولم يكشف كل ما رأى وسمع مما قد يذهب لدى قومه مذهب الأساطير المدهشة . ولنا فى روح هذا العصر وأحواله ما يفسر ذلك ، فلم تعرف أوروبا فى القرون الوسطى عن المشرق من الصور إلا ما جاء فى التوراة وما رواه الصليبيون ، ولم تشهد منها إلا ما عرضته ثغور الشام وبيزنطية وما جاورها من ثغور البحر الاسود . أما الشرق الأقصى فكان يحجبه عن العالم الاوربى ستار كثيف من الخيال الرائع . ومع ذلك فان روايات مركو بولو جاءت أعجب من كل ما تصور الناس يومئذ عن هذا الشرق وذهبه الوهاج وملوكه العظام وقصوره السحرية وأنهاره التى تفيض بالشهد واللبن ، وحوره

وولدانه ، وجنه وشياطينه ، وكنوزه ، وعلى العموم كل ما يحيط به من أسباب الخفاء والبهاء والروعة . وقد لاقى ابن بطوطة من مجتمع عصره ما لقيه مركو بولو من الانكار والتحامل

ومع ذلك فان مشاهدات مركو بولو وبحوثه من أعظم ما كتب الرحالون فما زالت إلى اليوم حجة لبعض أنحاء آسيا الوسطى والصين ، وستبقى دائما من أثمن المصادر للجغرافى والمؤرخ والباحث فى شئون الحياة الاسيوية . صحيح أن مركو بولو يمزج هذه المشاهدات بطائفة من الصور والاساطير التى لا يسيغها العقل الحديث والتى تذكرنا (بالكرامات) التى يشير اليها ابن بطوطة فى روايته من آن لآخر ، ولكن هذه ترجع أيضاً إلى روح العصر وعقليته من جهة ، وإلى الوسط الذى استقى فيه مركو بولو صوره من جهة أخرى ، فقد وفد مركو بولو على أعظم قصور هذا العصر ، وشاهد من بذخ « ملك الملوك » (كوبلاى خان) ومن شاسع أقطاره ، وعظم سلطانه ، ووفرة ماله وترفه ، وسمع من بطانته وقادته وضباطه ، عباده وعبيده ، ما أذكى خياله — خيال العصور الوسطى — الى الذروة ودفع لسانه وقلمه بما قد يقبله خيال عصره ، وما يلفظه العقل الحديث . على أن هذا الانحراف الذى يرجع الى طبيعة العصر ، لم ينزع من الرحالة صدق الرواية ، ولا عميق البحث فى كثير من الأمور التى قد تنبو عن ذهنه لدقتها وغرابتها . وللتدليل على هذه الدقة وهذا التعمق نورد روايته عن الاسماعيلية فى عصره ففيها يقول :

« فى التعريف بشيخ الجبل ، وقصره وبساتينه وأسره وموته »

واذ ذكرنا هذه البلاد (مشيرا الى شمال فارس وولايات قزوين) فسوف نتكلم الآن عن شيخ الجبل . إن البقاع التى يشغلها تعرف (بالملحدة)وهو ما يعنى فى لغة العرب مكان الكفرة، وسكانها هم الملاحدة أو أصحاب العقائد الزائغة كما نطلق نحن صفة الباتارينى (الباتالان أو الألبيون) فى النصرانية على بعض الكفرة وهذه قصة هذا الزعيم كما سمعها مركو بولو من أناس شتى . كان اسمه علاء الدين ودينه دين محمد، وقد أنشأ فى واد جميل

يقع بين جبلين شاهقين بستانا فخما فيه من كل فاكهة لذيذة وكل نبات عطرفى العالم وأقيمت قصور ذات أحجام وأشكال مختلفة فى جهات مختلفة زينت بنقوش الذهب، وفرشت بأثاث من الحرير النفيس ، تخترقها فى كل ناحية بواسطة صهاريج مصنوعة قنوات من الخمر واللبن والشهد والماء أحيانا . أما سكان هذه القصور فكن غانيات أنيقات حسانا ، بارعات فى الغناء والموسيقى والرقص ،وبالأخص فى الاغواء والنفثات الغرامية وكن يرتدين ثيابا نفيسة ويقطعن أوقاتهن بالتريض واللهو فى البستان والرواشن . أما حراسهن الأناث فكن يتوارين داخل الأبواب ولا يظهرن قط . وكانت غاية الزعيم من انشاء هذه الحديقه الفاتنة مايأتى : بما ان محمداً قد وعد من أطاعه بمتعة الجنة حيث يوجد كل أنواع الملاذ الحسية بصحبة حور حسان ، فقد اراد (الزعيم) أن يفهم أتباعه انه أيضاً نبى قرين محمد ، وانه يستطيع أن يدخل جنته من شاء . ولما كان يحرص على ان لاينفذ إلى واديه البديع انسان دون إذنه فقد أنشأ فى مدخله قلعة منيعة يدخل منها إليه بمدخل سرى . وكان هذا الزعيم يجمع فى بلاطه أيضاً عدداً من الفتيان بين الثانية عشرة والعشرين ، يختارهم من سكان الجبال المجاورة ممن يميلون إلى الرياضة العسكرية ، ويتصفون بالشجاعة الوافرة ، ويحادثهم كل يوم فى موضوع الجنة التى ذكرها النبى ، وفى موضوع قدرته أن يدخل فيها من شاء . وكان أحياناً يضع الأفيون فى شراب عشرة فتيان أو اثنى عشر . فاذا فقدوا الرشاد أمر بحملهم إلى بعض أجنحة قصور البستان . فاذا استيقظوا من سباتهم ، التهبت حواسهم بكل ماوصفنا من الأمور ، وألفى كل نفسه محاطا بالجوارى الحسان يغنين ويلعبن ويجذبن بصره بأرق إيماء ، ويقدمن إليه اللحوم اللذيذة ، والخمور الفاخرة، حتى يذهب برشده الافراط فى المتعة بين قنوات اللبن والخمر ، فيتوهم أنه فى الجنة بلا ريب ، ويشعر بأنه لايريد أن يفارق نعيمها ، فاذا قضى الفتيان بضعة أيام على هذا النحو ، ألقى إليهم المخدر ثانية حتى يسلب رشدهم ثم ينقلون من البستان ، فاذا قدموا إلى الزعيم وسألهم أين كانوا . أجابوا « فى الجنة ، بشفاعتك ياذا السمو»

ثم يقصون أمام جميع البطانة الذين يصغون إليهم بلهف ودهشة ، كل ماراْوا وذاقوا وعندئذ يخاطبهم الزعيم بقوله : « لقد أكد نبينا ان من يدافع عن سيده يرث الجنه فاذا أخلصتم أنتم إلى الطاعة ، فسوف تنعمون بهذا المصير السعيد » فتثور حماستهم لأمثال هـذه العبارة ، ويصرحون بأنهم جميعاً سعداء إذ يتلقون أوامر سيدهم واذ يموتون فى خدمته . وكانت نتيجة هذا النظام هو أنه إذا اجترأ على هـذا الزعيم أحد الأمراء المجاورين أو غيرهم قتلهم اولئك القتلة المدربون ، ولم يكن أحد منهم يحرص على حياته من خطر قط ، فلم تكن الحياة فى نظرهم شيئاً ماداموا يستطيعون تنفيذ أوامر سيدهم ، ومن ثم كان بطشه موضع الرعب فى الأنحاء المجاورة .وقد أقام لنفسه أيضاً وكيلين أحدهما بجوار دمشق والآخر فى كردستان، كل منهما ينفذ الخطة التى وضعها لتدريب الانصار الفتيان.وهكذا لم يكن ثمة إنسان يعرض نفسه لنقمة شيخ الجبل يستطيع النجاة من القتل مهما كان من القوة . وكان مركز شيخ الجبل واقعا فى أراضى أولاء (هولاكو)أخى الخان الاكبر (منجو) ، فنمى الى هذا الأمير ما يرتكبه شيخ الجبل من الفظائع التى ذكرناها ومن استخدامه الأشقياء فى سلب المسافرين الذين يمرون بهذه الأنحاء فسير إليه فى سنة ١٢٦٢ جيشاً حاصره فى قلعته . على أنها كانت من المناعة بحيث لبثت ثلاثة أعوام دون أن تتأثر بشدة الحصار وأخيراً أرغم على التسليم لفقد المؤن ، وأسر وأعدم وهدم حصنه ، وخربت حدائقه وجنته وطويت صفحة شيخ الجبل » (١)

في هذه الصحفة التى أوردها مركو بولو عن الاسماعيلية دقة فى البحث والاستقصاء يقدرها كل من عرف تاريخ الاسماعيلية وخططهم . ونجد هذه الدقة ماثلة فى كثير من رواياته خصوصاً فيما يتعلق بالتتار ودولهم وتاريخهم وملوكهم وقصورهم . فمذكرات مركو بولو وثيقة فى التاريخ الأسيوى والجغرافية الاسيوية والمجتمعات الاسيوية من أنفس وثائق العصور الوسطى .

---

(١) ان شيخ الجبل علاء الدين الذى يشير إليه مركو بولو قتل فى سنة ١٢٥٥ م بعد حكم طال أمده . فخلفه ابنه ركن الدين الذى حكم عاما فقط ، وهو الذى حاصره جيش هولاكو ، وكان على يده مصرع دولة الاسماعيلية

الفصل السابع عشر

رحلات ابن بطوطة

ومكانتها من التاريخ الاسيوى

فى الوقت الذى اختتم فيه « مركو بولو » البندقى جولاته فى أعماق الأراضى والمجتمعات الاسيوية ، ودون رحلاته ومذكراته التى ما زالت وثيقة نفيسة فى التاريخ الاسيوى ، ولد بطنجة رحالة مسلم هو إحدى هذه الشخصيات البارزة القليلة التى يقدمها تاريخ الاسلام فى القرن الرابع عشر ، ففى سنة ١٣٠٤ م (٧٠٣ هـ) ولد ابو عبدالله محمد بن عبدالله الطنجى المعروف بابن بطوطة . ولسنا نعرف كثيراً عن طفولته أو تربيته الاولى ، ولكن يبدو لنا فى ثنايا رحلته أنه درس الفقه وعلوم الدين أكثر مما درس سواهما . كذلك ليست ثمة ظروف أو بواعث خاصة هى التى حملت الرحالة المسلم على أن يسلخ شبابه وكهولته فى طواف الأرض حتى أقاصى العالم المعروف يومئذ ، وكل ما نعرف عن ذلك هو أن الفتى الطنجى ما كاد يبلغ الثانية والعشرين حتى ملكه شغف الحج وزيارة البقاع المقدسة ، وكان الحج من أسمى النزعات التى يضطرم بها يومئذ قلب كل مسلم يستطيع تحقيق هذه الأمنية . والظاهر أيضاً أن ابن بطوطة لم يتأهب لاداء هذه الفريضة الأهبة المادية الكافية ، وأن روح المغامرة كانت غالبة عليه ، وقد كان اختراق صحارى المغرب وأمم الاسلام من طنجة إلى مكة فى ذلك العصر مغامرة كبيرة . فخرج الرحالة المستقبل من مسقط راسه طنجة فى شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ حسبما يقص فى رحلته « معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفرداً عن رفيق آنس

بصحبته ، وركب أكون فى جملته ، لباعث من النفس شديد العزائم » وكان ارتحاله فى عهد سلطان الموحدين أبى سعيد بن أبى يوسف ، فجاز أمصار المغرب الشهيرة يومئذ مثل تلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة حتى وصل إلى تونس وسلطانها عندئذ أبو يحيى بن أبى زكريا أحد أمراء بنى حفص . ولم يكن للرحالة الفتى يومئذ صبر على تحمل مرارة البعاد ووحشته ، وكان بعيداً كل البعد عن فكرة الطواف حول الأرض حتى انه لما وصل إلى تونس ولم يسلم عليه أحد لغربته « وجد من ذلك فى النفس مالم يملك معه سوابق العبرة ، واشتد بكاؤه » ثم ارتحل فى ركب من الحاج إلى طرابلس ونزل بالاسكندرية التى يصفها بانها « الثغر المحروس ، والقصر المأنوس ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين » وكان ذلك لعشرة أشهر من مغادرته لطنجة ، والظاهر أنه بهر بما رأى فى مصر وشاهد من مظاهر العمران والثروة فلم يشأ أن يمر بها مروراً فقط ، فنراه يجوس خلال الاسكندرية ويدقق فى وصف منارتها وعمودها وسائر آثارها ومواقعها ويتجول فى جميع انحاء القاهرة وينفذ إلى جميع مساجدها ومعاهدها وآثارها الشهيرة ، ويطوف أنحاء الوجه البحرى من الشمال إلى الجنوب ، ثم يهبط الى صعيد مصر حتى نهايته ، ويرى جميع الآثار المصرية القديمة ، ونراه يتعرف بسلطان مصر وهو يومئذ الملك الناصر بن قلاوون ، وأمرائها وعلمائها وقضاتها ، ثم يفيض فى وصف عمرانها ومدنيتها ونيلها واهرامها ومشاهد الحياة الاجتماعية فيها . ثم يعود من طريق الصحراء بحذاء البحر الأحمر فيصل إلى فلسطين من طريق سيناء . ويتفقد بيت المقدس وآثارها الشهيرة من اسلامية ونصرانية . ثم يتجه شمالا بحذاء البحر مخترقا بلاد الشام كلها حتى حلب الشهباء ، متصلا فى كل سفراته بالامراء والكبراء والعلماء . متفقداً كل ما يقع عليه من مساجد وآثار ومعاهد شهيرة . ثم يهبط إلى دمشق فتبهره محاسنها ، فيستقر فيها حيناً ويفيض فى وصف جامعها الأموى وأسواقها ورياضها ومعاهدها وأهلها .

وهنا فقط يعتزم ابن بطوطة أن يحقق الأمنية التى دفعت به إلى ديار الغربة

أعنى حج البيت الحرام ، فخرج من دمشق فى ركب الحاج واخترق الطريق العادية حتى وصل بالمدينة وطاف بالحرم والآثار المقدسة ثم إلى مكة حيث أدى فريضة الحج ، وطاف بالكعبة الشريفة والمسجد الحرام وقبور الصحابة والتابعين . ويفرد الرحالة قسما ضافيا من رحلاته لوصف البقاع والمشاهد المقدسة وكل ما اليها من الرسوم والروايات والاساطير ، ومجتمعات مكة والمدينة ومواقعها ومعاهدها وأسواقها. وعباراته فى ذلك القسم تنم عن الخشوع والاجلال والحماسة أو بالحرى عن شديد اسلامه وعميق ايمانه

*

على أن الرحالة لم يفكر فى العودة الى وطنه بعد تحقيق الأمنية التى يقرر فى رحلته أنها كانت باعث سفره. ومن المرجح أن فكرة الانقطاع الى السفر وطواف العالم لم تخطر فى ذهن ابن بطوطة إلا فى هذا الظرف فقط . ذلك انا نراه يتجه فجأة نحو الشمال الشرقى ميمما شطر العراق بدلا من أن يسلك طريق العودة الى وطنه، ونراه يستسلم لاجتياز مفاوز الصحراء العربية بما يحيط بها من وعورة وقفر ومخاطر ومشاق . وهو قد اجتاز الى ذلك الحين أمم الاسلام الواقعة فى الغرب والشرق الأدنى، على أنها لم تكن مجاهل بالنسبة اليه ، فقد كانت مصر والشأم كعبة السياح والتجار الوافدين من المغرب والاندلس ، وكانتا ممراً للحاج فى كل عام ، وكانت مجتمعاتهما وتقاليدهما وعاداتهما أقرب الى عرفان المغرب من أى مجتمع اسلامى آخر . ولكن الاتجاه نحو المشرق يعتبر فى حياة ابن بطوطة فاتحة مغامراته الحقة ورحلته الشهيرة ،فهو من ذلك الحين يحور أقطاراً تختلف فى أقليمها وطبيعتها كل الاختلاف عما عرفه فى الشطر الاول من رحلته ، ويجوز مجتمعات لايعرفها ولايعرف شيئاً من عاداتها وإن تكن اسلامية، ثم هو يلقى فوق ذلك مجتمعات تتكلم غير العربية التى كان يتحدث بها حتى هذا الشطر من رحلته . وهنا تبدو مواهب الرحالة البارزة فى تعرف كل مايقع عليه بصره من مشاهد جغرافية واجتماعية ودقته فى استقصاء هذه المشاهد ، وقوته فى تصويرها

وهنا أيضاً يبدأ ابن بطوطه فى تعلم الفارسية والتركية وقد كانت الفارسية له سلاحا فى طوافه بالمجتمعات الهندية كما كانت التتارية سلاحا لسلفه مركوبولو فى طوافه بالممالك التتارية .

اتجه الرحالة الى المشرق فجاز نجداً وصحراء العرب الى العراق ، ووصف هذه المسالك وما تحتويه من بقاع تاريخية ومشاهد أثرية وما قيل فيها من أساطير . وهذه من خواص ابن بطوطه حين يصف الآثار . ثم جاز الفرات ودجلة إلى العراق الفارسى . وزار شيراز واصفهان ، وعاد من طريق شمالية نوعا فعبر الدجلة والفرات ثانية الى العراق العربى ، ونزل ببغداد ، ولقى فيها يومئذ سلطان العراقين وخراسان وهو السلطان أبو سعيد بها درخان ، وكانت بغداد يومئذ قد جردت من صفة الرياسة فلم تعد قاعدة للملك مذ دخلها التتار وقتل بها المستعصم آخر خلفاء بنى العباس (٦٥٦ هـ — ١٢٥٨م) وكانت قد فقدت رونقها القديم وبهاءها السالف ، وغلب عليها الخراب والعفاء . وترى تأثر الرحالة ظاهراً فيما كتبه عن بغداد وآثارها ومجتمعاتها ورصافتها التى كانت يومئذ غاصة بقبور الخلفاء . وهنا يعنى أيضاً بالتاريخ فيقص تاريخ الأسرة الملوكية التى كانت تحكم العراق عندئذ كما يقص بعد تاريخ كل الأسر السلجوقية والهندية التى كانت متربعة على دست الملك .

وغادر الرحالة مدينة الخلفاء الى الموصل ثم الى نصيبين ثم الى سنجار واتصل بملوكها جميعا . ذلك أن الاقطاع كان سائدا فى تلك الأنحاء بأوسع معانيه ، وكان الامراء السلاجقة يقتسمون الولايات والمدن ، فلكل ولاية أو مدينة فقط حاكم اقطاعى مستقل يسمى بالسلطان أو الخان (الملك) . وهنا تنتهى أول مرحلة فى جولات ابن بطوطة . ولسنا نعرف ما الذى جال بخاطره عندئذ فدفع به إلى الجنوب ثانية أعنى إلى بغداد ثم إلى مكة ، بيد أنه يقول لنا فى رحلته انه وصل إلى مكة للمرة الثانية مريضاً منهوكا ، فارتاح فيها زهاء عام ، ثم جاور عاما آخر . و يلوح لنا أنه فى تلك الفترة وطد عزمه نهائياً على طواف العالم ، واستفاد من أحاديث الحاج الذين يفدون من جميع الأقطار

فى وضع شبه برنامج لهذا الطواف فبدأ عندئذ بالسفر جنوبا إلى اليمن فبلاد السومال ثم طاف ساحل البحر العربى حتى عمان والبحرين ، وشهد هنالك مغاص اللؤلؤ ووصف طريق استخراجه واتصل بأمراء هذه الانحاء . ثم اخترق الصحراء ثانية إلى مكة فحج للمرة الثالثة . وكان ذلك فى سنة ٧٣٢ ﻫ فالتقى فى مكة بالملك الناصر سلطان مصر . ثم ركب البحر الاحمر إلى السودان واخترق بلاد النوبة فصعيد مصر إلى القاهرة . ولم يمكث بها كثيراً ، بل تابع سفره إلى الشام وركب البحر من اللاذقية فوصل إلى بر «تركية» أوساحل الأناضول سنة (٧٣٣ ﻫ — ١٣٣٣م)

وكانت آسيا الصغرى تموج يومئذ بالأمراء السلاجقة ، ولكن قبيلة عثمان كانت قد بدأت تظهر عليهم جميعاً . وكان عثمان مؤسس دولة الترك العثمانيين قد توغل غربا فى أقطار الدولة البيزنطية وهزم أمبراطورها اندرونيكوس الكبير فى عدة مواقع واستولى على كثير من أراضيه . وكانت بورصة عاصمة العثمانيين يومئذ، وملكهم على عهد قدوم الرحالة أورخان ولد عثمان . وكان فى الأناضول غير بنى عثمان عدة ملوك أقوياء أخر منهم أوز بك خان ملك الولايات الشمالية . وكان الاسلام قد ساد معظم هذه الانحاء عندئذ ، ولكن دولة الاسلام فيها كانت جديدة .فكانت هذه المجتمعات غريبة فى روحها ورسومها وتقاليدها عن أى مجتمع شهده الرحالة من قبل ، كذلك كان الاقليم غريبا ، والطبيعة أغرب . فاخترق الرحالة مفاوز الأناضول وجباله الشامخه . ونفذ إلى قصور هؤلاء الملوك جميعا ، وطاف الأناضول من شرقه إلى غربه ومن جنوبه إلى شماله ، وأفاض فى وصف ما رأى ولاحظ من جغرافية، ونظم وطبائع، ومحاصيل وعادات ، وأخلاق ، ثم اخترق أراضى السلطان أوز بك خان إلى ضفاف البوسفور مع جماعة أوفدها هذا السلطان إلى أمبراطور بيزنطية

***

وكان الجالس على عرش قسطنطين يوم ان وفد الرحالة المسلم على بيزنطية الأمبراطور اندرونيكوس الثالث أو الأصغر . وكان قد ارتقى العرش فى سنة

١٣٢٨م، وكان قدوم ابن بطوطة إليها كما قدمنا فى ركب أرسله السلطان محمد اوزبك خان بصحبة زوجه الخاتون (بيلون) إبنة الأمبراطور ، وكانت قد ذهبت لزيارة أبيها فى القسطنطينية ، فسافر فى ركبها الرحالة معززاً مكرما. وأشرف على مدينة قسطنطين بعد رحلة دامت زهاء شهر فى البر والبحر فدخلها مع الركب الملكى فى ظهر يوم من أيام سنة ٧٣٣ من الهجرة (سنة ١٣٣٣ م) . ويصف الرحالة دخوله إليها فى العبارة الروائية الآتية : « وكان دخولنا عند الزوال ، أو بعده إلى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها . ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون . سرا كنو سرا كنو [1] ومعناه المسلمون » ويصف مقابلته للامبراطور فيما يأتى : « وفى اليوم الرابع بعثت إلى الخاتون الفتى سنبل الهندى فأخذ بيدى وأدخلنى إلى القصر ، فجزنا أربعة أبواب فى كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم ، فلما وصلنا الى الباب الخامس تركنى الفتى سنبل ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشونى لئلا يكون معى سكين ، وقال لى القائد تلك عادة لهم لابد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدى . ثم قام الموكل بالباب فأخذ بيدى ، وفتح الباب وأحاط بى أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمى ، واثنان من ورائى فدخلوا بى الى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفى وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الاشجار والناس واقفون يمينا ويساراً ، سكوتاً لا يتكلم أحد منهم ، وفى وسط المشورة ثلاثة رجال وقوف اسلمنى أولئك الأربعة اليهم ، فامسكوا بثيابى كما فعل الآخرون وأشار اليهم رجل ، فتقدموا بى وكان أحدهم يهودياً فقال بالعربى : لا تخف وأنا الترجمان . ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته بين يديه ، وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح، فأشار

(١) لعله يقصد سرازنو Sarrazino وهى الكلمة التى أطلقها الكتاب اليونانيون على مسلمى شبه جزيرة العرب

الى قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنيهة ليسكن روعى ففعلت ذلك. ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار إلى أن أجلس فلم أفعل ، وسألنى عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القيامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل ثم عن دمشق ومصر والعراق و بلاد الروم فأجبته عن كل ذلك واليهودى يترجم بينى و بينه فأعجبه كلامى وقال لأولاده أكرموا هذا الرجل وآمنوه . ثم خلع على خلعة، وأمر لى بفرس مسرج ملجم ومظلة وهى علامة الامان » ويسمى الرحالة الامبراطور « تكفور » وأباه بجرجيس ، ولعله يقصد الاسم النصرانى ، فالامبراطور كما قدمنا هو اندرونيكوس الثالث وأبوه أندرونيكوس الثانى .

وكانت القسطنطينية فقد فقدت يومئذ كثيراً من فخامتها السالفة ، وكان الفرنج الصليبيون قد افتتحوها قبل ذلك بقرن ور بع ، وعاثوا فى أنحائها ، وخربوا كثيراً من قصورها وكنائسها وأحرقت أثناء الحرب مراراً . على أنها كانت أعظم منظر رآه الرحالة فى رحلاته قاطبة وهو يصف مواقعها وصفا يشهد له بعمق البحث ودقة التحرى اذ يقول : « وهى متناهية فى الكبر ، منقسمة الى قسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر (يقصد القرن الذهبى) ، واسم هذا النهر إبسمى. وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول ، وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة . والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفى أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان ، والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لا سبيل اليه من جهة البحر . والكنيسة العظمى « اياصوفيا » هى فى وسط هذا القسم . وأما القسم الثانى فيسمى الغلطة وهو بالعدوة الغربية وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج ومنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومة وأهل إفرانسه . . » ، ويفيض الرحالة فى وصف الكنيسة العظمى «أياصوفيا» والمانستارات[١] « الاديرة » التى كانت تغص بها القسطنطينية

---

(١) هذه لفظة ابن بطوطة عربها كما هو ظاهر عن كلمة Monastére وهو تعريب حسن

يومئذ ، ويصف رسومها وأحوالها وسكانها من رهبان وعذارى وقد دخلها وطاف بها باذن خاص من الامبراطور الذى عين له مترجما يصحبه فى طوافه

وأقام الرحالة فى مدينة قسطنطين عدة أسابيع ثم غادرها وقد بهرته الحضارة اليونانية وآيات عمرانها وفخامتها ، وما كشفت من ترف كان يقضم يومئذ أسس المجتمع البيزنطى . واخترق شمال الاناضول ثانية فى فصل الشتاء ، وعانى قره وثلجه ثم اتجه شرقا الى بلاد التركستان ونزل بخوارزم وكانت يومئذ ولاية من أقاليم السلطان أوزبك خان الذى تقدم ذكره . ثم قصد بخارى وكانت قد خربها التتار يومئذ ، ووقف خاشعا أمام قبر اسماعيل البخارى مصنف الجامع الصحيح وجال فى تلك الأنحاء التترية حينا والم فى رحلته بتلك المناسبة بلمحة من تاريخ التتار من عهد جنكيزخان ، ثم اخترق بلوخستان ودخل الهند من الشمال الغربى فوصل الى أقليم البنجاب حسبما يروى فى سنة ٧٣٤ هـ

***

وهنا تبدأ مرحلة جديدة فى رحلات ابن بطوطة ، وهنا تبدو روح المخاطرة قوية فى نفسه فنراه يلتهب ظمأ الى التوغل غير مكترث لما يلقى من صنوف الشدائد فيجوز أقاليم الهند الشاسعة من الشمال الى الجنوب ومن الغرب الى الشرق ويتصل بملوكها من المسلمين أو غيرهم ، ونراه يطمئن الى الاستقرار فى بعض هذه الممالك ويحاول التقرب الى ملوكها وخدمتهم ونيل الحظوة لديهم .وقد وصل الى غايته أكثر من مرة ، فتقرب الى السلطان احمدشاه ملك الاقاليم الشمالية وصاحب بلاط (دهلى) فولاه القضاء وعهد اليه ببعض المهام والسفارات فسلخ فى خدمته أعواما ، ومن ثم نراه يخصص فى رحلته قسما كبيرا لتاريخ هذه المملكة ونظمها وعمرانها . ويذهب الرحالة فى مخاطراته إلى أبعد من ذلك فيصطحب الحملات الحربية ، ويؤسر ذات مرة ويشرف على الهلاك فلا ينجو إلا بأعجوبة . ولا يقتصر على تجوال الأقاليم الداخلية ، بل يجوس خلال الشواطىء الهندية حتى نهايتها الجنوبية ويعبر الى « سيلان » حيث يصف

« القدم المقدس » أو قدم آدم المزعوم · ويقدم لنا الرحالة فى هذا القسم من رحلته طائفة كبيرة من الروايات والصور الطريفة، فيصف لنا كثيراً من معتقدات الهندوس، وتقاليدهم الدينية ومعابدهم الخفية ، وحياتهم الاجتماعية وما يتخللها من عادات رائعة كحرق النساء عند وفاة أزواجهن ، والحج إلى نهر (الكنغ) واغراق البعض لانفسهم فيه تقربا إلى الله وتخليداً للروح . وفيه يكشف عن عميق تأثره وانفعاله من روعة هذه الرسوم الوثنية حتى يقول إنه كاد يسقط عن فرسه حين رؤيته لمشهد الاحراق . كذلك يصف كل ما وقع عليه من غرائب الطبيعة والشجر والحيوان فى هذه الأنحاء الحافلة · ووصفه لكل ذلك قوى ممتع . ويقول لنا فى هذا القسم أن القرصان الهندوس طلعوا على ركبه ذات مرة فسلبوه كل شىء ، بما فى ذلك مذكرات كان يدونها عن كثير من المشاهد . ولعل فى ذلك ما يفسر دقة الرحالة فى ذكر التواريخ والمواقع والحوادث والصور . فهو بلا ريب كان يدون كثيراً من مشاهده ، وقد احتفظ بكثير من هذه المذكرات عند عودته ، وعليها اعتمد فى املاء رحلته .

وتقلب ابن بطوطه فى الهند وممالكها وبحارها وجزائرها أعواما طويلة ، ثم جاز إلى الشرق أيضاً ، فطاف جزائر الهند الشرقية أعنى جاوة وسومطرة ثم اتجه نحو الشمال. وهنا يقول لنا أنه سافر بعد ذلك إلى الصين، ويصف طبيعتها ومجتمعاتها ، غير أنه ليس واضحاً فى هذا القسم ، ويخيل لنا أنه يعنى بالصين، الهند الصينية وجنوب الصين ، وأنه لم يتوغل فى اتجاه الشمال الا قليلا . و بعد أن تجول فى تلك الانحاء حيناً عاد إلى جاوة مخترقا المحيط الهندى إلى الهند فاخترقها ثانية ثم ركب البحر الى شاطىء السند الجنوبى ثم اخترق فارس والعراق والشام ومصر عائداً الى وطنه وركب البحر من تونس فطاف بسردانية ثم اخترق مراكش الى فارس فوصلها سنة ٧٥٣ هـ أى بعد أن سلخ ربع قرن فى الطواف حول الارض ، وذلك فى عهد السلطان أبى عنان . ثم قصد الى مسقط رأسه طنجة ، وزار قبر والدته . ولم يمكث

طويلا حتى دفعه شغف الطواف والتجوال إلى عبور البحر الى الأندلس وتعرف ثغورها وقواعدها التى كانت يومئذ ما زالت زاهرة نضرة رغم انحصارها فى جزء صغير من شبه الجزيرة ورغم اشتغال المسلمين يومئذ بالذود المتواصل عن أراضيهم وحرياتهم التى كان يهددها الاسبان بالزوال العاجل . وكان قدومه الى غرناطة أيام النصريين فى عهد السلطان أبو الحجاج يوسف بن الوليدالنصرى . فتعرف بعلمائها وفقهائها . ثم جاز البحر ثانية الى مراكش ولم يستقر هنا أيضاً، بل قصد الىالسودان من طريق الصحراء ودرس أحوال قبائله واتصل بسلاطينه وأمرائه . وفى أثناء رجوعه وصلته أوامر السلطان أبى عنان بالعودة الى مراكش ، فكر اليها راجعا واستقر بها بعد طول التجوال والغربة فى سنة ٧٥٥ هـ أى لثلاثين سنة كاملة من خروجه الأول من مسقط رأسه . وكان يومئذ كهلا فى الثالثة والخمسين من عمره وقد خرج من طنجة كما رأيت فتى فى الثانية والعشرين

***

استقر ابن بطوطة فى بلاط فاس بعد طول البعاد والتجوال وقربه السلطان اليه وكان يطربه بطريف أخباره وبديع سمره ويقص عليه أخبار البلاد والمجتمعات التى رآها . وذاع أمر الرحالة يومئذ واشتهر بغريب أخباره وقصصه ورماه البعض بالمبالغة والكذب : ذلك انه يجب أن نذكر أن المجتمع الذى أفضى إليه الرحالة المسلم بما رأى وسمع من عجائب المجتمع الأسيوى ومدهشاته لم يكن أقل انكاراً أو تحاملا من المجتمع الذى قص عليه سلفه مركوبولو مشاهداته . ويعرب ابن بطوطة عن تألمه لهذا التحامل فى أحد المواطن فيقرر « بأن الله يعلم صدق ما أقول وكفى به شهيدا » والظاهر ان قصة ابن بطوطة ورحلاته كانت مازالت حية متواترة حينما بدأ الفيلسوف ابن خلدون كتابة تاريخه العام فهو يشير إلى ذلك فى مقدمته إذ يقول: « ورد على المغرب فى عهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب

فى بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلى حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمده شا وكان له منه مكانة واستعمله فى خطة القضاء . ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض . . . فتناجى الناس فى الدولة بتكذيبه.ولقيت أنا يومئذ فى بعض الأيام وزير السلطان فارس بن وردار ففاوضته فى هذا الشأن وأريته انكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض فى الناس من تكذيبه فقال الوزير إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما انك لم تره . . » وهكذا غمط الرحالة الكبير حقه كما غمط سلفه . على ان الصدى الذى أثارته رحلاته كان أبعد مدى وأعمق أثراً من ذلك الذى أثارته رحلات مركو بولو،فقد نفذ الرحالة المسلم إلى مجتمعات إسلامية على الأغلب قاصية غير معروفة من بقية العالم الاسلامى . واستطاع أن يصل إلى أعماق نظمها ورسومها وعقليتها ، ثم هو قد نفذ إلى جنبات ومجتمعات متنوعة : فمن الأندلس الى شرق إفريقية الى الهند إلى جاوة إلى الصين،وجال فى كل منها وشاهد ودرس ، ولكن ماركو بولو اقتصر على اختراق أواسط القارة الأسيوية اعنى ممالك التتار فحسب ثم دخلها بعقلية غربية بعيدة عن تفهمها كل الفهم .ومن ثم جاءت ملاحظات الرحالة المسلم أدق وأصدق من ملاحظات سلفه الفرنجى .واذا استثنينا بعض الروايات الغريبة التى اتهم من أجلها بالاغراق فان رواياته سواء فى التاريخ أو الجغرافيا أو الأحوال الاجتماعية بما يتجلى فيها من تعمق فى البحث وقوة فى التصوير تكون وثيقة من أنفس وثائق التاريخ الأسيوى والجغرافيا الأسيوية. ثم ان فى أسلوب الرحالة فوق ذلك من خفة وفكاهة ماينم عن خفة روحه ووفرة ملحه . فهو يحملك طوال رحلته متشوقا إلى اتباعه فى مشاهداته وملاحظاته وصوره وفى كل مايرويه عن شخصه . وللرحالة فيما يقص عن شخصه روايات طريفة فهو يقص عليك مثلا كيف تزوج أثناء رحلته مراراً ورزق أولاداً عددين وكيف كان التجوال يقضى عليه بترك زوجاته وأولاده إلى مصاير لايعرفها ولم يسمع بها ، وكيف كان

يتعشق المآكل الشهية والفواكه العذبة وكيف يصل سفراته من بلد إلى بلد واقليم إلى اقليم بما كان يحصله فى طريقه من هدايا الرؤساء وصلات الأمراء والملوك، وكيف حاول ذات مرة أن يحمل أحد سلاطين الهند على أداء ديونه الفادحة بمدحه فى قصيدة نظمها ، وكيف كان شديد الفضول فى تعرف العادات الاجتماعية الغريبة من الشعائر الوثنية ورسوم الجنائز والزواج ، وكيف شاهد فى الهند أعمال السحرة والفقراء فراعه ان رأى ذات يوم ساحراً يقطع أمامه شخصا حيا الى أربع قطع ثم يلحمها ثانية فيعود الشخص حيا يرزق ، وهذه بلا ريب من أعمال السيمياء الحديثة التى نسمع بحدوث أمثالها اليوم فى أوربا . هذا الى نبذ تاريخية صادقة ، وصور قوية فى كل نواحى الطبيعة والحياة العامة .

وقد أملى ابن بطوطة رحلته ولم يكتبها . أملاها على ابن جزى وهو فقيه أندلسى تقرب مثل ابن بطوطة الى بنى مرين ، وكان أملاؤها بأمر السلطان أبى عنان سنة ٧٥٦ﻫ فى مدينة فاس . ويصف ابن جزى الرحالة فيها « بالشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الارض ومخترق الاقاليم بالطول والعرض الذى طاف معتبرا وطوى الامصار مختبرا » ولكن روح ابن بطوطة ورشاقة أسلوبه وقوة تعبيره تمثل فى ما سطره ابن جزى . ويقول ابن جزى نفسه أنه نقل كلام الشيخ أبى عبد الله (ابن بطوطة) « بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها موضحة للمناحى التى اعتمدها . وربما أوردت لفظه على وضعه » وهكذا دونت تلك الرحلة الشهيرة التى تحفظ للرحالة المسلم مقاما رفيعا بين كبار الرحل فى العالم وأطلق عليها هذا الاسم الشائق :

تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار

وقد ادرك البحث الحديث قيمة أثر ابن بطوطة فترجمت رحلته إلى الانجليزية والى الفرنسية والى غيرهما من اللغات الأوربية ونشرت فى أوائل القرن التاسع عشر، اعنى فى الوقت الذى كان فيه هذا الأثر وغيره من الآثار العربية النفيسة مازالت تحفا مخطوطة تبلى فى أعماق المكاتب الخاصة

الفصل الثامن عشر

اساطير دينية

عماد حوادث كبرى فى التاريخ

كان للاساطير الدينية أثرها فى التاريخ فى كل العصور ، فكانت مبعثا لطائفة من الظواهر والحوادث الكبرى ، وكانت سنداً لدول شامخة قامت على أسسها ، وبطولات غامضة اشتقت منها أسباب بطولتها واستعارت ثوب زعامتها ، ثم كانت أشد وأعمق فى تأثيرها المعنوى ، فكانت تغزو مجتمعات التاريخ ، فترسم لها مناهج الحياة ، وتصوغ لها ما ترى من العقائد والمبادئ والفكر .

ولم يخل دين من الاديان الكبرى من طائفة من هذه الأساطير القوية . ولكن الأساطير التى ترتبط بالملك والسياسة منها كانت من بينها أبعدها أثرا فى سير الحوادث التاريخية . على أن الزعامة السياسية فى أمثال هذه الأساطير لم تكن إلا نتيجة للزعامة الدينية . ولما كانت الدعوة الى النبوة قد ضعفت هيبتها على كر العصور، فان هذه الاساطير كانت تتخذ دائما شكل مخلفات النبوة أو متمماتها ليس غير .

ولم تزدهر هذه الاساطير من الوجهة العملية قدر ازدهارها فى الدول الاسلامية. وكانت أسطورة المهدى من بينها أقواها وأبعدها أثرا . ونعرف أن الشيعة شادوا دعوتهم الدينية والسياسية على طائفة من هذه الاساطير والمزاعم . وكان التبشير بالمهدى المنتظر علما لدعوتهم السياسية بعد أن وضعوا أسسا متينة لدعوتهم الدينية، واستطاعوا بما حشدوه من الفرق الثورية والسرية الهدامة أن يزعزعوا أسس الدولة العباسية عنوان المبادىء والدعوات الخصيمة . على أن أسطورة المهدى ليست خلق الشيعة،

وان كان الشيعة هم الذين استغلوها على كر العصور . فالكلام يرجعها الى عصر النبي العربي ذاته . وهنالك طائفة من الاحاديث المختلفة تشير الى هذه الاسطورة ، ولكنها موضع كثير من الجدل والريب . هذا الى طائفة أخرى من الاقوال والنبوءات تنسب لجماعة من كبار الصحابة . وخلاصة هذه الاحاديث والأقوال « إنه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ، ويعيد مجد الاسلام ودولته ، ويسمى بالمهدى » . ولم يكن للأسطورة أهمية فى بدء الدولة الاسلامية ولكنها قويت فى أواخر القرن الثانى للهجرة واتجهت اليها فكرة الشيعة وعنى أئمتهم ودعاتهم بأن يضعوا لها الاسانيد الكلامية والشروح التاريخية حتى أصبحت جزءا من تعاليم الشيعة أنفسهم ، بل اتخذت أسطورة المهدى صبغتها السياسية على يد إحدى فرقهم المعروفة بالأثنى عشرية وهم من الامامية الذين يسوقون حق الامامة فى ولد على بن أبى طالب حتى جعفر الصادق . ثم يختلفون الى فرقتين تقول الأولى بامامة ابنه اسماعيل وهم الاسماعيلية ، وتقول الثانية بامامة ابنه موسى الكاظم ثم جماعة من ولده بالتوالى حتى محمد المهدى ، وهو الثانى عشر من الائمة ولذا سموا بالأثنى عشرية . ويقول هؤلاء إن محمدا المهدى خاتم أئمتهم لم يمت ولكنه اختفى ، ولايزال مختفيا الى آخر الزمان ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . ويسمونه بالمهدى المنتظر ، أو الفاطمى المنتظر لأنه من ولد فاطمة . وهذا تخصيص من الشيعة للأسطورة العامة التى لم يقف أصحابها عند إرسال النبوءة جزافا ، بل جرؤ بعضهم على التحديد والضبط ، فعينوا لظهور المهدى آخر المائة السابعة ، بل عينوا لذلك سنة معينة هى ستمائة وثلاث وثمانون . فلما انصرم هذا العصر ولم يظهر المهدى زعم بعض الدعاة إن هذا التاريخ إنما هو ميلاد المهدى لا عام ظهوره . وزعم آخرون أن ظهور المهدى يكون فى سنة ٧٤٣ هـ . وكلهم يتقدم لتأييد نبوءته باسانيد واهية ، ويستتر وراء الرموز والاشارات الغامضة مما ندلل به نحن على انهم كانوا ينطقون بوحى دعوة سرية . وزعم الكندى إن المهدى يجدد الاسلام ويظهر العدل ويفتتح

الاندلس ورومة والقسطنطينية و يملك الارض وهو ما تدهش لصدوره من فيلسوف حر التفكير .

وقد حاول الشيعة منذ عصور الاسلام الاولى أن يطبقوا هذه الاسطورة فخرج كثير من دعاتهم أيام الدولة العباسية فى الحجاز ، وفى خراسان ، وانتحلوا الامامة، وزعم بعضهم إنه المهدى . ولكن أولئك الدعاة الذين ظهروا فى المشرق لم يستطيعوا القيام إلا بطائفة من ثورات محلية تحطمت جميعها على صخرة الدولة العباسية التى كانت يومئذ فى أوج شوكتها . ولكن لاح للشيعة فى أواخر القرن الثالث أن الفرصة قد سنحت لأن يقوموا بضربة حاسمة . فشهروا أسطورة المهدى من جديد سلاحاً فى يدهم وآثروا أن يحاولوا التجربة هذه المرة بعيداً عن المشرق ، فى صحارى المغرب وبين قبائله وهم يومئذ فى درك سافل من الانحطاط الفكرى وفى غمار مظلمة من البداوة والخرافات التى تدنو إلى الوثنية . وهكذا ظهر عبيد الله المهدى ، مسلحاً بهذه الأسطورة ، واستطاع بعد خطوب ووقائع جمة أن ينتزع ملك الاغالبة وأن ينشىء فى افريقية أول دولة شيعية هى دولة العبيديين الفاطميين وأن يجنى الثمار السياسية لدعوة دينية لبثت تعمل فى الخفاء على تقويض أسس الدولة العباسية زهاء قرن .

وفى قفار افريقية [1] وهضاب مراكش أيضاً ، عرف التاريخ الاسلامى أعظم تجربة لأسطورة المهدى المنتظر . وكانت وقتئذ قد خرجت من التخصيص الذى قصدها به الشيعة إلى التعميم الذى عرفت به فى عصور الاسلام الاولى . وكانت مجتمعات المغرب وقبائله كما قدمنا مهدا صالحا لامثال هذه الدعوات ، ولا سيما فى هذا العصر الذى انحدرت فيه إلى أشنع مراتب الانحطاط الفكرى والتعصب الدينى . ففى سنة ٥١٥ من الهجرة ظهر بمدينة سوس داعية يسمى محمد بن عبد الله بن تومرت ولم ينتحل لنفسه صفة معينة فى المبدأ ، بل اكتفى بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان قد درس فى المشرق ، فى بغداد وغيرها . وكانت دولة

---

(١) يقصد بها فى التاريخ الاسلامى تونس والجزائر

المرابطين قد دخلت يومئذ فى دور الاحتضار فالتفت حوله قبائل مصمودة التى كان ينتمى إلى إحداها . و بعد أعوام من الدعوة زعم إنه المهدى المعصوم وساق نسبته إلى النبي وانتحل لتأييد دعواه إمارات وشواهد وأحاديث معينة ثم رفع لواء الثورة وما زال يحارب المرابطين حتى تصدعت دولتهم ، وسقطت فريسة فى يد عبد المؤمن خلفه وأعظم صحبه ، وأسس المهدى ودعاته بذلك دولة الموحدين التى حكمت أقطار المغرب كلها ، وافتتحت الأندلس واسبغت على دولة الاسلام فى المغرب واسبانيا قوة وبهاء جديدين . وكان ابن تومرت من بين دعاة المهدية أوفرهم براعة وذكاء وحزما و زهداً ، وكان نفوذه الروحى أقوى دعامة لقيام دولته التى لبثت عصراً تحافظ على خواصها الروحية وتخضع السياسة والحرب لصولة الدين .

وفى أوائل القرن الثامن الهجرى خرج بالسوس فى عصر السلطان يوسف بن يعقوب داعية من الصوفية يعرف بالتويزرى زعم إنه المهدى المنتظر وتبعه كثير من الدهماء ، ولكن ولاة الأمر دسوا عليه من قتله غيلة ، فانقطع أمره بذلك قبل أن يستفحل . وظهر أيضاً فى أواخر هذا القرن داعية آخر يعرف بالعباس فزعم إنه المهدى وتبعه كثير من أهل غمارة وهاجم مراكش وأحرقها ، ولكنه قتل غيلة أيضا .

ولم ينس الجيل الحاضر بعد قيام محمد احمد المهدى بطل السودان القومى فى أواخر القرن المنصرم وما اقترن بدعوته من حوادث جسام.

∴

ومثل أسطورة المهدى المنتظر أسطورة المسيح المنتظر . وهى ترجع إلى أصل يهودى ، ولها فى الاسلام مكان أيضاً ، بل تمزج أحياناً بأسطورة المهدى ، فيقال ان المسيح المنتظر يظهر فى أثر المهدى ، أو يظهر معه و يأتم به . على أنها لم تلق فى النصرانية تطبيقا عمليا . وقد يرجع ذلك إلى أن الأساطير الدينية انما هى من تراث الكنيسة تصوغها طبقا لما تهوى ، وتلوح بها وتوحى بتطبيقها متى شاءت لتحقيق غاية من غاياتها . على أن فكرة المسيح المنتظر قويت فى المجتمع اليهودى فى وقت

من الأوقات ، فظهر شابيتاى تسيبى فى أواخر القرن السابع عشر فى أزمير ، وزعم إنه المسيح المنتظر ، وتبعه كثير من اليهود فى أوربا وفى المشرق ، ولقب نفسه « بملك ملوك الأرض » ولم تخمد دعوته إلا باعتقال السلطان إياه ووفاته فى سنة ١٦٧٦ ، غير أن بقية من أتباعه لاتزال اليوم فى سلانيك وتركيا . وظهر فى أثر شابيتاى ، فى سهول روسيا الغربية مثل اليوكرين و بولونيا عدد من الدعاة اليهود فى القرن الثامن عشر ، استتروا بهذه الأسطورة وأمثالها لقيادة الدهماء واستغلال إيمانهم وهم جميعاً من الكابالين ، ومنهم من كان يتقن ضروب السحر والكيمياء و يستعين بها على شق طريقه وتقوية دعوته، على أنهم جميعاً لم يكونوا أكثر من أفاقين محليين، وكانت دعواتهم تخمد بسرعة ، وقلما تخلف أثرا . و يرجع ذلك إلى ظروف العصور والأمكنة التى ظهروا فيها ، وخاصة إلى مبلغ استنارة مجتمعاتها. ومن ثم فانا نراهم يظهرون فى أظلم بقاع أوربا ، فى مجتمعات روسيا الغربية الجنوبية التى كانت يومئذ فى حالة شنيعة من التأخر والانحطاط الفكرى، وهنالك فقط يحرزون شيئاً من النجاح.

***

ونرى فى النصرانية أسطورة القيامة تؤثر فى خيال المجتمعات الاوربية أعمق تأثير فى أواخر القرن العاشر . والمعروف أن فكرة انتهاء العالم فى المستقبل القريب كانت منذ أقدم عصور النصرانية تستهوى جموعا غفيرة من النصارى . وهى ترجع فى نفس الوقت إلى فكرة ظهور المسيح أو عودته إلى وجه الأرض وفاء لوعد يقال إنه قطعه على نفسه . وعندئذ ، على ماتزعم الأسطورة ، يفصل النصارى عن باقى البشر ويستأثرون بحياة الجنان . وكان المقدر أن هذه الظاهرة الكبرى تحدث بعد ألف عام من مولد المسيح ، ففى أواخر القرن العاشر ، قويت هذه الأسطورة، فى أذهان المجتمعات النصرانية وهبت على أوربا ريح من الروعة والاستكانة واتخذت شكلها المادى فى إحياء حياة الزهد والرهبانية فى كثير من انحاء أوربا ولا سيما فى ايطاليا ، وفى اشتداد بأس الكنيسة ، وتوطد سلطانها الروحى . ولم تحل سنة ألف

حتى استولى على كثير من المجتمعات نوع من الرعب العام . ويروى ان كثيراً من الناس هاموا يومئذ فى رؤوس الجبال ، ومنهم من استأمن الأديرة على أمواله . ولم تنقشع هذه السحب المروعة من جو أوربا حتى كانت الكنيسة قد أحرزت من بينها متانة جديدة وحتى امتلأت أقبية الأديرة بالكنوز والنفائس ، وكانت فرصة الكنيسة التالية فى تقوية نفوذها و بسط سلطانها على مجتمعات أوربا المظلمة، دفعها اياها إلى سهول المشرق لتخوض معارك الحروب الصليبية .

وفى الحروب الصليبية بثت الكنيسة أساطيرها الروحيـة فى عقول الدهماء والكافة ، بل فى عقول الفرسان والسادة ، فتدفق سيل النصارى إلى المشرق فى الظاهر « لينقذوا قبر المسيح و بيت المقدس وليموتوا شهداء ويظفروا بجنات الخلد ويطهروا من كل إثم » ولتوطد الكنيسة فى الواقع سلطانها ، وتدفع خطر الاسلام الداهم عنها ، وقد كان سيل الاسلام يومئذ ينذر باقتحام أوربا من الأناضول على يد السلاجقة ، ومن اسبانيا على يد المرابطين ، فكان للأساطير الدينية بذلك آثارها العميقة فى تلك المعارك البربرية الكبرى

∴

وقد ملأت أسطورة المهدى المنتظر فراغا كبيراً فى الكلام الاسلامى . ومن الغريب أنها لبثت حتى فى أزهر عصور الاسلام مورداً لا ينضب للتنبؤ والجدل وقد رأيت أنها لم تخل من حدس فلاسفة كالكندى . على أن مفكراً عظيما هو ابن خلدون يعامل الأسطورة بتحفظ ، ويقنع بعرض ما قيل بشأنها ، ويترك مجال الاثبات والنفى لعلماء الكلام ، ولكنه يميل فى نفس الوقت إلى ناحية النفى .

وقد رأيت على أى حال أن هذه الأسطورة الكبرى لم تلق مهادا خصبة ولم تزدهر الا فى قفار أفريقية وهضابها النائية ، و بين قبائلها المتعصبة التى كانت يومئذ فى حال تدنو إلى اوثنية والهمجية منها إلى الاسلام والتمدن .

(تم)

بيان عن بعض المؤرخين الغربيين

الذين روجعت مؤلفاتهم أو ورد ذكرهم

أشبخ (يوسف) — مؤرخ ألمانى ولد فى هكست من أعمال ناساو فى سنة ١٨٠١ وتولى تدريس التاريخ فى جامعة فرانكفورت ثم فى جامعة بون ، وعنى بالاخص بدرس تاريخ اسبانيا أيام العرب والبربر ، وله فى ذلك مؤلفان شهيران أولهما « تاريخ الأمويين فى اسبانيا » والثانى « تاريخ اسبانيا تحت حكم المرابطين والموحدين » (١) وفيهما نبذ مستفيضة قوية عن نصارى الشمال .

السيد أمير على — مشترع ومفكر مسلم ولد فى موهان من أعمال الهند فى سنة ١٨٤٩ وتوفى فى أغسطس سنة ١٩٢٨ فى سوسكس بانجلترا . وهو من أعظم كتاب الاسلام ومفكريه فى عصرنا . يرجع إلى أصل عربى وينتسب إلى آل البيت وهو ولد سعادت على من أم انجليزية . درس فى كلكوتا ولندن ونال عدة أجازات فى الأدب والقانون ،واشتغل بالمحاماة فى كلكوتا أولا ثم تولى تدريس الشريعة الاسلامية بكلية الرآسة فى كلكوتا ثم عين مديراً لها . ثم تدرج فى مناصب القضاء الهندى حتى عين مستشاراً فى محكمة بنغاله العليا فكان أول هندى ظفر بهذا المنصب . وفى سنة ١٩٠٤ اعتزل القضاء وعاد إلى انجلترا وأقام فى لندن . وكان اسمه قد ذاع يومئذ ، ولفت أنظار أولى الأمر فى الهند وانجلترا بخدماته القضائية وكفايته الفقهية ، ومقدرته النادرة فى الكتابة باللغة الانجليزية ، فعين فى سنة ١٩٠٩ مستشارا ملكيا فى المجلس المخصوص فكان أيضاً أول هندى ظفر بهذا المنصب السامى .وعكف أمير على أثناء حياته الطويلة على درس الاسلام من جميع نواحيه الفقهية والتاريخية والاجتماعية ووقف قلمه الفياض وبيانه القوى على تعريف الغرب بالاسلام فأخرج كتبه الشهيرة عن الاسلام وأحكامه وتاريخه نذكر منها « رسالة نقدية فى حياة النبى وتعاليمه » « روح الاسلام أو حياة محمد وتعاليمه » وهو أقوى كتبه وأعظمها و « آداب الاسلام » و « الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية » و « مختصر تاريخ المسلمين » . وكلها كتبت بأسلوب انجليزى متين يكاد يذكر القارىء بأسلوب جيبون وماكولى . ومختصر تاريخ المسلمين من

(١) أوردنا الاسماء الافرنجيه لمؤلفات أولئك المؤرخين فى ثبت المراجع المنشور فى فاتحة الكتاب

المراجع النفيسة فى التاريخ الاسلامى رغم ايجازه فقد كتب بروح وأسلوب محدثين تقرأ فيه تاريخ الاسلام كما تقرأ تاريخ أية أمة غربية محدثة . وقد خدم أمير على تاريخ الاسلام ومدنيته بكتبه أجل الخدمات لأنه استطاع أن يقدم فيها منهما للغرب صورة قوية واضحة تدحض كثيرا مما رمي به الاسلام فى المجتمعات الغربية

أندريس (جان) — ناقد يسوعى اسباني ، ولد فى قرية من أعمال بلنسية فى سنة ١٧٤٠ ، وتوفى فى رومة سنة ١٨١٧ .وأخرج من وطنه حينما أخرج اليسوعيون من اسبانيا فهاجر إلى ايطاليا ، وانقطع للدرس والتأليف ، وأهم مؤلفاته كتاب «أصول الأدب ، وتقدمها ، وحاضرها » وهو بحث قيم ذو أسلوب قوى شائق

إيرفنج (واشنطون)— كاتب وناقد أمريكي شهير ولد فى نيويورك سنة ١٧٨٣ وتوفى سنة ١٨٥٩ . ومعظم مؤلفاته قصصية نقدية . ولكنه رحل إلى اسبانيا وأقام فيها حينا ، ودرس آثارها العربية ، وحول قلمه إلى كتابة التاريخ عندئذ ، وكتب عن عرب اسبانيا كتابين هما « فتح غرناطة » (سنة ١٨٢٩) « وقصص الحمراء» .وكتب أيضاً « تاريخ محمد وخلفائه » . وكتبه تفيض بالتشيع والتحامل ، ولكن كتاب « فتح غرناطة » يحتوى كثيراً من النبذ المؤثرة عن بسالة المسلمين أيام سقوط غرناطة

جيبون (ادوارد)— مؤرخ وفيلسوف انجليزى ، ويعتبر أعظم المؤرخين الانجليز ومن أعظم مؤرخى العالم ، ولد فى بوتنى بانجلترا سنة ١٧٣٧ وتوفى سنة ١٧٩٤ ،وشغف بالقراءة منذ حداثته ودرس حيناً فى اكسفورد ، ولكنه طرد من الكلية لتطرفه فى الآراء الدينية ، فأرسلته أسرته إلى لوزان ليتم دراسته وهنالك انكب على دراسة الآداب اللاتينية والفلسفة والاجتماع . ثم زار رومة ، وهنالك فكر فى كتابة تاريخه . ثم عاد إلى وطنه عقب وفاة والده فى سنة ١٧٧٠ ، وانتخب عضواً فى مجلس العموم . ولكنه عاد فارتد إلى لوزان ، وهنالك بدأ كتابة تاريخه ، «اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية » ، وأخرج الجزء الأول منه فى سنة ١٧٧٦ فلقى اعجابا شديداً وطبع عدة مرات فى أشهر قلائل . وانقطع جيبون لاتمام مؤلفه ، ونشره أجزاء متوالية ظهر آخرها فى سنة ١٧٨٨ . وهو من أجل الآثار التاريخية وأضخمها ويمتاز بالأخص باسلوبه الشعرى القوى ،

وبيانه الرائع، ونقده المتين، وفيه فصول بديعة عن ظهور الاسلام ونهضة العرب، والحروب الصليبية ، وقيام السلاجقة ، وتيمورلنك وربما كان أبدع فصوله القسم الذى يتعلق بسقوط رومه فى يد البربر والقسم الذى يصف سقوط القسطنطينية فى يد الترك العثمانيين. ولكنه يحتوى كثيراً من الاخطاء المادية ، وفيه حملات صارمة على الاسلام والنصرانية معا . على أنه مازال رغم مرور قرن ونصف على ظهوره يعتبر مثلا أعلى للفقه التاريخى

دوزى (رينهارت) — مستشرق هولندى كبير ، ولد فى ليدن سنة ١٨٢٠. وتوفى سنة ١٨٨٣ . وتولى تدريس التاريخ فى ليدن ، وظهر منذ حداثته فى الآداب العربية والمباحث الاسلامية . وانقطع بالأخص للبحث والتنقيب فى تاريخ اسبانيا المسلمة وأخرج فى ذلك عـدة مؤلفات شهيرة هى من خير ما كتب فى تاريخ الأندلس منها « تاريخ المسلمين فى اسبانيا إلى فتح المرابطين » « مباحث فى تاريخ اسبانيا السياسى والأدبي فى العصور الوسطى « السد طبقا لوثائق جديدة »،وكتب أيضاً تاريخ العقائد والفرق الاسلاميه وتاريخ اليهود فى مكة ، ونشر بعض الكتب العربية القديمـة منها تاريخ ابن زيان ، وتاريخ المعجب للمراكشى ، والبيان المغرب لابن العذارى،وترجم القسم الخاص بالأندلس من كتاب نزهة المشتاق للادريسى. وقد أخرج معظم كتبه بالفرنسية

سسموندى (جان دى) — مؤرخ وفيلسوف سويسرى ولد فى جنيف سنة ١٧٧٣ وتوفى سنة ١٨٤٢ كتب عدة مؤلفات نفيسة فى التاريخ أهمها « تاريخ الفرنسيين » وهو كتاب ضخم فى نحو ثلاثين مجلدا و« تاريخ الجمهوريات الايطالية فى العصور الوسطى» و« تاريخ بزوغ الحرية فى إيطاليا » و«تاريخ سقوط الدولة الرومانية» وأسلوبه شائق ونقده قوى ممتع

فنلى (جورج) — مؤرخ انجليزى ولد سنة ١٧٩١ فى مقاطعة كنت ودرس القانون فى جلاسكو وفى جتنجن بألمانيا . ولـكنه زار اليونان فى سنة ١٨٢٢ وهنالك تعرف باللورد بيرون الشاعر الانجليزى الاشهر ، وكانت اليونان يومئذ تجاهد فى سبيل استرداد حريتها ، وكانت الحركة الوطنية فيها تضطرم فاعتزم ،فنلى عندئذ أن يخوض غمار هذه الحركة وأن يقف قلمه على الدفاع عن القضية اليونانية فدرس لغة اليونان وآدابها وتاريخها درساً مستفيضا ، وغادرها ليقيم فى رومة حينا لسوء صحته ، ولـكنه عاد اليها، وانقطع للبحث والتأليف فى تاريخ اليونان فـكتب فيه عدة كتب قيمة نذكر منها.

« تاريخ اليونان من الفتح الرومانى الى العصر الحاضر » ، « اليونان فى عهد الدولة الرومانية » « تاريخ الدولة البيزنطية » « تاريخ الثورة اليونانية » وأسلوبه قوى ، وعرضه التاريخى بديع ، وكتبه حجة فيما تناولته لأنها تستند الى أوثق المصادر اليونانية. وتوفى ودفن فى اليونان سنة ١٨٧٥

كازيرى أو قصيرى (ميشيل) — مستشرق يرجع إلى أصل سورى . ولد فى طرابلس الشأم سنة ١٧١٠ ، وتوفى فى مدريد سنة ١٧٩١ ، وربى منذ حداثته فى رومة ، وانتظم فى سلك رجال الدين ، ودرس اللغات السامية . ثم عين مديراً لمكتبة الاسكوريال ، وعهدت اليه الحكومة الاسبانية كما تقدم بفحص المخطوطات العربية الاسبانية فى الاسكوريال ووضع معجمه الشهير: « المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال » وهو الذى أشرنا اليه وإلى محتوياته ، وقد ظهر ما بين سنتى ١٧٦٠ و ١٧٧٠ ، ثم جاء المستشرق درنبورج فأكمله وزاد فى شروحه ، وبدأ بنشر مباحثه منذ سنة ١٨٨٤

كوندى (يوسف انطونيو) — مستشرق اسبانى ولد فى مقاطعة قونقة سنة ١٧٦٦ ، ودرس فى جامعة الكالا (القلعة) ، وفى سنة ١٧٩٥ عين موظفاً فى المكتبة الملكية ، ونشر فى سنة ١٧٩٩ الجزء المختص باسبانيا من جغرافية الادريسى (نزهة المشتاق) بنصه العربى وانتخب عضواً فى أكاديمية مدريد ثم عضواً فى أكاديمية التاريخ ، وتوفى فى سنة ١٨٢٠ . وأشهر آثاره كتابه عند العرب فى اسبانيا وهو المسمى (تاريخ دولة المسلمين فى اسبانيا) . ظهر الجزء الأول منه سنة ١٨٢٠ ، وتوفى قبل اتمام نشره كما تقدم، وترجم إلى الفرنسية والألمانية والانجليزية . ولا يعتبر اليوم مؤلفه عن الأندلس حجة ثقة ، ولكنه كان أول مؤلف فى موضوعه اشتق من المصادر العربية ، وعالج تاريخ الأندلس السياسى ، وفيه نبذ حسنة عن تاريخ نصارى الشمال ، وفصول مؤثرة عن سقوط غرناطة ، واخراج الموريسكو . وقد أشرنا فيما تقدم إلى حملة دوزى عليه

ماسدى (جوان فرانشيسكو) — مؤرخ اسبانى ولد فى برشلونه سنة ١٧٤٠ وتوفى فى بلنسية سنة ١٨١٧ ، وهو يسوعى أيضاً، فلما أخرج اليسوعيون من اسبانيا ، هاجر إلى ايطاليا كمواطنه ومعاصره اندريس . ولكنه عاد إلى وطنه بعد ذلك ، وعكف على دراسة التاريخ الاسبانى . وبدأ بكتابة تاريخ عام ضخم لاسبانيا ، ونشر

القسم الأول منه بالايطالية بين سنتى ١٧٨٢ و ٩٧ فى جزئين كبيرين ، ولكنه نبذ فكرة التاريخ العام ، وعاد لخولها إلى كتابة تاريخ نقدى شامل للحضارة الاسبانية . وأخرج مؤلفه الشهير « تاريخ نقدى للحضارة الاسبانية » ، وهو مؤلف ضخم جدا يقع فى عدة مجلدات كبيرة ، ولكنه يقف فى مباحثه عند أواخر القرن الخامس عشر ويرى النقدة انه ينقصه الصقل والترتيب ، ولكنه مع ذلك مرجع نفيس للتاريخ الأسبانى

بعض الأعلام التى وردت خلال هذه الفصول ومقابلها الافرنجى

Alfonso	الاذفونش أو الادفونش
Algeciras	الجزيرة
Alhambra	الحمراء
Almohades	الموحدون
Almoravides	المرابطون
Alpuxarras	البشرات
Amorium	عمورية
Aragon	الثغر الأعلى
Asturias	اشتوريش
Boabdil	ابو عبدالله محمد آخر ملوك الاندلس
Caesarius	قيصريوس
Calabria	قلوريه
Castille	قشتالة
Charles Charlemagne	قارله
Cid il Campeador	السيد الكنبيطور
Crete	إقريطش
Franks	الفرنج
Feudalism	نظم الاقطاع
Galicia	جليقية
Gaul	غاليس
Granada	غرناطة
Goths	القوط
Guadix	وادى آش
Helles	الدردنيل
Inquisi tin	مجلس التحقيق
Moriscoes Mauresques	العرب المتنصرون
Normans	المجوس
Sancho	شانجة (سانكو)
Saragossa	سرقسطه
Sclavonians Slaves	الصقالبة
Syracuse	سرقوسة
Tarsus	طرسوس
Toledo	طليطلة
Tours et Poitiers	بلاط الشهداء
Valencia	بلنسية
Xenil	شنيل
Zapetra	زبطرة

فهرس أبجدى عام INDEX

(ا)

(ب)

(ت)

(ج — ح — خ)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع — غ)